

يا قوسنت الحموي
انصاف الرماله لرب

بقلم
أبو الفتح محمد الشراشي



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

أعلام العرب

٩٣

ياقوت الحموي
الجغرافي الرحالة الأديب

بقلم
أبرار الفتوح محمد الترانسي



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه الحضارة العربية الاسلامية قد احتلت مكانها المرموق بين الحضارات الانسانية عقب انهيار الحضارتين الرومانية والفارسية وحين أشرقت على العالم بأضوائها الباهرة - كانت تستند الى قواعد وأصول دينية ، تشمل أسمى نظام عرفته الانسانية فى تاريخها الطويل ، هذا النظام الجديد الفريد جاء يدعو الى عمارة الأرض ، واستثمار خيراتها المباركة ، ويجمع بين خيري الدنيا والآخرة ، ويوفق بين مطالب الروح وحاجات الجسد ، ويسوى فى العزة والكرامة بين الأسود والأبيض ، ويبنى العقيدة على الحرية والاختيار ، ويتيح للنفس الانسانية مجالات الرقى الروحي والخلقى .

ذلك النظام هو الاسلام الذى ساد أكبر جزء من العالم فى ذلك الحين فى سنوات قليلة ، وبني فلسفته الآلهية ، وأسس الحضارية على المؤاخاة بين العقل والدين ، واستخدام الفكر والمنطق فى خدمة قضايا الانسانية وحل مشكلاتها .

وكانت الانسانية يومئذ فى أدق مرحلة من تاريخها ، فوجدت

فيه علاجاً حاسماً لاضطرابها ، ودواء ناجعاً لعللها وأسقامها ، وعندئذ سلك سبيله الى الانتشار السريع ، الذى أثار الدهشة والاعجاب فى العالم كله •

ومما يلفت النظر فى النظام الحضارى الاسلامى أنه فى أصل تكوينه قام يدعو الى احترام العقل ، ويحث على طلب العلم ، والانتفاع بثمرات الفكر ، فكانت أول آية نزلت من القرآن الكريم دعوة كريمة الى تعلم القراءة :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (١) •

وقد كانت القراءة - وما تنال - أداة التحصيل العلمى ، ومفتاح أبواب الحكمة وكنوز المعرفة الانسانية ، فما لبث أن تدفق تيار الحركة العلمية فى الاسلام ، يحمل معه علوم الدنيا والآخرة ، وأخذت الحضارة العربية الاسلامية ترحف الى الأقاليم المفتوحة ، وتظلل بأجنحتها القوية بلدانا كثيرة ، حتى وصلت الى جنوبى فرنسا غربا والى غربى الصين شرقا •

ونحن حينما نطلق كلمة (الحضارة) فاننا نريد منها الاجتماع البشرى ، وما يصحبه من رقى وتأخر ، وتأثير وتأثر ، ويذهب علماء

(١) سورة العلق الآيات من (١ - ٥) •

تاريخ الحضارة الى أن المدنية تستهدف النواحي العلمية والمادية ،
وما يتصل بها من اختراع وابتكار فى حياة الأمم •

وأما (الثقافة) فيراد منها الجوانب الروحية والمعنوية ، التى
تتمثل فى الدين والعادات والتقاليد والفنون والآداب والفلسفات ،
ومذاهب الحياة ، غير أنهم قد يعدلون عن هذا أحيانا ، ويقولون :
ان الحضارة مرادفة للمدنية وجامعة لمعانى الثقافة •

وعلى هذا الأساس اذا تحدثنا عن حضارة العرب والمسلمين
فاننا نقصد منها الأسس التى وضعها الاسلام متمثلة فى العقائد
والأخلاق والآداب ونظم الحياة ، وما أبدعه المسلمون فى اليثات
التى أظلتها راية الاسلام من علم وفن وأدب وفلسفة وحكمة ،
وما ابتكروه من مخترعات ، ووصلوا اليه من مكتشفات أثرت علم
الانسانية ، وزادته خصبا ، حتى غدا علما واسعا ، يتناول كل شئون
الحياة ، وعلميا عمليا تطبيقيا ، يستخدم فى النهوض بالبشرية ،
وتوفير الخير للانسانية ، واذا رجعنا الى المصادر العربية - وفى
مقدمتها معاجم اللغة - وجدناها تفسر الحضارة بأنها خلاف السكنى
فى البادية ، ويعرفها ابن خلدون بالتوسع والتألق فى أسباب
المعاش ، فى حين أن البداوة هى الاكتفاء بالضرورة من أسباب
المعاش ، ثم اذا ألقينا نظرة سريعة على تاريخ الحضارة العربية
الاسلامية - وجدنا العرب والمسلمين قد أضافوا الى التراث
الانسانى ثروة ضخمة فى مختلف العلوم وقد حاول كثير من

العلماء والمؤلفين من العرب والمسلمين - أن ينوهوا عن هذا التراث العظيم ، فبرى ابن خلدون يعقد فصولاً ممتعة فى مقدمته المشهورة عن علوم العرب والمسلمين ، ونجد (حاجى خليفة) يفعل مثل ذلك فى كتابه (كشف الظنون) ، وصديق حسن خان العالم الهندى المسلم يؤلف موسوعته الضخمة فى ذلك وهى كتابه المشهور (أبجد العلوم) ، ثم ابن النديم فى فهرسته ، وكذلك حاول علماء عصرنا العرب فى مصر وفى الأقطار العربية تسجيل انطباعاتهم عن مضمون الحضارة العربية الإسلامية فى كتبهم ومحاضراتهم •

أما علماء الغرب فقد تحدث كثير منهم عن علوم العرب والمسلمين ، ومنهم (ألدوميللى) الايطالى فى كتابه (العلم عند العرب) ، وسارطون العالم الأمريكى فى كتابه (تاريخ العلم) وجوستاف جرونياوم فى كتابه (حضارة الاسلام) وغيرهم ، ولكن مما يدعونا الى الأسف البالغ أننا نرى الغربيين يهتمون اهتماماً بالغاً بدراسة تاريخ الحضارة العربية الإسلامية فى مؤلفاتهم الضخمة فى عصرنا ، ونحن أبناء تلك الحضارة نعزف عنها كل العزوف ، مع أن ثورتنا التى نعيش فيها ، ومجتمعنا الجديد الذى نؤمن بمبادئه ، وندين بقيمه واتجاهاته - يقومان على احياء النظم الإسلامية ، وتجديد شباب الاسلام ، ويستمدان أهدافهما من الحضارة العربية الإسلامية ، ولا شك أن ذلك مما يدفعنا فى حماس واصرار الى دراسة تاريخ هذه الحضارة •

وفى كتابى هذا أقدم للقراء العرب والمسلمين ياقوتا الحموى،
وهو أحد أعلام الجغرافية المسلمين ، الذين يكونون ببحوثهم فى
الجغرافية الوصفية والطبيعية والفلكية حلقات مترابطة فى سلسلة
تاريخ الأدب الجغرافى العربى والحضارة العربية الاسلامية ، لعل
بذلك أرسم خطا واضحا فى الطريق ، لتوجيه شباب العرب
والمسلمين الى الاقبال على الدراسات العربية الاسلامية ، فى مختلف
صورها ، باعتبارها الآن الأساس القوى لمنطلقنا الثورى فى الميدان
العلمى ، وفى جميع نواحي الحياة ، وليس فى هذا التوجيه دعوة
الى الرجوع الى العلم القديم ، وانما هو تنبيه خالص على ما فى
حضارتنا العربية الاسلامية من جوانب كثيرة صالحة للبناء ، يمكن
وصلها بالعلم الحديث ، والسير فيها قدما الى الأمام ، والعرب قد
خاضوا فى اقتدار وأصالة فى نواح كثيرة من مختلف الثقافات
الانسانية، وسجلوا فى كل ناحية انتاجا عظيم القيمة، اذ بعد أن نقلوا
التراث اليونانى وغيره من تراث الأمم القديمة نقلا أميناً دقيقاً -
أخذوا يتوافدون على دراسته ، وتصحيح ما فيه من أخطاء ، ثم
انتقلوا من هذه المرحلة الى مراحل الاستيعاب والهضم والتوليد
والابتكار ، حتى وصلوا الى تراثهم الضخم العظيم ، الذى ينسب
اليهم ، وكانت علوم الجغرافية من العلوم التى اشتغلوا بها بدافع
حاجتهم الى التنقل والأسفار وركوب البحار ، ولبعض البواعث
الدينية الأخرى •

وقد التزمت فى هذا الكتاب تقسيمه الى أربعة فصول بعد المقدمة تيسيرا لدراسته ، فالفصل الأول فى الجغرافية عند العرب فى الجاهلية والاسلام والقرآن والجغرافية والفصل الثانى فى عصر ياقوت فى ميزان التاريخ ، وفى حياة ياقوت ونشأته وثقافته ، وتفوقه فى وضع الموسوعات الجغرافية والتاريخية والأدبية، والفصل الثالث فى نماذج من معجم البلدان ، وفى مادة المعجم وقيمتها الجغرافية والأدبية والتاريخية ، والفصل الرابع فى ياقوت بين الجغرافيين ، ومعجم الأدباء والرأى فيه ، وفقنا الله فيما فيه مستقبل وطننا العربى الكبير و ورحم الله الزعيم الخالد فقد كان رائدا للعروبة وحامى حمى الاسلام •



مركز تحقيقات كتابت و توثيق اسلامى

الفصل الأول



العرب والجغرافية فى عصر ما قبل الاسلام :

كانت العرب فى الجاهلية تعرف الجغرافية بمعنى وصف الأرض ؛ لأنهم كانوا على خبرة واسعة بوصف بلادهم ومواطنهم ، مما لا تعرف أى أمة من وصف بلادها ، ولما اتسعت فتوحاتهم بعد الاسلام سموها هذا الفن : « علم المسالك والممالك » أى الجغرافية الوصفية التخطيطية ، أما الجغرافية الرياضية التى تبحث فى شكل الأرض وعلاقتها بغيرها من الكواكب ، فقد نقلوها عن الهنود ، ثم عن اليونان •

ويرجح الباحثون أن معلوماتهم الجغرافية تقوم أساسا على التجارب العملية ، التى يحتاج اليها التجار عادة ، والتى يستعين بها العرب الرحل على تتبع مساقط الغيث ومنبت الكلاً والعشب ، وقد كان العرب - وبخاصة سكان القسم الجنوبى من الجزيرة العربية -

يقومون بدور الوسيط التجارى بين الهند وإفريقية الشرقية وبلاد
دجلة والفرات والامبراطورية الرومانية ، ولا شك أن المعلومات
الجغرافية التى كانت وليدة هذه الحاجة - وكانت تتناول وصف
الطرق والآبار وموارد المياه والجبال والقبائل وغيرها - قد تردد
صداها بين المؤلفين العرب وغيرهم ، ممن عاشوا فى هذه الأعصار ،
ويشير (كراتشوكوفسكى) فى كتابه «تاريخ الأدب الجغرافى العربى»
الى بعضهم ، ومنهم العالم الكلاسيكى القديم (ايزيدور الحركى) ،
ويقول : انه وضع مصنفاً وصف فيه طرق القوافل بين انطاكية
وحدود الهند ، وهو من سكان سواحل الخليج (الفارسى) العربى ،
وربما كان عربى الأصل ، ويعلق على ذلك الأستاذ صلاح الدين
هاشم مترجم كتاب العلامة الروسى بقوله : « انه لا يُعلم من أمر
(ايزيدور) هذا شئ يذكر ، ويبدو أنه من مدينة تجارية تقع على
فم الخليج (العربى) ويظن بعضهم أنها (المحمرة) ، وأنه عاش
أيام (أغسطس قيصر) فى القرن الأول الميلادى » .

ولكن هذا الكتاب وغيره من الكتب التى يقال انها قد ألفت
فى ذلك العهد البعيد - لم تعكس بالدقة المعلومات الواضحة عن
التصورات الجغرافية للعرب فى جاهليتهم ، ولكن الشعر الجاهلى قد
حفظ لنا كثيراً من هذه المعلومات ، كما سنوضحه بعد ، ومن الواضح
أن هذه المعلومات كانت محدودة ؛ لأنها كانت داخل الاطار الذى
رسمته طبيعة الحياة فى العصر الجاهلى .

لقد كان العرب في جاهليتهم على علم دقيق بأحوال الجو والكواكب والنجوم ، وقد ساعدهم على هذا واقع حياتهم ، اذ كان عليهم أن يعلموا شيئاً عن النجوم الثابتة وسير الكواكب المتحركة ، وغيرها من الأجرام السماوية ، كما كان عليهم أن يتابعوا تغيرات الطقس ، فعرفوا مدارات الكواكب وهي السموات ، وقد عرفوا السماء بأنها كل ما علاك فأظلك ، ويتفق اعتقادهم في السماوات مع معتقدات أصحاب الأديان السابقة ، فأطلقوا على السماء الدنيا (الرقيع) وعلى السماء الثالثة (الصاقورة) أو (الحاقورة) وعلى السماء الرابعة (الخضراء) ، وعرفوا الفلك بأنه مدار النجوم الذي يضمها ، والمجرة بأنها (أم النجوم) ومن كواكبها الشمس ، وأطلقوا على القمر (الهلال) من أول أن يهل الى ثلاث ليال ، ثم هو قمر بعد ذلك الى أن يهل عليهم ثانياً ، ويبدو أن القمر كانت له أهمية خاصة في حياتهم تفوق غيره من النجوم ، وقد عبر عن ذلك ابن منظور الافريقى بقوله : « أنسوا بالقمر ؛ لأنهم يجلسون فيه للسمر ، ويهديهم السبل في سرى الليل والسفر ، ويزيل عنهم وحشة الغاسق ، وينم على المؤذى والطارق » .

ولأهمية القمر عندهم جعلوا له منازل وأنواء ، والمنازل جمع منزل ، والمراد به المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة ، وهي عند أهل الهند سبعة وعشرون ؛ لأن القمر يقطع فلك البروج في رأيهم في سبعة وعشرين يوماً وثلاث يوم ، ولكنهم حذفوا الثلث ؛

لأنه ينقص عن النصف ، كما هو في اصطلاح علماء التنجيم •

وأما عند العرب وسكان البادية فهو يقطعها في ثمانية وعشرين يوما ، وكانوا يقسمون هذه المنازل الى أنواء ويقول أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجي في كتاب الأنواء :

« السنة عند العرب أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنواء ، ولكل نوء ثلاثة عشر يوما ، الا نوء الجهة فانه أربعة عشر يوما ، فزادوا فيه يوما ، حتى تكمل السنة ، وتصبح ثلاثمائة وخمسة وستين يوما » •

والعرب يجعلون النوء للغارب من الكواكب ؛ لأنه ينهض للغروب متاقلا ، ويقول المنجمون منهم : انه الطالع وذهب المبرد الى أن النوء هو على الحقيقة الطالع من الكواكب لا الغارب • وللأنواء ارتباط وثيق بالظواهر الجوية ، ولذلك نراهم في أكثر الأحيان يريدون من النوء المطر ، وان كان قد عرف في المصطلحات الحديثة بمعنى العاصفة البحرية ، وعرف العرب كثيرا من الكواكب غير القمر ، عرفوا (الزهرة) « Venus » وعطارد Mercury وعرفوا من النجوم ما يناهز مائتين وخمسين نجما ، وقسم العرب منطقة فلك البروج الى اثني عشر برجاً ، جمعها بعض الشعراء في قوله :

حمل الثَّوْرُ جَوْزَةَ السَّرَطَانِ ورعى الليثُ سنبِلَ المِيزَانِ
وزنوا عقربا وقوسا بجذَى ومن الدلو مشربُ الحِيتَانِ
وقسموا السنة أربعة فصول : الربيع والصيف والخريف
والشتاء ، وعرفوا أحوال الجو المختلفة ، وما يعقب ذلك من الظواهر
الجوية •

ومن معارف العرب فى جاهليتهم ما يسمونه (علم نزول
الغيث) ، وقد كانوا بما لهم من تجارب فى هذه الناحية يستطيعون
أن يستدلوا بأحوال الرياح والسحاب والبرق على نزول المطر ،
ولعلمهم كانوا أبرع من غيرهم من الأمم القديمة فى التنبؤ بوقت نزول
الغيث ؛ لأنهم كانوا فى أشد الحاجة إليه ، إذ كانت حياتهم من سقى
وزرع متوقف عليه ، ويروى صاحب الأغاني قصة ان دلت على شىء
- فانما تدل على هذه الحاسة القوية الغريبة فى التنبؤ بالوقت الذى
يجىء فيه الغيث يقول : خرج أعرابى مكفوف البصر ، ومعه ابنة
عم له ، لرعى غنم لهما :

قال الشيخ لابنة عمه : أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك
فانظرى •

فقالت : أراها كأنها ربرب (١) معزى هزلى •

(١) (الربرب) : القطيع من بقر الوحش ، والمراد قطيع من المعزى الموصوفة
بالهزال والضعف •

قال : ارعى واحذرى •

ثم قال بعد ساعة : انى أجدر ریح النسيم قد دنا ، فارفعى رأسك وانظرى •

قالت : أراها كأنها بغال دهم (١) ، تجر جلالها (٢) •

قال : ارعى واحذرى •

ثم مكث ساعة وقال : انى لأجدر ریح النسيم قد دنا ، فانظرى •

قالت : أراها كأنها بطن حمار أصحر (٣) ، فقال : ارعى

واحذرى •

ثم مكث ساعة وقال : انى لأجدر ریح النسيم فماذا ترين ؟

قالت : أراها كما قال الشاعر :

دان مُسَفٌّ فَوَيْقُ الْأَرْضِ هِيَا بِهِ يَكَادُ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ (٤)
كَأَنَّمَا بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ رِيْطٌ مَنَشَّرَةٌ أَوْ ضَوْءٌ مُصْبَاحٍ (٥)

(١) (بغال دهم) بغال سود •

(٢) (جلالها) : الجلال واحد هاجل ، وهو للدابة كالثوب للانسان ، تصان

به •

(٣) (حمار أصحر) : حمار أبيض وفيه حمرة ، وصحر الحمار : نهق نهاقا

شديدا •

(٤) (المسف) الدانى من الارض ، والهيدب : السحاب الذى يتدلى ويدنو

مثل هذب القطيفة •

(٥) (الريط) : جمع ريطة : وهى كل ثوب لين رقيق •

فمن بمحفله كمن بنجوتيه والمستكن كمن يمشى بقرّواح^(١)

فقال : انجى لا أبالك ! فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء

عليها •

وهذه القصة فى جملتها تدل على أن العرب لشدة ذكائهم وفوة حاستهم الفلكية - كانوا يستدلون بأوصاف السحب وألوانها المختلفة على قرب نزول الغيث ، كما تترجم عن سرعة بديهة ابنة عم الشيخ ، وقدرتها العجيبة على وصف النسيم بأوصاف دقيقة ، وتشبيهه بهذه التشبيهات المحكمة ، كذلك تدل على قوة حاسة الشم عند الشيخ المكفوف البصر والارتباط الغريب بين هذه الحاسة وأحوال النسيم المختلفة ، كذلك تدل أبيات الشعر التى وردت فى القصة على مدى احتفاظ الشعر العربى فى الجاهلية بكثير من معلومات العرب فى الجغرافية الفلكية ، وكأن ابنة عم الشيخ تقول فى هذه الأبيات التى تمثلت بها : ان السحب قد دنت من الأرض ، حتى لأكاد أدفعها بكفى ، وكانت الأضواء تخرقها فتفصل بين أعلاها وأسفلها ، وهى تريد أضواء البرق الخاطف، ثم هى لتزاحمها

(١) (فمن بمحفله كمن بنجوتيه) : المحفل : مجرى معظم السيل ، يريد

ان أى ناحية منه سواء لكثرة المطر . والقرواح : الفضاء .

وكثرتها ترى كأنها قطعة سوداء فى كل نواحيها ، ولا يمكن أن يستتر منها انسان - الا اذا كان سائرا فى فضاء لا تحجيه تلك السحب •

وعرف العرب الرياح ، وهى عندهم أربع : الشمال والجنوب والصباء والذبور ، وقد أشاروا إليها فى شعرهم ويقولون : ان الشمال تهب من مطلع بنات نعش الى مغرب الشمس صيفا ، وكانوا يكرهونها لبردها ، ولأنها كانت تذهب بالغيم والحيا والحصب فى زعمهم ، وقد يسمونها أحيانا الشامية ، وقد كانوا فى أثناء هبوبها يتمدحون بالانفاق والكرم ، وأما الجنوب فقالوا فيها :

انها تهب من مطلع سهيل الى مطلع الشمس شتاء ، وأما الصبا فمهبها من مطلع الشمس الى مطلع العيوق ، والعيون كوكب مضى أحمر ، يقع شمالى مطلع الثريا بقدر ثلاث قامات رمح ، أو أرجح بالنسبة للرأى من الأرض ، ويطلقون عليها رقيب الثريا • وكانت العرب تفضل الصبا من الرياح وتحبها ؛ لأنها ريح لطيفة رقيقة ، تأتى بالسحاب والمطر ، وفيها الرى والحصب ، ويسمونها أيضا اليمانية •

وقالوا فى سبب تسميتها بالصبا : ان النفوس كانت تصبو إليها ؛ لطيب نسيمها وروحها ، والصبوة عندهم الميل ، يقال : صبا الى كذا اذا مال اليه ، وجاء فى الأثر الشريف : « ما بعث نبى الا والصباء معه » •

وأما الدبور فمهبها من مغرب الشمس الى مطلع سهيل ،
وما بين كل واحدة من هذه الرياح الأربع صفات وخواص ، يعرفها
ذوو الخبرة منهم •

ومما يستدلون به على نزول الغيث الرعد والبرق ، فالرعد
إذا أُرزم : أى صوّت صوتاً غير شديد - استدلوا به على بعد نزول
المطر ، وإذا تهزم : أى صوت أشد الصوت - استدلوا به على قرب
نزول المطر •

وكانت العرب فى الجاهلية على علم دقيق بفنون الملاحة
البحرية ، مما يدل على أنهم ركبوا البحار ، لأن كثيرين منهم كانوا
يعيشون على سواحل (بحر القلزم) البحر الأحمر ، وعلى السواحل
المطلّة على المحيط الهندى فى جنوب الجزيرة ، ومنهم من كان
يعيش على شواطئ الخليج العربى ، وفى الجزر التى تقع فيه •

وهؤلاء جميعا كان منهم عدد كبير من التجار ، وكانت لهم
تجارات واسعة فى الهند والحبشة وبلاد الروم ، وقد أشار (القرآن
الكريم) فى كثير من آيه اليينات الى ركوب العرب البحر ، وجريان
الفلك بهم فوق مياهه المضطربة وأمواجه المتلاطمة ، والشعر
الجاهلى ملىء بالأمثلة الناطقة ، التى تدل على المامهم الدقيق بفنون
الملاحة ، التى هى من وحي خبرتهم وتجاربهم العملية •

قال عمرو بن كلثوم التغلبي فى معلقته المشهورة :

مَلَأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَمَاءَ الْبَحْرِ تَمَلَّؤُهُ سَفِينَا
إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِي تَحَرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

فالشاعر يقول : ان قومه لكثرتهم قد ضاق عنهم البر ؛ ولذلك
ملئوا البحر بسفنهم الغادية والرائحة ، واذا بلغ صبيهم الفطام سجد
له الجبابرة من غير العرب لشجاعته ، وخوفا من بأسه .

ولا يخلو قول الشاعر في البيت الثاني من مبالغة ظاهرة .

ويدل اهتمام العرب - وبخاصة سكان سواحل الممرات المائية -

بالسفن على علمهم الدقيق بصناعتها .

وقد صنعوها لتكون مركبا لهم في البحر ، والسفينة مأخوذة
من سفنه بسفنه اذا قشره ، وقد سميت بذلك ؛ لأنها تقشر وجه
الماء ، وصاحبها (السفان) ، والدسار واحد الدسر ، وهي خيوط
تشد بها ألواح السفينة ، ويقال هي المسامير ، ويشير إليها (القرآن
الكريم) في قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » ،
والمجداف ما تجدف به السفينة ، والجؤجؤ : صدر السفينة ،
والمرساة : آلة ترسى بها السفينة ، والنوتى : الملاح ، وهو الذى يلى
الشراع ، والشراع كالملاءة الواسعة فوق خشبة ، تصفقه الريح ،
فتمضى بالسفينة .

ومن أسماء السفن عندهم : الفلك والقرقور ، والجارية ،
والحلية ، وهى أسماء السفن الكبيرة •

ومن أسماء السفن الصغيرة : الزورق ، والبوص ، وقال
الجوهري : والبوصى ضرب من السفن ، وهو معرب والقارب
سفينة صغيرة تكون مع أصحاب السفن البحرية الكبيرة ، تستخف
لحوائجهم •

لا شك أن هذه الثقافة اللغوية دليل على مبلغ علم العرب فى
العصر الجاهلى بفنون الملاحة البحرية ، وقد كانت عنايتهم الواضحة
بوضع أسماء لأنواع السفن المختلفة وأجزائها - نتيجة طبيعية لهذه
الثقافة ، حتى قيل : ان علم الملاحة من أوسع علوم العرب ، وكان
قائما على معارف ومعلومات ، كسبوها بخبرتهم ، ومنها معرفة سموت
البحر ، ومهاب الرياح وعواصفها ، ورخائها ، ومطرها ، وغير
مطرها ، وجميع الأنواء ، وما فى البحار من جبال وجزر ، هذا
بالإضافة الى أن العلم بصناعة التجارة ، كان ضرورة يفرضها الاشتغال
بالملاحة ، وقال ابن خلدون : « وقد يحتاج الى صناعة التجارة فى
انشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدر ، وهى أجرام
هندسية ، صنعت على قالب الحوت ، ليكون ذلك الشكل أعون لها
على مصادمة الماء ، » •

ان من المؤكد أن عرب الجاهلية كانوا على علم بالجغرافية

الفلكية والوصفية ، وأن هذا العلم كان نابعا من تجاربهم ومما أملت
عليهم ظروف حياتهم وبيئتهم •

الجغرافية الوصفية في لغة العرب وشعرهم قبل الاسلام وبعده
بالرغم مما أشرنا اليه من علم العرب بصناعة السفن ، وأنهم
قد أثروا لغتهم بأسمائها ، وأسماء أجزائها المختلفة ، فانهم أضافوا
الى لغتهم ثروة أخرى ، كالتعريف ببعض المصطلحات الجغرافية ،
وضمنوا شعرهم الكثير من أسماء الأماكن ووصف البقاع والمدن ،
فهم يقولون : والجزيرة ما ارتفع عنها الماء ، وهى مأخوذة من
الجزر ، الذى هو ضد المد ، ثم توسعوا فى ذلك فأطلقوا اسم الجزيرة
على كل ما دار عليه الماء ، ويلاحظ أنهم لم يفرقوا بين الجزيرة
وشبه الجزيرة ، بدليل أنهم سموا بلادهم جزيرة ، ولا يحيط بها
الماء الا من ثلاث جهات ، ويقولون فى وصف مدينة الرسول
(صلوات الله عليه) •

فأما الحجاز ففيه من البلاد المشهورة المدينة النبوية ، على
ساكنها أفضل الصلاة ، وأكمل السلام ، وقيل هى من نجد ، وهى
بلدة طيبة مباركة ، كثيرة الخيرات ، عذبة المياه ، وافرة النخيل
والثمار ، أهلها وسكنتها يودون الغرباء ، ويحبون من هاجر اليهم ،
ويقولون فى الطائف :

وهو بطن من جبل غزوان بشرقى مكة ، وهو شديد البرد ،

كثير الفواكه ، لما فيه من كثرة البساتين ، التي تسقيها العيون
والجداول المنحدرة من الجبال •

وأما نجد فهي أطيب أراض في الجزيرة ، وقد لهج الشعراء
قديمًا وحديثًا بذكرها ، مترنمين برباها الجميلة ، وريا عطرها ،
يقول شاعرهم :

أقول لصاحبي والعيسُ تهوى بنا بين المنيفة فالضمار^(١)
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار^(٢)
ألا يا حبّذا نفحاتُ نجدٍ وريّاً روضه غبّ القطار^(٣)

وقال ابن الدمينه : *الخيطة كغيرها من راسي*

ألا يا صبا نجدٍ متى هجّت من نجدٍ
لقد زادني مسراكِ وجداً على وجد^(٤)

(١) (المنيفة) : ماء لتعيم ، والضمار : اسم موضع ، وقوله فالضمار من
حق العطف أن يكون بالواو ، لأن بين لا تدخل الا بين شيئين متباينين ، وتأويل
ذلك انه أراد بين أجزاء المنيفة .

(٢) (الشميم) : مصدر من شم يشم ، والعرار : وردة ناعمة صفراء طيبة
الرائحة .

(٣) (النفح) : تضوع الرياح بالنسيم الطيب ، والريا : الرائحة ؛
والقطار : جمع قطر وهو المطر .

(٤) (الصبا : ريح القبول ، وهاجت : ثارت : والمعنى ألا ياصبا نجد =

وقال الصمة بن عبد الله :

قفا ودّعا نجداً ومن حلّ بالحمى
وقلّ لنجد عندنا أن يؤدّعا

بنفسى تلك الأرض ! ما أطيب الرّبا !

وما أحسن المصطاف والمتربّع !

ويقولون : ومن المدن المشهورة باليمن (صنعاء) وكانت من أحسن البلاد مساكن ، وأطيبها وأصحها هواء ، يقال : ان شتاءها فى غاية البرودة ، ومع ذلك لا يحصل منه ضرر لأحد ، وكانت هذه المدينة من أشهر بلاد العرب وأنزهها ، وكانت تحاكى دمشق الشام لكثرة مياهها وأشجارها ، وهى معتدلة الهواء ، حسنة الأسواق ، واسعة التجارة .

وقالوا فى (مأرب) : وهى من مدن اليمن القديمة ، كانت لطيفة الهواء حسنة التربة ، لا تحدث فيها عاهة ، ولا يكون فيها هامة ، حتى ان الغريب اذا دخلها وفى ثيابه (قمل) أو (براغيث) ماتت ولذلك وصفها القرآن الكريم بأنها بلدة طيبة ، وقيل : المراد بطيبتها صحة هوائها ، وعذوبة مائها ، ووفور نزهتها ، وأنه ليس فيها حر يؤذى فى الصيف ، ولا برد يؤذى فى الشتاء ، وكان عن

= متى كان هبوبك من نجد ، التى هى أرض الاحباب ، فلقد زادنى مسراك حزناً على حزن ، فما كان منك هبوب الا كان منى وجد .

يمين البلدة وشمالها بساتين كثيرة ، ويقال ان لكل منزل من منازل
البلد جنة عن اليمين ، وأخرى عن الشمال ، وذلك بسبب كثرة
ما كان من المياه في أرضها ، وقالوا ان (بلقيس) ملكة سبأ -
لما أقامت السد جعلت له أبوابا ، بعضها فوق بعض ، وبنت من دونه
بركة ، فيها اثنا عشر مخرجا على عدة أنهارهم ، وكان الماء يخرج
لأهل اليمن بالسوية ، الى أن كان من شأنها مع سليمان عليه
السلام ما كان ، وقيل ان الذى بنى السد (حمير) أبو القبائل
اليمنية ، وقيل بناه (لقمان الأكبر بن عاد) ، ورصف أحجاره
بالرصاص والحديد ، وكان فرسخا فى فرسخ ، ولم يزلوا فى أرغد
عيش ، وأخصب أرض ، حتى ان المرأة تخرج وعلى رأسها
(المكتل) (١) ، فتعمل بيديها ، وتسير ، فيمتلئ المکتل ، مما يتساقط
من أشجار بساتينهم ، الى أن أعرضوا عن الشكر ، وكذبوا الأنبياء
عليهم السلام ، فسلط الله على سدهم (الخلد) (٢) ، توالد فيه
فخرقه ، فأرسل الله سبحانه وتعالى سيلا عظيما ، فحمل السد ،
وذهب بالجنان وكثير من الناس ، ويعرف (بسد مأرب) ، وكان
ذلك فى أواخر القرن الثانى الميلادى ، ويلاحظ فى النماذج السابقة
أن الجغرافية الوصفية عند العرب تتصل أقوى اتصال بالتاريخ ،
وأن العرب يجعلون الشعر فى خدمتها •

(١) المکتل : بكسر الميم : الزبيب وهو ما يعمل من الخوص ، يحمل فيه
التمر وغيره .

(٢) (الخلد) : بالضم والفتح : الفار الأعشى .

كذلك نلاحظ أن ثقافة العرب الجغرافية تجمع بين الجغرافية الوصفية والجغرافية الفلكية ، وكان ذلك واضحاً في حياتهم في الجاهلية ، ثم ظهر ذلك بشكل أكثر عمقا واتساعا بعد الاسلام .

الجغرافية عند العرب بعد الاسلام :

اشتد اقبال العرب والمسلمين على الدراسات الجغرافية بعد الاسلام ، وكانت الحوافز التي دفعتهم الى ذلك أول الأمر ترجع الى أسباب دينية ، لها صلة وارتباط ببيان أحوال البلاد ، التي فتحت صلحا أو عنوة ، ليتقرر في ضوء ذلك ما يؤخذ منها من الجزية والخراج ، والى هذا ذهب أصحاب السير والمغازي ورواة الأخبار ، ذلك لأن البحوث الجغرافية العربية الاسلامية قد نشأت في بداية تكوينها متصلة بأخبار الفتوح والغزوات ، ويضاف الى ذلك أن أداء فريضة الحج كانت عاملا آخر ساعد على التعرف على المسالك والطرق البرية والبحرية المؤدية الى مكة والمدينة وبخاصة اذا قدم الحجاج من أقطار نائية بعيدة ، كذلك كانت الرحلة في طلب العلم استجابة لدعوة القرآن الكريم « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . ثم لأحاديث الرسول (صلوات الله عليه) : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . و « اطلبوا العلم ولو بالصين » .

ويؤكد العلامة الايطالى (نللىنو) ما سبق أن أشرنا اليه من جمع العرب بين الجغرافية الوصفية والفلكية ، فيقول فى كتابه (تاريخ الفلك عند العرب) فى القرون الوسطى (ص ١٠٥ - ١٠٨) : « ان قدماء أهل بابل قد تصوروا السماء كأنها سبع طبقات منضدة ، وجعلوا فى كل طبقة أحد النيرين والكواكب الخمسة المتحيرة ، على حسب قدر أبعادها من الأرض ، وهو فى طبقته كأنه ساكنها وربها ، فانتشر هذا الرأى عند أمم أخرى ، مثل اليونان والسريان ، وراج عند عوامهم أيضا ، حتى أخذ أهل الحضرة من الجاهلية ، كما يظهر من ورود ذكره فى جملة من النصوص القرآنية :

« تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » (سورة الاسراء) •

« الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » (سورة الطلاق) •

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » (سورة المؤمنون) •

« فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها » (سورة فصلت) •

« ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا » (سورة نوح) •
« وبنينا فوقكم سبعا شدادا » (سورة النبأ) •

قال : ومن المحتمل أن العرب كانوا يسمون سماء الكوكب
فلكه ، كما ورد في الآية (الشريفة) : « وهو الذى خلق الليل
والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون » (سورة الأنبياء)
« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق
النهار ، وكل فى فلك يسبحون » (سورة يس) •

ولفظ الفلك مأخوذ على المحتمل من كلمة بابلية Palakka
ولكن لا نعرف شيئا مما كانت العرب تقوله فى طبيعة السموات •

ثم قال : وكان العرب قد ميزوا الكواكب الخمسة المتحيرة
من النجوم الثابتة ، وسموها بأسماء مخصوصة قديمة الأصل ،
مجهولة الاشتقاق ، لم يزل استعمالها الى الآن • انى لا أجهل أنه
فيما وصل إلينا من أشعار الجاهلية لا يوجد ذكر للكواكب الخمسة
المتحيرة غير الزهرة وعطارد ، ولكنى لا أشك فى قدم أسماء زحل
والمشتري والمريخ أيضا ، لأنها مذكورة عند المؤلفين المسلمين ،
قبل أن تنقل اليهم العلوم الدخيلة (١) ، ولأن عدم معرفة اشتقاقها ،
مع عدم مشابهة ظاهرة بينها وبين أسمائها باللغات الأخرى - السامية
والفارسية - يدل على أنها قديمة الأصل عند العرب •

أما عطارد فقليل ان عرب تميم كانوا يعبدونه ، وأما الزهرة

(١) وردت بعض أسماء هذه الكواكب فى شعر الكميت الاسدى المتوفى سنة

(١٢٦ هـ) فقد روى انه قال يصف ثورا وحشيا «كأنه كوكب المريخ أو زحل» .
ارجع الى كتاب (نثر الازهار فى الليل والنهار) لجمال الدين محمد الافريقى
المعروف بابن منظور ص ١٨٣ من طبعة القسطنطينية ١٢٩٨ هـ •

فقد قال المؤلفون السريان واليونانيون : ان بعض العرب المجاورين
للشام والعراق كانوا يعبدونها عند ظهورها فى الغدوات ، وكانوا
يسمونها اذ ذاك (العزى) •

ثم قال : وكان أهل البادية من أحوج الناس الى معرفة
الكواكب الثابتة الكبرى ، ومواقع طلوعها وغروبها ، لأنهم كثيرا
ما اضطروا الى قطع الفيافي والقفار ليلا ، مهتدين برؤية الدارارى ،
فلولاها لضلت جيوشهم ، وهلكت قوافلهم فى الكثبان والبرارى ،
كما ورد فى سورة الأنعام : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا
بها فى ظلمات البر والبحر » • فلا غرو أن عرفوا عدة من
الكواكب الثابتة ، وسموها بأسماء مخصوصة ، يذكر منها جزء فى
أشعارهم مثل : الفرقدين والدبران ، والعيوق ، والثريا ،
والسماكين ، والشعرين ، وغيرها ، ولكن لا يتوصل الى فهم سعة
معرفتهم بالكواكب الثابتة الا من اطلع على كتاب أبى الحسين
عبد الرحمن بن عمر الصوفى (١) المتوفى (سنة ٣٧٦ هـ - ٩٨٦ م)

(١) فى «كتاب تراث العرب العلمى» الصوفى من أفاضل المنجمين ومصنفى
الكتب الجليلية فى الفلك ، وقال فيه ابن العبرى : كان الصوفى فاضلا نبهانيايلا ،
واعترف علماء الفرنجة بقيمة مؤلفاته فى الفلك ، ودقة وصفه لنجوم السماء ،
مما يساعد على فهم التطورات التى تطرأ على النجوم ، وقال (سارطون) ان الصوفى
من أعظم فلكيى الاسلام ، ومن كتبه : كتاب الكواكب الثابتة (مصورا) وكتاب
الارجوزة فى الكواكب الثابتة (مصورا) ، ويمتاز كتاب الكواكب الثابتة
برسومه الملونة للابرار وبقيّة الصور السماوية ، وقد مثلها على هيئة الاناس
والحيوانات ، ويقرر (سارطون) ان هذا الكتاب أحد الكتب الرئيسية الثلاثة ، التى
اشتهرت فى علم الفلك عند المسلمين .

فى الكواكب والصور فانه عند وصف كل صورة على طريقة
الفلكين يجمع أسماء الكواكب المستعملة عند عرب البادية ، وقد
بلغت هذه الأسماء نحو مائتين وخمسين وأكثر •

فمن كتاب عبد الرحمن الصوفى ، ومن أقوال العرب فى منازل
القمر - نرى أنهم فى اثبات الصور النجومية قد سلكوا طريقة
الفلكين اليونانيين ، حتى لنجد توافقا بين صورهم والصور
اليونانية •

ونجد فى القرآن الكريم اشارات فى كثير من آيه الى الثقافة
الفلكية ، التى كان العرب على علم بها ، فقد خاطبهم الله تعالى فى هذه
الآيات بتوجيه نظرهم الى التدبر فى خلق السماوات والأرض ،
وما أبدعه سبحانه فيهما ، مما فيه سعادتهم فى الحياة الدنيا ، وعبرة
لهم فى الحياة الأخرى ، وفيما يلى تفصيل هذا الموضوع •

القرآن الكريم والجغرافية

القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم
خير ، أنزله الله على رسوله محمد النبى الأمى ، يدعو الناس الى
الحق والى صراط مستقيم ، وقد خاطب القلوب بالموعظة الحسنة
والعقول بالدليل القاطع ، ولفت نظر الناس الى ما فى الكون من آيات
باهرة وعبر وعظات بالغة ، وهذا مما يحدد لنا مهمة كتاب الله
الكريم ، فهو يستهدف دعوة الناس الى الاقرار بوحدانية الله

وعبادته ؛ ولذلك حرص القرآن الكريم على اقناع العقول بالاشارة الى بعض الآيات الكونية ، التى تتضمن الاستدلال على قدرة الله ، وأنه المستحق للعبادة وحده ، وقد أقر هذا الكتاب العظيم الخالد مبادئ سامية لاقامة مجتمع انسانى ، تسوده العدالة والمساواة واحترام الحقوق ، والتمتع بالسعادة ، ولذلك لم يكن القرآن قط كتابا فى الجغرافية ، أو فى أى علم من العلوم ، وما جاء فيه من الارشادات الصادقة الى علوم الحضارة الانسانية ، فانما كان الغرض منه لفت العقول الى النظر الواعى والتأمل العميق والايمان بقدرة الله تعالى ، فاطر السموات والأرض •

وذلك مما يدعو الى العجب من بعض علماء الاستشراق الذين حاولوا أن يخرجوا القرآن فى بحوثهم عن طبيعته ، بادعائهم أنه جاء يقرر بعض النظريات العلمية ، ثم يتخذون هذه الدعوى الباطلة وسيلة الى اثبات أن القرآن قد استعاد هذه النظريات مما عرفته الأمم الماضية ، وتقوم هذه الدعوى عندهم على أن القرآن من عند محمد (صلى الله عليه وسلم) وأنه جمع فيه المعلومات التى نقلها عن مصادر غير عربية ، ومما يؤيد جهلهم بطبيعة القرآن ومهمته التى نزل من أجلها على سيد الخلق أنهم يجهلون بالاضافة الى ذلك أسرار اللغة التى نزل بها القرآن ، والتى تقوم على استخدام المجازات فى التعبير فمثلا نجد المستشرق الروسى الكبير (كراتشكوفسكى) بالرغم من دقته وانصافه للعرب فى كثير من المواطن يتصور أن القرآن قد

وصف السماء وصفا ماديا حسيا ؛ اذ خيل اليه أن كلمة (بنينا)
فى قوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » وكلمة (سقف) فى
قوله تعالى : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا » قد وضعتا على حقيقتهما ،
وهذا ولا شك خطأ جسيم وقع فيه العلامة الروسى لجهله ببلاغة
القرآن الكريم وحسن استخدامه للأساليب الفنية المجازية ، فقد
فاتته هذه الدقائق البلاغية ، كما عزت على غيره من علماء
الاستشراق ، هذا بالاضافة الى اقحامهم العقيدة الدينية فى مجال
البحث العلمى ، وتصورهم أن القرآن الكريم انما هو كتاب فى
التاريخ أو الفلك أو الجيولوجيا وغيرها من العلوم ، وغاب عنهم أنه
كتاب رسول ورسالة ، وأنه وحى من السماء •

ونلاحظ أن (كراتشكوفسكى) فى كتابه تاريخ الأدب
الجغرافى العربى (الفصل الأول) - الجغرافيا عند العرب قبل ظهور
المصنفات الجغرافية الأولى - قد جره تصويره الخاطىء الذى أشرنا
اليه الى الوقوع فى أخطاء أخرى ، منها أن القرآن حينما تحدث
عن الشمس والقمر كان ذلك الحديث بقصد بيان مهمتهما الأساسية ،
وهى تحديد الوقت اليومى أو السنوى ، كذلك نراه ينظر الى
الآيات التى ذكرت المشرقين والمغربين بأنها آيات غامضة ، ويزعم
أن القمر ذكر فى القرآن مرتين فقط ، مع أنه قد ذكر سبعا
وعشرين مرة ، وأن لفظ النسيء لم يتضح معناه الى الآن ، مع أنه
لو رجع الى أى معجم من معاجم اللغة العربية لعرف معنى

النسيء ، وهو التأجيل والتأخير ، وقد ورد لفظ النسيء في معقنة
الشاعر العربي الجاهلي (عمرو بن كلثوم) :

ألسنا الناسئين على معد شهر الحل نجعلها حراما

ثم يزعم أن القرآن جاء بنظرية رئيسية ، وهي أن الأرض
مسطحة ، وليست كروية ، ويحاول أن يربط بينها وبين ما عرفه
اليهود عنها واليونان في عهد هوميرو ، وقد حمله على هذا الزعم
الغريب جهله ببلاغة اللغة العربية في موضوع السماوات فقد تصور
كلمات القرار والمهاد والفراش والبساط تصورا حسيا ، كما سبق
أن تصور كلمتي (بيتنا) و (سقفا) وقد جاءت كلمات القرار والمهاد
والفراش والبساط وصفا للأرض في الآيات الكريمة التي استشهد
بها وهي :

١ - « أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا »
(سورة النمل - ١٦) •

٢ - « ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ، وخلقناكم
أزواجا » (سورة النبأ - ٦) •

٣ - « والله جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » (سورة
البقرة - ٢٢) •

٤ - « والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا
فجاجا » (نوح - ١٩) •

٥ - « الذى جعل لكم الأرض مهذا ، وسلك لكم فيها سبلا ،
لعلكم تهتدون » (سورة الزخرف - ١) •

واستدلالة بهذه الآيات على أساس التفسير الحسى لدلول
كلمات المهاد والقرار والفراش والبساط - دليل على جهله بأسرار
الأسلوب البيانى ، الذى تميز به القرآن الكريم ، هذا الى أنه قد
حيرته نظرية البحرين ، فذهب يلتمس تفسيراً لها فى كلام
المستشرقين قبله ، ومنهم « بارتولد » الذى يقول : انهما نهر الفرات
والخليج الفارسى ، « وفنسك » الذى يزعم أن الآيات المتعلقة
بالبحرين تفترض وجود محيط سماوى ، وتلك تأويلات وتفسيرات
بعيدة عن المعنى القرآنى ؛ اذ كل الآيات التى وردت عن
البحرين هى :

١ - قوله تعالى : « وما يستوى البحرين هذا عذب فرات
سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً
وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا
من فضله ، ولعلكم تشكرون » (سورة فاطر - ١٢) •

٢ - وقوله تعالى : « أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها
أنهاراً ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً ، أأله مع
الله ، بل أكثرهم لا يعلمون » (سورة النمل - ٦١) •

٣ - « وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا

ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » (الفرقان -
• (٥٣)

٤ - وقوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ
لا يبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » (الرحمن - ١٩) •
هذه الآيات الكريمة واضحة منكشفة المعنى لدى كل عربى
مثقف يقرأ القرآن ، فهى لا تحتل لبسا ، وليس فيها شىء من
الغموض ، والغرض منها التدليل على قدرة الله تعالى ، ولفت النظر
الى أثرهما فى الكون والحياة ، ومن المألوف فى لغتنا أننا نشى
الشيئين بشية أحدهما ، فنحن نطلق البحرين على البحر الملح
والنهر العذب معا على التغليب ، ونطلق الأبوين على الأب والأم ،
والقمرين على الشمس والقمر على التغليب أيضاً ، ولم ترد الآيات
بقصد تحقيق نظرية جغرافية ، ولذلك كان الحديث عن تحديد
البحرين خارجا على مهمة الكتاب الكريم ، ثم يسوقه الحديث الى
أن القرآن قد أتى بنظرية البحار السبعة مؤيدا قوله بنص الآية
الكريمة :

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من
بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله » (لقمان - ٢٧) ويحاول
ارجاع الاشارة الى البحار السبعة - الى أنه ترجمة لحكمة عبرية
قديمة ، ويتهم المقدسي بأنه فهم هذا الفهم ، كما يشير الى التأثير
السحري للرقم سبعة ، والحقيقة التى لا شك فيها أن

(كراتشكوفسكى) يجهل التعبير البيانى فى الآيـة وأن الرقم (سبعة) يراد به فى لفتنا العربية مطلق التعدد، على أننا لو أخذنا الآيـة الكريمة بمنطوقها الحسى لدلت على وجود بحار ثمانية ، وعندئذ تنهار نظرية البحار السبعة ، كما هى فى وهم العلامة الروسى ، والواقع الذى لا يحتمل شكاً أن هذا المستشرق العظيم باحث دقيق ، يميل الى الاستيعاب ، ولكنه لم يسلم من خطأ شائع وقع فيه جميع المستشرقين، وهو اقحام العقيدة الدينية فى مجالات البحث العلمى ، فسيطرت عليه فكرة أن القرآن الكريم من وضع محمد ، الى جانب عدم فهمه لسر الاعجاز البيانى فى القرآن ، فذهب الى ما ذهب اليه من آراء خاطئة ثم يستمر فى زيادة حجم حصيلة أخطائه ، فيتحدث عن ذى القرنين ويأجوج ومأجوج ، ويزعم أن معلومات محمد (صلوات الله عليه) فى القرآن قد وصلت اليه عن طريق الأساطير السريانية.

وحينما يحاول الموازنة بين القرآن الكريم والشعر العربى القديم من حيث المادة الجغرافية - يدعى أن الشعر العربى أكثر واقعية ودقة وأغزر مادة من القرآن فى النواحي الجغرافية ، ولكن بالرغم من قلة المادة الجغرافية فى القرآن فإنه أتى بنظريات جغرافية استعارها من مصادر أجنبية ، وبدهى أنه ما دام قد افترض من أول الأمر فى بحثه أن القرآن هو مجموع المعلومات التى حصل عليها محمد (صلى الله عليه وسلم) - فإنه ليس غريباً أن يقرر ما ذهب اليه من آراء لا تتفق مع الحقائق ، ثم يخلط العلامة الروسى بين

أحاديث الرسول والمرويات ، التى تتناول تفصيلات خرافية لا أساس لها ، وينسب الى ياقوت الحموى أنه أتى بشيء من هذه المرويات ، ومنها ما يتعلق برحلة عبادة بن الصامت الى الرقيم (١) ، وهو المكان الذى يرقد فيه أهل الكهف ، ولكن ياقوتا حين نقل بعض هذه المرويات الخرافية لم يكن غافلا ، فقد نبه فى مقدمة معجم البلدان على ما فيها مما تأباه العقول ، ولا يقبله المنطق الصحيح ، وسنشير الى ذلك بالتفصيل عند الحديث عن مقدمة كتابه (٢) . نمو المعلومات الجغرافية لدى المسلمين •

ان من المؤكد أن معلومات العرب الجغرافية بعد الاسلام قد أخذت تنتقل الى دور النضج والاكتمال ، بعد أن عكف المسلمون على ترجمة الثقافات الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية ، فازداد حجم هذه المعلومات وعمقها ؛ لأن اطلاعهم على معارف الأمم القديمة فى هذا الميدان عمق دراستهم ، وأمدهم بأساليب وأنماط من البحث الجغرافى ، وما كاد يقع فى أيديهم كتاب (المجسطى) لبطليموس الجغرافى ، بعد ترجمته الى اللغة العربية ، حتى درسوه دراسة واعية ، واستعانوا بخبراتهم التى كسبوها من أسفارهم وأرصاذهم

(١) (الرقيم) لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف ، ونصب على باب الكهف ، وقيل الرقيم هو الكتاب ، وهو قعيل بمعنى مفعول ، وكتاب مرقوم أى مكتوب ، والرقيم أيضا اسم الوادى الذى فيه الكهف .

(٢) ارجع الى تعليق على تاريخ الادب الجغرافى العربى للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء - الاستاذة بجامعة عين شمس .

وبأساليبهم العلمية السليمة على تصحيح كثير مما ورد في هذا الكتاب من آراء ، ثم قاموا بدراسات واسعة عن طريق قيامهم بكثير من الرحلات الى مختلف البلاد والأقطار شرقا وغربا ، فتكونت لديهم مادة جغرافية مخصصة ، استخدموها في وضع مؤلفات قيمة في علوم الجغرافية ورسم الخرائط ، التي تصور الكرة الأرضية ، وما عليها من يابس وماء ، وأثناء ذلك ظهر عدد من الملاحين والتجار المسلمين ، الذين عرفوا بالمغامرة والجرأة في ركوب البحار ، ومنهم تاجر مشهور يدعى (سليمان البحار) ، وكان من أشد المغامرين ، الذين لا يرهبون البحار ، وقد وفق بجرأته وشجاعته في معرفة الخطوط البحرية ، التي بين الهند والصين ، وقد تمكن بذلك من السير في هذه الخطوط بسفنه عدة مرات ، تردد خلالها على الصين مرة بعد مرة ، وقام بوصف البلدان التي زارها في مذكراته ، وقد أثارت بعاداتها وتقاليدها دهشته ، وتعتبر مذكراته البذرة الأولى في تكوين علم الجغرافية الوصفية العربي الاسلامي ، ومن الملاحظ أن المسلمين العرب قبل رحلات (سليمان البحار) كانوا قد درسوا الجغرافية العلمية ، واعتمدوا في هذه الدراسة على كتاب (بطليموس) ♦

ويقال ان المسلمين في عهد سيدنا عمر بن الخطاب وبتوجيه منه - لم يحاولوا أول الأمر التوغل في البحار البعيدة ، وقد روى أن عمرو بن العاص لما فتح مصر ، كتب الى الخليفة (عمر) كتابا

يصف فيه البحر ، ومما جاء في هذا الخطاب « واعلم يا أمير المؤمنين أن البحر خلق عظيم ، يركبه خلق ضعيف ، كدود على عود » ؛ لذلك منع الفاروق المسلمين ركوب البحر اشفاقا عليهم ، وحفظا لأرواحهم ، وابقاء على جند المسلمين الذين يحتاج اليهم في حماية الثغور ومواطن المخافة في ديار المسلمين ، ولكن فريقا من أهل مصر ومن ساكنهم لم يعملوا بأمر الخليفة عمر ، لأنهم كانوا يمارسون صناعة السفن والاتجار بركوب البحار منذ أزمان طويلة قبل الاسلام ، وكانوا قد كسبوا خبرة واسعة ، فاستمروا بدافع الحاجة يعملون على بناء السفن في ثغور رشيد ودمياط والاسكندرية وغيرها ، وكانت لهم تجارات مع أهل اليمن وسكان سواحل البحر الأبيض المتوسط ، ولما بلغ ذلك عمر رضى الله عنه لم يشدد النكير عليهم ، وأغفل ذلك ، وبعدئذ أخذ المسلمون في خلافة عثمان رضى الله عنه . وفى عهد (عبد الله بن أبى سرح) أمير مصر وقتئذ يعملون على اعداد أسطول عربى اسلامى من مائة سفينة حربية ، وقد تصدى للأسطول الرومانى فى معركة مشهورة تسمى (ذات الصوارى) ، وانتصر الأسطول العربى الناشئ على أضخم أسطول معروف فى البحار فى تلك الأيام برهبته وقوته ، فدل ذلك على جرأة المسلمين ومهارتهم النادرة فى الحروب البحرية .

ويبدو لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين أمر

المسلمين بعدم ركوب البحر ، وحين سكت عن ذلك ، كانت له وجهة نظر سياسية ، ترتبط بصالح المسلمين ، ويتولى العلامة ابن خلدون شرح ذلك بقوله : « ان العرب لبدأوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافة البحر وركوبه ، وأما الروم والافرنج فانه لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده مرنوا عليه ، وأحكموا الدراية بثقافته ، فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم الأعاجم خولا لهم وتحت أيديهم ، تقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النوتية في حاجتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، فأصبحوا بصراء بها ، فشرعوا في الجهاد في خضمه ، وأنشئوا السفن فيه ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأعطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم النصارى ، واختصوا بذلك في ممالكهم وثورهم ، ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته ، مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس » ♦

فابن خلدون يقرر أن عمر لم يأذن للمسلمين في ركوب البحر أولا ، بسبب عدم درايتهم بالثقافة البحرية في ابان نهضتهم ويؤيد رأى عمر أن عمرو بن العاص لما ولى مصر للمرة الثانية كان المسلمون وقتئذ قد وصلوا الى درجة كبيرة من العلم بفن سلوك البحار والسير في أعاليها ، واقتحامها في جراءة ، فأوضح ذلك لعمر ، فلم يقف عند رأيه الأول ، بل أذن لعموم المسلمين بركوب

البحر والغزو فيه ، ولعل الحكمة في ذلك قد وضحت لنا ، فيما قصده الفاروق من الحظر أولا ، ثم الاذن ثانيا .

ومنذ ذلك الحين أقبل المسلمون على دراسة الثقافة البحرية وفنون الغزو في البحار ، وانشاء السفن وبناء الأساطيل التجارية والحربية ، حتى كان ما لدى المسلمين في عهد معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي ألفا وسبعمائة سفينة من جميع الأنواع ثم أخذت القوة البحرية العربية الاسلامية تقوى تدريجا ، حتى أصبحت مرهوبة الجانب في البحر الأبيض المتوسط ، فغزا المسلمون أكثر جزره وسواحله ، وساعدهم ذلك على فتح الأندلس ، فامتدت بذلك دائرة معارف المسلمين الجغرافية ، وظهر في العصور الاسلامية المختلفة مشرقا ومغربا جغرافيون مسلمون ، برزوا في مجال الجغرافية الوصفية وغيرها ، وكانت أكثر معلوماتهم الجغرافية نتيجة مباشرة لرحلاتهم وأرصادهم العلمية ، هذا بالإضافة الى نشاطهم العلمي البارز في تصحيح آراء القدماء ، وقد أبدى المأمون العباسي اهتماما كبيرا بالنواحي الجغرافية والفلكية ، فأمر بتأسيس دار الحكمة ، وزودها بمكتبة حافلة بالمراجع والمخطوطات والخرائط ، وأنشأ مرصدا فلكيا ، ثم كلف علماء الفلك في عصره قياس فلك البروج ، وعمل الزيجات لحركات الكواكب ، وبقياس درجتين أرضيتين ، لامكان تقدير حجم الأرض بصورة أدق من ذي قبل ، ثم رسم خريطة جغرافية كبيرة للعالم المعروف وقتئذ ، وكان محمد

ابن موسى الخوارزمي من العلماء الذين استعان بهم على ذلك ،
وينسب الى الخوارزمي أنه وضع كتابا عظيم القيمة في علم الجغرافية ،
يسمى (صورة الأرض) ويبدو أنه اعتمد في وضعه على كتاب
(المجسطي) ، ولكن مع توسع واضافات جديدة ، وصل اليها
العرب المسلمون عن طريق أرسادهم ، وتصحيحات لكثير من آراء
بطليموس .

واستمر الأدب الجغرافي ينمو نموا سريعا عند مسلمي العرب ،
مما يدل على النزعة القوية ، التي سيطرت على نفوسهم في التنقل
والرحلة ، وقد بدأت هذه النزعة ملونة بلون ديني أثناء رحلتهم
الى الأراضي المقدسة ، ولكن سرعان ما تطورت بعد اتساع الفتوحات
الاسلامية الى رحلات واسعة النطاق بقصد التجارة ، ثم التعرف
على ما خلقه الله تعالى في هذه المعمورة من يابس وماء ، فدفعهم ذلك
الى دراسة الجغرافية الرياضية مع تطبيقاتها المتصلة برسم الخرائط ،
وتتميز معلوماتهم في الجغرافية الوصفية من معلومات غيرهم من الأمم
بأنهم أضافوا الى ما كسبوه من معارف الاغريق والرومان عن
الأراضي والبحار - التعرف على أربع مناطق أخرى من العالم ،
كانت المعلومات عنها يشوبها كثير من الغموض ، ومن هذه المناطق
الأقاليم الواسعة الواقعة حول بحر قزوين ، والبقاع والأماكن التي
تمتد الى الشمال الشرقي من البحر الأسود ، ولم يكن أحد من
الجغرافيين قبل المسلمين يعرف شيئا عن بحر Aral آرال ،

ولم تجد بحيرة (خوارزم) آزال مكانها على الخرائط الا في عهد
المأمون لأول مرة ، وقد زار ابن فضلان هذه الأصقاع أثناء وفادته
الى ملك (البلغار) موفدا من قبل المقتدر الخليفة العباسي ، وكان
العرب وقتئذ يطلقون كلمة (بلغار) (١) على بلاد الصقالبة ، وهم
الروس ، ثم على الشعب نفسه ، وعلى عاصمتهم ، التي كانت تقع شرقي
نهر (الفولجا) ، وهو الذي كان يسميه الجغرافيون المسلمون نهر
(آتل) ، وتعتبر كتابة ابن فضلان عن هذه الجهات أول مصدر
موثوق به ، فقد وصف شعوب الصقالبة وصفا دقيقا ، تناول حضارتهم
وعاداتهم وتقاليدهم وتجاراتهم ، وعرض للظواهر الطبيعية في
بلادهم ♦

ويقال ان ياقوتا انتفع كثيرا بما كتبه ابن فضلان ، ونقل عنه
كل ما يتعلق بكلمة (بلغار) في كتابه معجم البلدان ، مما سنعرض
له فيما بعد ، ونجد البيروني يتعرض لوصف شعوب اقليم (بيكال)
Baikal كما وصف أهل ورنج باسكندنافيا وتناول بالوصف
الدقيق الصناعات المعدنية في أوروبا الشمالية ، وأمدنا بمعلومات
دقيقة ، ذات قيمة علمية عن بحر الثلج Ice-sea في الشمال
الشرقي من أوروبا ، فكان ذلك تمهيدا لارتداد التجار العرب لتلك

(١) (بلغار) قسم عظيم من بلاد الخزر على نهر الآتل (الفولجا) ، وتمثل
ولاية (قازان) الروسية ، وهي بلاد بلغار التي يرد ذكرها في كتب الفقه الاسلامي ،
ولا تزال أطلالها وآثارها باقية ، اما بلغار الحالية فهي مملكة في البلقان معروفة
الآن .

الأجزاء البعيدة ، وأما بالنسبة للمعلومات الجغرافية عن افريقية فقد كانت معلومات اليونان لا تتجاوز المناطق الساحلية ولكن العرب لما فتحوا مصر أخذوا يتوغلون في كشف الأراضى الداخلية والصحارى الافريقية الشاسعة ، بقصد التجارة ونشر الاسلام فى داخل القارة الافريقية ، وكان من نتائج ذلك وضع بعض المؤلفات الجغرافية عن افريقية ، وفى مقدمتها كتاب (المهلبى) عن السودان، ومن الراجع أن ياقوتا اعتمد عليه فى جغرافيته عن السودان فى كتابه (معجم البلدان) • أما عن آسيا وأقاليمها الداخلية فقد كانت المعلومات السابقة على الجغرافيين المسلمين ضئيلة ومحدودة ، فلما قام المسلمون برحلاتهم الى هذه الديار دفعهم حب الكشف والتعرف على مختلف البلدان أن يبعدوا فى رحلاتهم فى قلب القارة الآسيوية ، فتعرفوا على جميع بلدان آسيا الوسطى ، وامتدت رحلاتهم الى الصين ، فوصلوا اليها عن طريقى البر والبحر ، وفى عصر المغول ظهر بشكل واضح أثر الجغرافيين المسلمين فى العلم الجغرافى عن الصين ، وعندما وضعت الخريطة الرسمية لبلاد الصين اعتمد فى وضعها على معلومات المسلمين الجغرافية ، وقد أشار الى ذلك « ألبرت هرمان » Albert Hermann ، وقيل ان الذين قاموا بوضعها واعدادها الجغرافيون المسلمون •

كذلك كانت المعلومات الجغرافية عن بلاد الهند ما تزال قليلة ، وتحجبها أوصاف غير واضحة ، حتى فتح المسلمون بلاد

السند والجنوب الغربى للبنجاب (Sina, S.W. Punjab) ، ووقعت
بدأت المعلومات الجغرافية عن هذه البلاد تتضح ، وتوسع ، بفضل
الجهود العلمية التى قام بها الجغرافيون المسلمون ، والجاليات العربية
من التجار ، الذين أقاموا على سواحل (كنكان) Kankan وملابار
Malabar وكان لمعلومات (سليمان البحار) أو التاجر عن
الصين والهند أثر كبير فى نمو الثقافة الجغرافية ، التى استمدت منها
قصص السندباد ، كذلك كان أبو زيد السيرانى من الجغرافيين
المسلمين الأوائل الذين أضافوا الى تاريخ الأدب الجغرافى العربى
بكتابه (سلسلة التواريخ) معلومات وافية عن الجغرافية الهندية ،
والأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى هذه البلاد ، وبذلك تجمعت
معلومات غزيرة فى الجغرافية الوصفية وغيرها - انتفع بها الجغرافيون
الذين جاءوا بعد ذلك أمثال ابن خرداذبة والاصطخرى والمقدسى
وياقوت وابن بطوطة وغيرهم •

الأثر الذى تركه العرب فى العالم الغربى

أما الآثار العلمية والفلسفية ، التى تركها العرب فى العالم
الغربى - وبخاصة العلوم الجغرافية - فاننا نترك العلامة المستشرق
(جون درابر) J. Draper يتحدثنا عنها فى كتابه (تطور أوربا
الفكرى) الجزء الثانى ص (٤١ - ٤٢) (١) « ينبغى على أن أنعى

(١) ارجع الى كتاب (مآثر العرب على الحضارة الأوربية) جلال مظهر -

مكتبة الانجلو ١٩٦٠

تقديم كمال رفعت ، وسعد غفرة ..

على الطريقة المنظمة ، التي تحايل بها الأدب الأوربي ، ليخفى عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا ، أما هذه الآثار فانها على اليقين سوف لا تظل كثيرا بعد الآن مخفية عن الأنظار ؛ ان الجور المبني على الحقد الديني والغرور الوطني لا يمكن أن يستمر الى الأبد ، ماذا يقول فلكى حديث عندما يتذكر همجية أوربة في ذلك الزمن ويجد (أبو الحسن الفلكي العربي) يتحدث عن أنابيب توضع في احدى نهاياتها عدسة عينية أو العين ، وفي النهاية الأخرى عدسة شئية ، كما استعملت في مرصد المراغة ؟ وماذا يقول اذن عند ما يقرأ عن محاولات عبد الرحمن الصوفي في تحسين طريقة تقدير لمعان النجوم ؟



ألا يكفي زيج بن يونس الفلكي (١٠٠٨) م المسمى بزيج الحاكم ، أو زيج نصير الدين الطوسي ، الذي ألف في المرصد المذكور آنفا في المراغة (١٢٥٩) م ، أو قياس الزمن (بواسطة) ذبذبات البندول ، أو طرق تصحيح الجداول الفلكية (بواسطة) الأرصاد المنظمة ؛ لكي تكون مسائل تدل دلالة قاطعة على مبلغ ما وصل اليه العرب من النبوغ الفكري ؟ لقد ترك العربي طابعه الفكري في أوربة منذ زمن طويل ، قبل أن ينبغى على أوربا أن تعترف بذلك ؛ اذ طبع فكره على قبة السماء بطريقة لا تمحي ، تعبر عنها أسماء النجوم المتناثرة فيها ، ويستطيع أن يدركها كل من يعرف أسماء النجوم » ♦

ولكى يؤكد هذا العلامة المنصف الأثر العربى بطريقة علمية
لا تقبل جدلا - كشف عن أسماء بعض النجوم والمصطلحات التى
وصل اليها العرب فى بحوثهم الجغرافية الفلكية ، وسموها بأسماء
عربية خالصة ، وقد بقيت حتى نقلها الغرب عنهم فى غير تورع
منكرا الأثر العربى فيها ، مع أن أسماءها تتحدى هذا الانكار
الجائز .

ولذلك يقول (درابر) : وهنا نستطيع أن نذكر قائمة طويلة
من أسماء النجوم والمصطلحات ، التى ما زالت تعرف فى اللغات
الأوربية بأسمائها العربية ، وهذا قليل من كثير .

أما نحن فنكتفى بذكر بعضها فيما يأتى على سبيل المثال :

(الدبران) Aldebaran ، و (رأس الغول) Algol

و (النصل) Alnasl (النسر الطائر) : Altair

و (السماك الأعزل) Azimech و (منكب الجوزا) Betelgeuze

الفصل الثاني



عصر ياقوت في ميزان التاريخ

لم يكن انقسام الدولة العباسية بعد عصر المتوكل على الله العباسي ، والانحلال السريع الذي بدأ يتسرب الى جسم هذا العملاق الضخم ، والتفكك الذي أصاب أجزاء الدولة العربية الاسلامية الكبرى - نذير سوء بالنسبة للتفكير العلمي ، واستمرار حركة النمو في العلم العربي ، بل على العكس رأينا الحكام الجدد في الدول والامارات التي انفصلت عن خلافة بغداد ، وأصبح لها كيان مستقل - يعملون في نشاط دائم متصل على دعم ملكهم ، بكل مقومات الحضارة ، وقد ساعدهم على ذلك أن قوة الدفع للحضار العلمية في بغداد في عصر المأمون - كانت وما تزال على درجة من القوة ، بحيث أفسحت المجال أمام هؤلاء الحكام للاستعانة بعدد كبير من العلماء في كل علم وفن ، لتأسيس ملك لهم يقوم على

دعائم وطيدة راسخة ، تضمن له البقاء والاستمرار ، ولذلك نلاحظ بقوة فى العصر العباسى الثانى الذى يمتد فى التاريخ من (٤٤٧ هـ - ٦٥٦ هـ) ، ويبدأ من يوم أن وضع السلاجقة (١) أيديهم على زمام الحكم فى بغداد الى أن سقطت عاصمة الخلافة العباسية فى أيدي التتار - أن الحركة الفكرية كانت ما تزال ناشطة فى هذا العصر، وقد تردد صدى هذه النهضة الفكرية فى بلاط الغزنويين فى الشرق ، والفاطميين والأيوبيين فى مصر ، والأمويين فى الأندلس ، وكان من بواعث هذه النهضة ظهور بعض الفرق الدينية من شيعة وسنية، وقد استعانت هذه الفرق بالعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية ، عن طريق الحجاج والجدل ، واستخدام الأدلة العقلية ، اذ كان كل فريق ينتصر لآرائه ، ويؤيدها بسيل من الحجج المنطقية والأدلة النقلية ، وقد كانت هذه النهضة الفكرية تسير فى طريقها ، فى حين كان العالم الاسلامى يشكو من الضعف والتصدع والانحلال السياسى •

(١) (السلاجقة) ينسب هؤلاء القوم الى سلجوق (بفتح السين) بن تغلق (بضم التاء) وهو أحد رؤساء الأتراك وكانوا فى أول امرهم يسكنون بلاد ما وراء النهر فى مكان يبعد عن بخارى بعشرين فرسخاً ، والسلاجقة نوع من الأتراك الغز ، ويتصل نسبهم بالجد الأكبر بسلاطين الأتراك العثمانيين ، ويعتبر عصرهم بالنسبة لعصر الغزنويين أكثر ازدهاراً وكان ملكهم اعظم رقعة وقوتهم أعز سلطاناً ومنعة ، واليه يرجع الفضل فى تجديد قوة الاسلام ، واعادة تكوين وحدته السياسية (تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى) د . حسن ابراهيم حسن . انجز الرابع •

وذاعت شهرة بعض المدن فى هذا العصر ؛ اذ كانت تعد مراكز للثقافة العربية الاسلامية ، ومنها أصبهان والرى حيث يقيم بنو بويه ، الذين عرفوا بتشجيع العلماء واجزال الصلوات لهم ، وبخارى حيث يحكم السامانيون ، وكان منصور بن نوح السامانى قد أسس مكتبة زاخرة بالنادر من الكتب والمخطوطات ، وفى طبرستان نجد شمس المعالى قابوس بن وشمكير يجذب الى بلاطه العلماء والأدباء والفلاسفة ، ومثل ذلك نراه فى خوارزم وغزنة ، وغيرها من المراكز الثقافية ، كذلك فى (مرو) حاضرة خراسان حيث بلاط السلاجقة ، وقد أقام ياقوت فى هذه المدينة فترة من حياته ، ويقول فيها : « وقد أخرجت من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلهم » . كما أظن فى وصف خزائن الكتب فيها ، حين فارقتها أمام غارات التتار سنة (٦١٦ هـ) فقد قال : « وفيها عشر خزائن للوقف ، لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة » .

وفى حلب حاضرة الحمدانيين كان يتردد على بلاط سيف الدولة بن حمدان أشهر الفلاسفة والعلماء والأدباء ، كالفارابى وابن خالويه وأبى الطيب المتنبى ، وفى مصر فى أيام الطولونيين والاششيد والفاطمين تعددت مراكز الثقافة فكائن فى الفسطاط ، ثم فى القطائع والقاهرة ، وقد نافست قرطبة بغداد وغيرها من المراكز الثقافية الأخرى فى المشرق ، أما معاهد الدراسة التى كانت موئل العلماء والدارسين ، ومقر حلقات الدرس والمناقشة - فكانت

المساجد في مقدمتها وقد ظل المسجد النبوي الشريف مأوى لفقراء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم على طلب العلم ، وقد كان المسجد في ذلك العصر فضلا عن أهميته الدينية ، باعتباره مكانا مقدسا لتأدية العبادة ، كان في الوقت نفسه المكان الذي يؤمه خليفة المسلمين لإدارة شؤون الدولة والخلافة ، وكان المنبر أشبه بالعرش ، يلقي منه بيان الخليفة لشرح سياسة الدولة ، وكانت تذايع منه القرارات الهامة ، وكان المكان الذي يتخذ العلماء والدارسون مقرا لهم ، والمعهد الذي يتلقى فيه الناشئون اللغة العربية وأصول الدين الاسلامى .

وكان مسجد عمرو بن العاص في مصر من أهم المعاهد الثقافية في عهد الطولونيين والاختشيد ، ثم خلفه الأزهر الشريف في عهد الفاطميين ، وبذلك أضحي أعظم المراكز الثقافية في الشرق ، وإلى جانب هذه المساجد مسجد القرويين بفاس ، وقد أنشئ حول منتصف القرن الثالث الهجرى ، ولا شك أن المساجد وقتئذ كانت تعتبر معاهد كبرى وجامعات ، تشهد بديمقراطية التعليم عند المسلمين ، ويلبها في الأهمية والثقافة الزوايا ، ومفردها (زاوية) ، وهى مأخوذة من الفعل (انزوى ينزوى) ، بمعنى اتخذ ركنا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد ، وقد نشأت الزوايا أول الأمر مساكن ملحقة بالمساجد ثم تطورت الى (أبنية صغيرة) منفصلة ، يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس ، ويعقدون

حلقات الدرس فى علوم الدين وما يتصل بها من العلوم العقلية والنقلية ، كما كان يعقد فيها مشايخ الصوفية حلقات الذكر ، وتطلق الزاوية أحيانا على المعهد والرباط الذى تقيمہ احدى الفرق الدينية كالصوفية والقادرية والتيجانية والسنوسية ، والشاذلية ، والخلوتية ، وفى المغرب العربى أطلقت الزاوية على مسجد خاص بطائفة من طوائف الصوفية ، أو على ضريح لأحد الأولياء ، وكان يلحق بكل منهما مقبرة يدفن فيها من لهم علاقة بالطريقة أو كانوا من أقارب الولي بعد وفاتهم ، وبالإضافة الى ذلك كانت تضم اليها حجرات ، ينزل فيها الضيوف ، والمنقطعون للعلم والعبادة •

وقد تطورت الزوايا ، وازدادت أهميتها الثقافية والعلمية ، وبخاصة فى بلاد المغرب •

ومن معاهد الثقافة الاسلامية العربية الكتاب والمدرسة، والكتاب مشتق من كتب وهو المكتب أيضا ، وأما المدرسة فاسم مكان من درس الذى مصدره درسا ودراسة ، ولم تسمع التاء فيها فى شعر قديم ، ولم نجد من علماء اللغة بعد بناء المدارس من أنكرها مع أن المفعلة سماعية فى اللغة ، ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجرى ، وأول مدرسة عرفت بهذا المعنى هى المدرسة البيهقية بنيسابور ، ثم تتابع انشاء المدارس بعد ذلك ، ومن معاهد التعليم

والثقافة فى العصر العباسى الثانى (اليمارستان) (١) ، وقد كان المدرسة التى تعلم فيها العلوم الطبية ، ثم بيوت الحكمة ، وفى مقدمتها (بيت الحكمة) الذى أنشئ فى عهد هرون الرشيد ، ثم أنشئت مدارس الحكمة لنشر المذهب الاسماعيلى ، ثم دار الحكمة فى القاهرة التى أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمى .

تلك مراكز الثقافة ومعاهدها التى اشتهرت فى العصر العباسى ، وقد كانت وما تزال ذات أثر فى دفع تيار الحركة العلمية ، وان لم يكن ذلك بالدرجة والقوة التى كانت عليها فى القرون الأولى من عصور الازدهار العلمى ؛ اذ ما كاد القرن السادس الهجرى ينتصف حتى بدأت العوامل ، التى كانت تدفع تيارات العلوم الى الزحف الى الأمام - تضعف كثيرا عما كانت عليه فى القرنين الثالث والرابع ، وسبب ذلك ازدياد عناصر الفوضى والاضطراب وانتشار بواعث الفتنة بين الحكام المستقلين ، ثم بين هؤلاء الحكام أنفسهم وخليفة (بغداد) ، الذى لم يبق له من سلطان الخلافة الا اسمها ، مما أفقد النشاط العلمى كثيرا من الحوافز الطبية ، وأدوات التشجيع والنمو ، وفى الوقت نفسه كانت الصلة بين العصر الذهبى للمأمون وما وصل اليه الحال فى القرنين السادس والسابع قد ضعفت ، لذلك

(١) (ييمارستان) لفظة فارسية ، استعملها العرب ، ومعناها (مجمع المرضى) المستشفى ، لان « ييمار » معناه المريض ، « وستان » : الموضع ، وأول من صنعه (بقراط) الحكيم اليونانى ، وكان يسميه (أخشندوكين) .

توقفت قوة الدفع ، ولكن ليس معنى هذا أن الحركة العلمية قد جمدت تماما ، وأن العلم العربي قد توقف فعلا ، ذلك لأن ومضات قوية سريعة كانت تلمع هنا وهناك ، فهي ما تلبث أن تخبو وتنطفئ في مكان ، حتى تشرق وتضيء في مكان آخر . وقد عاش ياقوت في الربع الأخير من القرن السادس ، وامتدت حياته الى نهاية الربع الأول من القرن السابع الهجري ، فحياته جمعت بين قرنين من قرون التخلف العلمي والحضارى بالنسبة الى القرون السابقة ، التي ازدهرت فيها الحضارة العربية الاسلامية ، فمثلا نرى القرن السابع قد شهد مصرع الخلافة العباسية في بغداد ، والقضاء على كثير من معالم الحضارة العربية الاسلامية على أيدي التتار .

وكان التأليف في العلوم الجغرافية قد بدأ يبرز في اطار لامع ، وفي صورة واضحة زاهية ، منذ القرن الثالث الهجري بظهور طائفة من الجغرافيين البارزين ، منهم جغرافيو المدرسة اليونانية والزيجات الكبرى كالحوارزمي والبتاني والجغرافيون اللغويون كهشام بن الكلبي وأبي زيد السيرافي ، وجغرافيو المدرسة الكلاسيكية كالبلخي والاصطخرى وابن حوقل والمقدسي ، ونلاحظ في الفترة التي عاش فيها ياقوت في العصر العباسي الثاني ، أو في العصر السلجوقي الأول - أن العلم العربي أخذ يضعف تدريجا ، وقد بدأت مظاهر الضعف تظهر بشكل واضح منذ القرن السابع ، في هذه الفترة من تاريخ العلم بدأ ياقوت حياته العلمية بالرحلة

والأسفار فى تجارة سيده ، ولكنه أثناء ذلك وجد نفسه مدفوعا بقوة ذاتية ، منبعثة من أعماق نفسه الى الاشتغال بنواح ، لا تمت بأى صلة الى العمليات التجارية ، وحساب الأرباح والخسائر ، فاندفع بهذه القوة الى التعرف على أسماء الأمكنة والبقاع والبلدان ، التى يمر بها وما توالى عليها من أحداث ، ومن نشأ فيها ، أو اتخذها دار اقامة من العلماء والأدباء ، وبهذه القوة أيضا أضحي مشغوبا بالالمام بمعلومات وافية عن كل هذه الأشياء ، وكان يسجل ما يستحق التسجيل فى مذكراته ، ثم سيطرت عليه رغبة عارمة فى التردد على دكاكين الوراقين فى كل بلد ، للاطلاع على ما فيها من مراجع ومخطوطات جغرافية ، وكان يبذل بسخاء فى شراء بعضها ؛ للتزود منها بعد عودته الى بغداد ، كما كان يتردد على خزائن الكتب المشهورة ، وفى مقدمتها مكتبات (مرو) .

كان ياقوت يفعل ذلك بدافع من الرغبة الملحة فى تزويد نفسه بالمعارف الجغرافية ، والاستعداد الفطرى لهذا النوع من الدراسة العلمية ، وأخذ تفوقه يظهر واضحا فى علوم الجغرافية ، ولا شك أنه كان متأثرا فى ذلك بعوامل مختلفة ، لا تمت كثيرا بصلة الى عصره ، كان متأثرا بالعلماء الذين سبقوه فى هذا الميدان ، كما كان متأثرا بميوله الخلاقة ودوافعه النفسية ؛ لذلك خطا ياقوت بالتأليف الجغرافى فى عصره خطوات فسيحة ، متخطيا كل الحواجز ، التى تحول بينه وبين الأصالة والابتكار فمضى فى طريقه يتأمل ، ويلاحظ ، ويدرس ، ويؤلف .

ومن الراجح أن حياته بدأت بداية عصر الناصر لدين الله وولده وحفيده في بغداد ، فقد تولى أبو العباس أحمد بن المستضى خلافة بغداد في سنة ٥٧٥ هـ ، وقد طالت مدة خلافته ، التي استمرت ستة وأربعين عاماً ، وأطلق على نفسه لقب الناصر لدين الله ، ويبدو من قصة حياة هذا الخليفة العباسي أنه كان طموحاً مقداماً ، يجري الدم العربي الحر الجرى في عروقه ولكن هذه البداية الطيبة لم تلبث الا قليلاً ؛ إذ انقلب طموحه طمعاً وحقدًا ، واقدامه جبناً شائناً ، وقد مهد لهذه النهاية المزرية بارتكابه خطأين جسيمين : الأول يتمثل في استعانته بشاهات خوارزم للقضاء على نفوذ السلجوقيين الذي كان يؤرقه ، ويقض مضجعه ، وقد نسي وهو يرتكب هذا الخطأ أنه لجأ الى دولة فتية ناهضة ، لها أطماع واسعة في الخلافة نفسها ، فكان مثله في ذلك كمثّل المستجير من الرمضاء بالنار ♦

وأما الخطأ الثاني الذي لا يمكن أن يغفره له التاريخ فهو اتصاله بالمغول ؛ لكي يعاونوه على التخلص من (خوارزم شاه محمد) وهو أحد شاهات خوارزم الناهضين ومن ذوى البأس والشجاعة ، وكان يعلم أن الناصر يريد التخلص منه ، فسعى في الحصول على فتوى من طائفة من أشهر علماء المسلمين ، تقضى بخلع الناصر ، واقامة خليفة أصلح منه للمسلمين من العلويين ، يتولى زمام الخلافة في بغداد ، واعتمد (خوارزم شاه محمد) على

هذه الفتوى ، وتحرك في عسكر جرار نحو بغداد ، يريد الاستيلاء عليها ، وعندئذ فقد الناصر صوابه ، وجانبه السداد في الرأي ، وحسن التصرف في الأمر ، واحسان المشورة ، وتغلب على تفكيره سلطان الهوى والرغبة في الحكم ، فلجأ من فوره الى (جنكيز خان) سلطان المغول وقائدهم ، ولقد كان في هذا التصرف الأثم بداية النهاية لحكم خلفاء بنى العباس ، وزوال سيطرتهم الباقية ، والقضاء التام على خلافتهم في دار السلام ؛ اذ ما كاد رسل الناصر يصلون الى سلطان التتر ، حتى تحول المد التتري نحو الغرب ، والحقيقة أن رسل الناصر وان كانوا قد نبهوا العاهل التتري الكبير الى انهاء مصير الخلافة المتداعية والاستيلاء على ميراثها - الا أن التتر أنفسهم لم يكونوا في غفلة عن سلب ميراث الخلافة ، ولكن الناصر قد هياً لهم الفرصة للاسراع في تنفيذ مخططهم بغزو جميع اراضي الخلافة العباسية في وقت لم يكن موضوعا في حسابهم ، فاندفعوا كالسيل الجارف نحو بغداد ، وحاربوا (شاه خوارزم) ، وقضوا على مملكته الناهضة ، كما استولوا على الجزيرة والموصل وآسيا الصغرى ودخلوا بغداد سنة (٦٥٦ هـ) ، وكان آخر خليفة للعباسيين في بغداد وقتئذ - المستعصم بالله ، وقد روى أن (هولاكو) أمر بقتله مع ولديه وستة من الحُصيان ، ويقول (دوسون) : « ان تاريخ المغول يمتاز بطابع الفوضى ، ووحشيتهم لا تترك الا صورةا بغيضة ، وأن حكمهم كان انتصارا للفوضى والفساد » ♦

وقد يختلف سير (هنرى هاوارت) مع (دوسون) فى وصف المغول ، ولكن النتائج المترتبة على حكمهما تكاد تكون واحدة ، يقول سير (هنرى هاوارت) : « ان المغول جنس من الأجناس ، التى درجت تحت ظلال الفقر وشطف العيش ، يجرى فى دمائهم مزيج قوى من الحديد ، ينبعث فى فترات منظمة ، ليقضى على الترف والثراء اللذين سادا فى ذلك العصر ، وتحطيم الفن والثقافة ، التى لا تترعرع الا فى ظل الرخاء وبسطة العيش والأمن ، ويحول هذا الجنان الذى جهد الانسان فى غرسها وتعهداها - الى صحراء جرداء مقفرة ، فهم أشبه بالوباء والقحط ، أو أشبه بآلة تدمير وتخریب ، أتت على شعوب كانت غارقة فى بحار من الترف والنعيم ، فذهبت ضحية غارات المغول » .

هذه الصورة السريعة تلقى ضوءا على عصر ياقوت ، فقد كان عصرا مشحونا بعوامل الفتن والاضطرابات والفوضى ، وفى هذا الجو المضطرب لا يمكن أن تتوافر أسباب الهدوء وعوامل الاطمئنان النفسى ، والتشجيع المادى ، وهى بواعث البحث العلمى ، التى تهيبىء فرص الدراسة للعلماء ، وسيتضح لنا فيما بعد من سيرة ياقوت أنه فر هاربا من (مرو) أمام التتار خوفا على حياته ، وبالرغم من كل ذلك رأينا ياقوتا يخرج على المؤلف فى عصره ، ويخطو بالتأليف الجغرافى خطوات عظيمة ، لفتت نظر الباحثين ، يقول العالم الايطالى (ألدوميللى) فى كتابه « العلم عند العرب وأثره فى تطور

العلم العالمى » : « ان كتب الجغرافية تضاءلت فى القرنين الثانى عشر
والثالث عشر (الميلاديين) بصورة ملحوظة ، بعد نمو وانتعاش
ظاهرين ، وذلك بالرغم من أننا نجد فى هذا العصر كتابا من أعظم
الكتب ، الذى صنف فى بابيه ، ذلك الكتاب الزاخر الكبير ،
والقاموس الجغرافى العظيم (معجم البلدان) الذى صنفه أبو عبدالله
ياقوت بن عبد الله شهاب الدين البغدادى » • ونلاحظ أن
«الدوميللى» لا ينسى أن يشير فى كتابه الى أن ياقوتا قد نقل قسما
كبيرا من كتابه من مؤلفين سابقين وعندما نرجع الى حديث ياقوت
عن هؤلاء المؤلفين نراه لم يحاول تحديد القدر الذى نقله ، وينبغى
أن نشير الى أن عصر ياقوت لم يكن مجدبا كل الاجداب ، ففيه
برز فى المشرق والمغرب معا العالم النباتى والعشاب المشهور (ابن
البيطار) المتوفى سنة (٦٤٦ هـ) والطبيب النباتى والرحالة عبداللطيف
البغدادى (٥٥٧ - ٦٢٩ هـ) ، وهذا مما يرجح أن تيار العلم العربى
فى عصر ياقوت كان ما يزال سائرا فى طريقه ، ولكن بخطوات
بطيئة ، وفى صور باهتة أحيانا كثيرة وزاهية أحيانا قليلة ، وذلك
بالنسبة لسيره فى عصور الازدهار السابقة •

ياقوت

نشأته وحياته

نشأ ياقوت عالما موسوعيا ، شأنه في ذلك شأن غيره من علماء سلفنا الصالح ، الذين وضعوا أسس الحضارة العربية الاسلامية •

والموسوعية بالنسبة لعلمائنا القدامى كانت الطابع الذى يتميز به المبرزون والراسخون فى العلم منهم، وعصرنا الحاضر وان برزت فيه فكرة التخصص فى العلم أو فى بعض فروعهِ - الا أن اتجاهها جديدا بدأ يتضح ، ولا يمكن أن نغفله فى مجال الدراسات العلمية العالية فى الدول الأوروبية المتقدمة ، وهو يبدو لنا من أن العلماء فى هذه الدول يعلقون اليوم أهمية كبرى على أن العالم أو الدارس وان كان ينبغى أن يركز على مادة التخصص أو فرع التخصص - الا أن ذلك يقتضيه فى الوقت نفسه أن يلم الماما جيدا بكل مايتصل بهذه المادة أو ذلك الفرع من العلم من معلومات وثقافات قريبة أو بعيدة ، ويثور العلماء اليوم بصفة خاصة فى الاتحاد السوفيتى على فكرة التخصص الضيق ، ويرون أن المهندس مثلا لا بد أن يعد اعدادا عمليا ونظريا واسعا ، وأن يدرّب على النظرة الفلسفية الى الحياة ، ولهذا يجب أن يدرس الفلسفة العملية ، وأن يتعمق فى العرف على أسس علم الادارة ، والاقتصاد السياسى ، والاقتصاد العملى ، وأن يضيف فضلا عن ذلك الى مادة التخصص التى اختارها معلومات واسعة ، تتميز بالجدة والقيمة الفنية ، حتى يكون مبدعا ،

ولا شك في أن هذه الاتجاهات من ملامح الموسوعية العربية
الاسلامية •

وانه لمن الانصاف لعلمائنا أن ننبه على أنهم كانوا يلمون الدما
كافيا وواسعا بمعارف كثيرة متنوعة في استقصاء وعمق ، ولكن كان
يغلب على كل منهم بالرغم من ذلك نوع خاص من المعرفة ، فابن
سينا برز في الطب وان كان يعد من الفلاسفة ؛ لأن الحكمة الطبية
شديدة الاتصال بالحكمة النفسية ، ومن أجل ذلك عرف عن ابن
سينا أنه كان يستخدم التحليل النفسى فى علاج بعض الأمراض ،
وهو أسلوب من أحدث الأساليب الطبية فى عصرنا •

كذلك نجد (الرازى) طبيا يشار اليه بالبنان ، وان كان فى
الوقت نفسه كيمائيا بارعا ، وفنانا يعتمد على نغمات الموسيقى فى
علاج أنواع من الأمراض ، وكذلك يعتبر هذا الاتجاه فى العلاج
الطبي من أحدث الأساليب الطبية فى عصرنا •

وعلى هذا الأساس كان العرب يفهمون الموسوعية فى العلم ،
مما ساعدهم على الخلق والابتكار فيه ، وقد كان ياقوت الحموى
عالما من علماء العرب الذين جمعوا بين معارف كثيرة ، فقد جمع بين
الجغرافية والأدب وعلوم الشريعة واللغة العربية وغيرها ، ولكن
شهرة كانت بارزة فى علوم الجغرافية ، ومن المؤكد أن اهتمامه بفرن
التراجم كان وثيق الصلة بطريقته التى جرى عليها فى التعريف
بالأماكن والبلدان ؛ لأنه كان حريصا على تسجيل أسماء العلماء

والأدباء ، الذين ينسبون إليها ، ولعله رأى أن المجال لم يتسع أمامه
فى معجم البلدان للتراجم المفصلة للعلماء والأدباء وأمثالهم - فأحب
أن يفرد لهم ولغيرهم معجما خاصا ، سماه (معجم الأدباء) •

وياقوت هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب البغدادى ،
وقيل ابن عبد الله الرومى الجنس ، ونسبته الى حماة وان كان بغدادى
الدار ، ولد سنة (٥٧٥ هـ) وقيل سنة (٥٧٤ هـ) ببلاد الروم (آسيا
الصغرى أو بلاد الأناضول) ثم أسر وهو صغير من بلده فقبل له
(الرومى) ، وقد يكون من المرجح أن أباه (عبد الله الرومى) قد
أسره الروم ، وعاش زمانا فى بلادهم ، وليس فى ذلك موضع
لعجب أو استغراب ، فان طبيعة النضال والكفاح القائمة بين القومية
العربية وأعدائها من الروم وغيرهم فى سبيل الحفاظ على كيانها -
كانت تقتضى حتما التحاما مسلحا عنيفا ومستمرا بين الجانبين :
الروم والعرب ، وليس ببعيد أن يكون عبد الله الرومى قد أسره
الروم من قبل ، وظل زمانا فى بلادهم ، حتى ولد له ياقوت فى
أرض الروم ، ثم أسره العرب وهو طفل ، فعاد الى وطن أبيه ،
ولكى يسير فى خط حياته المرسوم ، اشتراه تاجر بغدادى يدعى
(عسكر ابن أبى نصر الحموى) ، فنسب ياقوت اليه أو الى حماة ،
كما أشرنا من قبل ، ولذلك سمي (ياقوتا الحموى) •

ويزعم (الدوميللى) الايطالى فى كتابه (العلم عند العرب) :
أنه ولد من أبوين يونانيين فى (آسيا الصغرى) وتوفى فى حلب

سنة (١٢٢٩ م) ، ولكنه لم يأت بما ينهض دليلاً على صحة زعمه ، كما يزعم الأستاذ (جاك . س . ريسلر) بالمعهد الاسلامي بباريس في كتابه (الحضارة العربية) أن ياقوتا كان عبداً يونانياً ، ثم أعتق ، وتجول في أنحاء العالم العربي ، وشرع يعلم نفسه بنفسه ، ويلاحظ أن الأستاذ (ريسلر) لم يشر الى صلة ياقوت بعسكر بن أبي نصر الحموي ، وهي صلة كانت على جانب كبير من الأهمية في تطوير حياة ياقوت العلمية ، وتمكينه من القيام برحلاته التجارية ، التي استغلها في التأمل العلمي ، والتعرف على البلدان ، ثم يقول (ريسلر) وانه اطلع على مكنتات (طشقند) و (مرو) و (بلخ) ، وعرف كل ما فيها من كنوز المعرفة ، وبخاصة في ميدان العلوم الجغرافية ، وقد فرض عليه وهو ذو عقل مبتكر أن يشتغل بنسخ الكتب ، لكي يعيش ، والحقيقة أن (ياقوتا) لم يلجأ الى الاشتغال بالنسخ الا بعد أن وقعت الجفوة بينه وبين سيده ، مما سنشير اليه في موضعه ، ثم انه لم ينسخ الكتب من أجل أن يعيش فحسب ، وانما فعل ذلك رغبة في تحصيل المعرفة ، والاطلاع على المخطوطات النادرة .

٢ - شخصية ياقوت وما يوحى اليه اسمه :

يتميز ياقوت بسعة الأفق والاطلاع الواسع : فقد استطاع أن يضع في معجمه لبنات قوية في بناء صرح الحضارة العربية الاسلامية في عصره ، واسمه وان كان يحمل معنى العبودية والاسترقاق - الا أن ذلك لم يفض من قيمته كعالم عربي مسلم ، أسهم في احياء التراث

العربي الاسلامي، وقد جرت العادة عند العرب أن يطلقوا على الأرقاء أسماء الحجارة الكريمة وبعض أنواع الطيب، كالزمرد والياقوت والكافور، وقد حاول علامتنا الجغرافي بعد أن أعتقه سيده - أن يستبدل باسمه اسما آخر، لا يحمل معنى العبودية الذي يكرهه، فاختار لنفسه اسم (يعقوب)، ولكنه أخفق في محاولته؛ اذ لزمه اسمه القديم ولصق به، ولم يعرفه معاصروه الا به، ولم تذكره الدوائر العلمية الا بهذا الأسم الذي أراد التنصل منه •

ومن الواضح أن نسبته وهي (الرومي) تشعر بأنه رومي الأصل، نشأ أول ما نشأ في بلاد الدولة البيزنطية، وربما كان اغريقى الأصل، وقد أشرنا الى هذه النسبة من قبل، ويمكن أن نضيف الى ذلك أنه كان من تقاليد العرب التي تتسم بالطابع الانساني - أنهم اذا وجدوا أنفسهم أمام شخص مجهول الأب ذكروه بأنه (ابن عبد الله)، وهذا ما حدث بالنسبة لياقوت في رأى بعض الباحثين، وأنا لا أستبعد ما سبق أن حققته من قبل، وقد شارك (ياقوت) في اسمه مشاركة تامة اثنان من علماء العرب، أولهما أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي، وهو شاعر وأديب توفى سنة (٦٢٢ هـ - ١٢٢٥ م) والثاني ياقوت بن عبد الله الرومي، وقد عاش بالموصل، وكان أديبا نحويا وخطاطا، وقيل انه ينسب الى مدرسة ابن البواب المشهور، واتفاق عالين في الاسم مع ياقوت ليس أمرا غريبا، وقد وقع هذا التوافق بالنسبة الى علماء كثيرين، ومنهم

جابر بن حيان ، وكان لتعدد اسم جابر أثر كبير فى تلك الحملة التى شنها بعض المستشرقين وفى مقدمتهم (ألدوميللى الايطالى) على الوجود التاريخى لجابر بن حيان ، والقاء ظلال كثيفة من الشك فى وجود (أبو الكيمياء العربية) • ولياقوت نسبة أخرى وهى (الحموى) وقد استعارها من سيده التاجر (عسكر بن أبى نصر الحموى) ، وكان من أهل حماة ، ثم انتقل الى (بغداد) ، وأقام فيها •

وقد أفاد ياقوت من صحبة سيده (عسكر بن أبى نصر الحموى) ، فقد عني بتعليمه وتدريبه على الأسفار ، مما كان له أثر عظيم فى مستقبله العلمى ؛ اذ كانت هذه الأسفار تستهلك القليل من وقته فى ممارسة الشئون التجارية لسيده ، وأما الكثير منه فقد كان يقضيه فى دكاكين الوراقين ، واقتناء الكتب وجمعها ونسخ بعضها اذا تعذر الحصول عليها •

وقد يبدو هذا أمرا عجيبا فى حياة ياقوت بعد أن أعده سيده للتجارة ، وشحن ذهنه بالثقافات المتصلة بالأعمال التجارية ، غير أن هذا قد يتبدد اذا علمنا أن الرحلات والأسفار عند العرب كانت من دواعى التأمل العلمى هذا الى ما لدواعى الفطرة والميول الطبيعية من أثر فى الاستجابة ، التى وجهت ياقوتا ، ولذلك نراه يعطى دكاكين الوراقين ، وملاحظة الأماكن التى يمر بها ، والتعرف عليها - أكبر نصيب من عنايته واهتمامه ، ويركز على الاطلاع على تلك

الثقافات التي تلائم مزاجه الفطري ، تلك هي الثقافات الجغرافية ،
التي أولع بها ، واستمر حاله على هذا النحو وقتا ، ليس بالقصير ،
الى أن وقعت بينه وبين سيده جفوة مفاجئة ، أعقبتها القطيعة وانفصام
عرا الروابط التي كانت بينهما ، وانتهى الأمر بعق ياقوت ، واطلاقه
من أسر عبوديته سنة (٥٩٦ هـ) .

وعندئذ وجد ياقوت نفسه حرا طليقا ، واتسع لديه الوقت ،
الذي عاونه على تحقيق مآربه واشباع ميوله ، فاغتمها فرصة
ذهبية ، وراح يعمل في صبر دائب ونشاط متصل على الاطلاع
والبحث والدراسة ، فاشتغل أولا بنسخ الكتب لقاء أجر يتقاضاه
ليعيش منه ، وليزود مكتبته بما ليس فيها ، واستمر فترة من حياته
يشق طريقه مكافحا في سبيل لقمة العيش والعلم معا ، ولو قدر
لياقوت أن يستمر طويلا سائرا في هذا الخط ، الذي أُلجأ اليه
سيده لكان له شأن آخر ، ولكن ما تلبث العلاقات أن تعود بينه وبين
سيده على نحو ما كانت ، ويتصل ما انقطع بينهما لأن عسكريا
الحموى شعر بعد هجر ياقوت له - بأنه وقع في خطأ جسيم ، وأنه
ينبغي أن يصلح خطأه - بأن يحاول استرجاع ياقوت ، فيستدعيه
ويسترضيه ، ويعيده الى خدمته معززا مكرما ، ثم يعطيه مالا وتجارة
واسعة ، ويأمره بالسفر ، ويطول سفر ياقوت في هذه المرة فوق
العادة ، فقد أغرته الأرباح الطائلة ، التي ظلت تتدفق الى جيبه ثم
يعود من سفره بعد غيبة طويلة الى بغداد ، ليجد سيده قد توفاه

الله ، ويستطيع ياقوت أن يرضى زوج سيده وأولاده ببعض المال، ويحتجز الباقي لنفسه ، فيصبح بعد عشية وضحاها صاحب رأس مال ضخم ، ولكن ماذا يصنع بهذا المال ؟ انه لم يفكر كثيرا ؛ لأنه وجد أن تجارة الكتب هي السبيل الى تحقيق آماله ، ولعله اختار هذا النوع من التجارة ، ليجمع بين الخبرة التي كسبها من الاتجار في مال سيده واشباع دوافعه النفسية وميوله الى القراءة والاطلاع على أكبر عدد ممكن من المراجع والمخطوطات •

وقد كانت الوراقة يومئذ المدرسة الكبرى والجامعة العريقة والمعهد الذائع الصيت ؛ لأنه كانت تتوفر فيها وقتئذ جميع أدوات الشقيف والتحصيل العلمى ، فوجد ياقوت فى رحابها كل ما ساعده على ارضاء طموحه العلمى ، وتزويد نفسه بالثقافات الجغرافية ، ولذلك بدأ يقوم برحلاته المشهورة •

٣ - رحلاته وأثرها فى مادته الجغرافية

يقال ان سيد ياقوت - عسكر بن أبى نصر الحموى - بدأ يصطحبه فى أسفاره ، وكان ما يزال حدثا صغيرا ، فلما اكتمل جسمه ونضج عقله أخذ يبعث به وحده فى أسفار كثيرة ، وكان ياقوت فى أول عهده برحلاته يكثر من التردد على جزيرة (كبش) وقيل (كرش) « Krish » ، وتقع فى بحر (عمان) فى الخليج العربى ، وكانت وقتئذ تعتبر من أهم المراكز التجارية العربية

الاسلامية ؛ اذ كان يفد اليها كثير من تجار العالم العربى الاسلامى وغيره من الأقطار ، حتى أصبحت مركزا كبيرا لتجمع أعداد كبيرة من ممثلى التجار من مختلف الأقطار والشعوب ، وقد اكتسبت هذه الجزيرة تلك الشهرة لموقعها التجارى الفريد ، ولتوافر الخصب فيها ، فقد عرفت بكثرة نخيلها وثمارها وعيونها التى يتدفق منها الماء العذب ، مما كان يقوم بحاجة أهلها وتلك الأعداد الكبيرة من التجار الذين كانوا يأتون اليها من بلدان شتى ، ويجتمعون فيها للتبادل التجارى •

ومما يؤكد ما كان لهذه الجزيرة العجيبة من شهرة تجارية ، وصل خبرها الى العالم الغربى - أن الرحالة (بنيامين التُّطيلى) Benjamin of Tuoela قد زارها قبل ياقوت ، فسر منها ، ومدحها كثيرا فى مذكراته ، مبيّنا أهميتها التجارية ، وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وبعد مائة عام من زيارة (بنيامين) لها أى فى القرن الثالث عشر ، وفى النصف الثانى منه - زارها (ماركوبولو) البندتى Marco Polo

وما لبثت هذه الجزيرة العربية تتمتع بشهرتها زمانا ، حتى بدأت تفقد أهميتها التجارية تدريجا ، بسبب منافسة (هرمز) لها على الساحل الفارسى للخليج العربى • وفى أثناء ذلك بدأ ياقوت يقوم بعدد من الرحلات ، وبخاصة بعد انفصاله من سيده ، فكانت

رحلته الأولى فى سنة (٦١٠ هـ) ، وقد زار خلالها تبريز والموصل
والشام ومصر •

وفى سنة (٦١٣ هـ) خرج من دمشق الى حلب فأربل
فارمنيه ، ومنها الى تبريز ، ثم ايران الشرقية ، وقيل انه أمضى عامين
بنيسابور وأثناء اقامته بها علق قلبه حب فتاة من أهلها ، وكان أول
حب له ، وفى رواية أخرى تقول : انه لما قدم هذه المدينة طاب له
المقام فيها ، فاشترى جارية تركية من أحد أسواقها ، لم ير أن الله
تعالى قد خلق أحسن منها خلقا وخلقا ، وقد ارتاح اليها ، وصادفت
من نفسه محلا كريما ، ومن قلبه شغفا وحبا ، غير أنه لم يلبث أن
أبطرته النعمة ، فاحتج بضيق ذات اليد وباعها ، فامتنع عليه القرار ،
وجانب المأكول والمشروب ، حتى أشرفت نفسه على البوار ، فأشار
عليه النصحاء باسترجاعها ، فعمد الى ذلك ، ولكنه أخفق ، ولم يجد
سيلا الى تحقيق غايته ، لأن الذى اشتراها كان غنيا ، وقد حلت
فى قلبه ، ونالت منه أضعاف ما نالت من قلب ياقوت ، فأسف أشد
الأسف وندم غاية الندم ، ثم لم يلبث أن ترك (نيسابور) متجها
الى (هراة) و (سرخس) ، حتى بلغ (مرو) ، وفى هذه المدينة
أمضى عامين ، حيث أعجبه مكتباتها المشهورة ، فظل يتنقل بينها ،
ويتردد عليها ، مستغلا كل أوقاته فى القراءة والاطلاع وتدوين
المذكرات ، ويبدو أن (ياقوتا) قد اطمأن كثيرا الى (مرو) ، فأثنى
عليها كل الثناء ، وسره المقام فيها ، بالرغم مما تناقله الرواة وتحدثوا

به عن بخل أهل هذه المدينة ، حتى ذمها الجاحظ في بخلائه ؛
ولكنه قرر الإقامة فيها وقضاء بقية أيامه ، كما روى أنه فكر فيها
لأول مرة في وضع (معجم البلدان) سنة (٦١٥ هـ - ١٢١٩ م)
غير أن الرياح تأتي أحيانا بما لا تشتهي السفن ، فقد أفسد عليه
المقام فيها والعمل على تجميع مواد معجمه المشهور - ما نقل الى
مسامعه من فظائع التتار ، واجتياحهم لكثير من البلاد الاسلامية ،
واستيلائهم على بخارى وسمرقند ، وارتكابهم أشنع الجرائم ، ففر
هائما على وجهه من مرو قاصدا خراسان ، وقد كان لهذا الهرب
المفاجيء من مرو تأثير كبير على مادته العلمية الجغرافية ، التي بدأ
يجمعها استعدادا لوضع كتابه المشهور (معجم البلدان) ، اذ ترك
هذه المادة مرغما في مكتبات مرو . وفي طريقه مر بالرى وقزوین
وتبريز الى أن بلغ الموصل ، فدخلها فقيرا معدما ، لا يملك شيئا ،
ولكنه لم يلبث أن غادرها متجها الى (حلب) حيث وجد في عطف
الوزير الفيلسوف (القفطي) وزير الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي
ما ساعده على تحسين حاله ، وفي كنف هذا الوزير العالم الفيلسوف
صاحب كتاب (اخبار العلماء بأخبار الحكماء) وجد الفرصة سانحة
للعمل السريع في اعداد مادة معجمه من جديد ، واستمر يعمل
جادا نشيطا ، حتى أتم التسويد الأولى للمعجم في سنة (٦٢١ هـ -
١٢٢٤ م) ، ثم رفعها اليه ، ومن الواضح أن (ياقوتاً) كان يستهدف
من ذلك الحصول على اجازة الوزير لكتابه ، وأن يكسب رضاه ،

لأنه شمله بعطفه ، وقد ذكر هذا الوزير ، وكان يعرف بالقاضى الأكرم ، وهو جمال الدين بن الحسن على بن يوسف بن ابراهيم ابن عبد الواحد الشيبانى فى كتابه (انباء الرواة على أبناء النحاة) أن ياقوتا كتب اليه رسالة من الموصل بعد وصوله اليها هارباً من التتر ، يصف فيها حاله ، وما جرى له معهم ، وهو يبدأ رسالته بما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم •

أدام الله على العالم وأهليه والاسلام وبنيه - ما سوغهم وجباهم ومنحهم وأعطاهم من سبوغ ظل المولى الوزير أعز الله أنصاره ، وضاعف مجده واقتداره ، ونصر ألويته وأعلامه ، وأجرى باجراء الأرزاق فى الآفاق أعلامه ، وأطال بقاءه ، ورفع الى عليين علاه ، فى نعمة لا يبلى جديدها ، ولا يحصى عددها ولا عديدها ، وأدام دولته للدنيا والدين - يلم شعثه ، ويرفع مناره ، ويحسن بحسن أثره آثاره ، ويفتق نوره وأزهاره ، وينير نواره ويضاعف أنواره ، وأسبغ ظله للعلوم وأهلها ، وللآداب ومنتحلها والفضائل وحاملها

ثم يقول : وكان المملوك لما فارق الجنب الشريف ، وانفصل من مقر العز اللباب والفضل المنيف ، أراد استعتاب الدهر الصالح ، واستدراار (خلف) الزمان الغشوم الجامح ، اغترارا بأن الحركة

بركة ، والأغتراب داعية الاكتساب ، والمقام على الاقتار ذل
وانتقام •

إن الليالي والأيام لو سُئلت عن عيب أنفسها لم تكتم الخبرا
وهيهات مع حرفة الأدب بلوغ وطر ، أو ادراك أرب ، ومع
عبوس الحظ ابتسام الدهر الفظ ، ولم أزل مع الزمان فى تقييد
وعتاب ، حتى رضيت من الغنمة بالاياب •••

ثم يقول : الى أن حدث بخراسان ما حدث من الحراب
والويل المير والتباب ، وكانت - لعمر الله - بلادا موقنة الأرجاء
رائعة الانحاء ، ذات رياض أريضة ، وأهوية صحيحة ، قد تغنت
أطيافها ، فتمايلت طربا أشجارها ، وبكت أنهارها فتضاحكت
أزهارها ، وطاب روح نسيمها ، فصح مزاج اقليمها ••• الى أن
يقول : فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والالحاد ، وتحكم
فى تلك الأستار أهل الزيغ والعناد ، فأصبحت تلك القصور كالمحو
من السطور ، وأمست تلك الأوطان مأوى للأصداء والغربان ،
يتجاوب فى نواحيها البوم ، ويتناوح فى أراجيحها الريح السموم ،
فانا لله وانا اليه راجعون من حادثة تقصم الظهر ، وتهدم العمر ،
وتفت فى العضد ، وتشيب الولد ، وتنخب لب الجليد ، وتسود
القلب ، وتذهل اللب ، فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه ناكصا ، ومن
الأوبة الى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيسا ••• فتوصل ،
وما كاد حتى استقر بالموصل ، بعد مقاساة أخطار ، وابتلاء

واضطبار » ... ويقول السيد أمين الخانجي في كتابه (منجم
العمران) عنها : وهى رسالة طويلة ، ذكر فيها تجوله فى الأصقاع ،
وتنقله فى البلاد ومن أرادها فليرجع الى وفيات الأعيان لابن خلكان .
ويهمنا ونحن أمام رسالة نسبت الى ياقوت ، أن نقف وقفة
قصيرة ؛ لأنها وثيقة تاريخية تلقى ضوءاً على أحداث العصر ، ويمكن
أن نستنبط منها ما يلى :

١ - لقد رسم ياقوت فى هذه الرسالة صورة واضحة لما كان
يلقيه التتر (١) فى قلوب الناس من الرعب والفرع ، ثم ما حل
بخراسان من التخريب والتدمير ، وما أصاب أهلها ونزل بهم من
خطوب وويلات ، وما تعرض له ياقوت نفسه من الأخطار ، التى
كانت تلاحقه الى أن وصل الى الموصل .

٢ - ووضح فى الرسالة اهتمام ياقوت بوصف أحوال البلاد
الاسلامية ، قبل اجتياح التتار لها ، وقد كانت تنعم بما فيها من

(١) « التتر والتتار » : اسم شعب يختلف مدلوله باختلاف العصور ،
وقد ورد فى الكتابات الاراخونية القديمة ، التى ترجع الى القرن الثامن الميلادى
ذكر طائفتين من القبائل التترية ، وهما التتر التسع ، والتتر الثلاثون ،
ويذهب (Thomsen) الى ان اسم تتر كان يطلق فى ذلك العهد على
المغل او فريق منهم ، وليس على الشعب التركى ، ويقول : ان هؤلاء التتر
كانوا يعيشون على وجه التقريب فى الجنوب الغربى من بحيرة (بيكال) واطلق
ابن الاثير فى كتابه (طبعة نورنبرج) ج ٢ ص ١٧٨ وما بعدها هذا الاسم على
اسلاف (جنكيز خان) ، ويقال ان (جنكيزخان) نفسه استعمل هذا الاسم
رسمياً .

جنات ذات أغصان ، وما تميز به هواؤها من اعتدال ولطف ، ثم ما صارت اليه بعد أن غزتها جحافل التتار ، وأحدثته فيها من تخريب وتدمير وقتل وسفك دماء ، وقد وصف التتر بأنهم من أهل الكفر والزيف والاحاد ؛ لأنه لا يفعل بأرض الاسلام وأهلها مثل ما فعلوه الا الكافرون الضالون ، مما يدل على أن ياقوتا كان ذا عقيدة اسلامية صافية ، ويؤيد ذلك ما أبداه من أسف شديد على تفكك عرا الدولة العربية الاسلامية ، وانهارها الساحق أمام هذه الجحافل الملحدة المتبربرة ، ثم حزنه الدفين العميق على تركه مدينة (مرو) الزاهرة العامرة بمكتباتها ، وهو الذى وصف كتبها النادرة من قبل بأنها أنستة الأهل والأحباب والوطن والأصحاب ♦

٣ - وياقوت بالرغم من أنه رومى الأصل - الا أن لغته العربية فى الكتابة ، قد وصلت الى مستوى يجارى فيه أدباء عصره فهو يؤثر السجع ويلتزمه ، ويستخدم المحسنات البديعية ، ويستشهد بالشعر ، فلم يخرج فى ذلك على مألوف عصره ، وان بدا متكلفا بعض التكلف ♦

٤ - وياقوت وهو العالم الكبير والجغرافى العظيم - يزل زلة كبيرة فى رسالته؛ اذ جعل نفسه مملوكا لوزير حلب ، والمعروف أن سيده قد أطلقه منذ زمن بعيد ، وتمتع بحريته وقتا ليس بالقصير ، ولكن يبدو انه لم ينس عبوديته الأولى ، وكان ينبغى عليه أن يحرر نفسه من كل قيد من قيود الرق ، بالرغم من كل الاعتبارات التى

تحمله على استعمال صيغ وعبارات مخصوصة في مخاطبة من يظنهم
أعلى مقاما وأسمى مكانة منه .

٥ - ولكتنا نلاحظ أن أسف ياقوت لم يكن كافيا ، بالنسبة
لانهيار الممالك الاسلامية ، وأقاليم الخلافة العباسية الكبرى أمام
التر ؛ اذ كان من واجبه وواجب غيره من الكتاب والمؤلفين الذين
كانوا يندبون وقتئذ حظ الخلافة العباسية - أن يدعوا في كتاباتهم الى
تكتل العرب والمسلمين ، ووقوفهم صفا واحدا ضد أعدائهم ،
ولا يمكن أن نقبل عذر أصحاب الأقلام آنئذ ، بأنهم لم يكونوا على
درجة من الوعي والنضج السياسي - تتيح لهم أن يوجهوا كتاباتهم
وجهة وطنية قومية ، بدليل أن ياقوتا نفسه كان متعصبا ضد على
كرم الله وجهه ، ويقال انه طالع كتب (الخوارج) (١) ، واقتنع

(١) (الخوارج)

جماعة من المسلمين ، كانوا في أول امرهم من رجال على كرم الله وجهه ،
يحاربون معه ضد معاوية في الشام ، ولما نشأت بدعة التحكيم - وافقوا عليها
اول الامر ، ثم رجعوا عنها ، فقالوا : لا حكم الا لله ، واعتزلوا عليا ، ونزلوا
(حروراء) بظاهر الكوفة ، ثم اوقع بهم على بالنهروان قرب المدائن سنة
٣٨ هـ لانهم كانوا يعيشون ويفسدون ، ويرتكبون المحارم ، غير انهم صاروا
فيما بعد حزبا سياسيا ودينيا ، له شأنه الخطير في التاريخ الاسلامي ، ومن
آرائهم :

- ان الامارة يجب الا تكون مقصورة على أسرة بعينها ، وان كل مسلم
صالح لان يلى الخلافة ، متى كان متصفا بالتقوى والشجاعة .

- وان كل خليفة يسىء السيرة يجب عزله .
ولذلك وصفت مبادئهم السياسية بأنها ديمقراطية ، اذ كانوا من هذه
الناحية يستهدفون اقامة حكومة جمهورية اسلامية . =

بما فيها ، وكان يصوب آراءهم فيما ذهبوا اليه من آراء في التحكيم وغيره .

ولما قدم دمشق اتصل بنفر من أهلها في أحد أسواقها ، وكانوا من غلاة (الشيعة) (١) ، فأخذ يناظرهم ، وجرى بينه وبينهم ، حديث ذكر فيه عليا (رضى الله عنه) بما لا يرضون ، فسخطوا عليه ، وثاروا به ، وكادوا يقتلونه ، لولا أنه أسرع في الفرار من دمشق قاصدا حلب ، وروى أنه غادرها بعد ذلك قاصدا فلسطين

= ولكن مذهبهم الدينى يقوم غالبا على التعصب الشديد ، والاسلام بظاهر القرآن ، وانهاك الجسم بالصلاة ، والشدة على من ليس من مذهبهم من المسلمين .

ومن فرق الخوارج الازارقة ، وكانوا يقولون بتكفير المسلمين ، وهم بخلاف الإباضية .

(١) (الشيعة) طائفة من المسلمين تؤمن بمبدأ التشيع ، وهو بدعة طارئة على المسلمين ، وأول من ابتدعها (عبد الله بن سبأ اليهودى) ، وهو يهودى من اليمن ، أسلم وظهر الاسلام في أيام عثمان رضى الله عنه ، ثم انتقل الى الحجاز ، وقام بنشر التشيع بعده (المختار بن أبى عبيد) ، وقد مالت نفوس الفرس الى آراء الشيعة ، وآمن الكثيرون منهم بهذا المذهب ، وإذا كان مذهب الخوارج هو المذهب الديمقراطي في الاسلام ، لانه يرمى الى عدم حصر الخلافة في أسرة معينة - فان التشيع هو المذهب الارستقراطى لانه يرمى الى حصر الخلافة في آل على بن أبى طالب ، والفرق بين مذهبي الشيعة والخوارج : ان مذهب الشيعة سياسى ودينى معا ، اما مذهب الخوارج فمذهب سياسى فحسب ، وترى النظرية الشيعية وجوب اتصال حق الخلافة ببيت النبوة ، فالخلافة في رأى الشيعة منصب دينى ودنيوى ، اذ يتعين القائم فيه بتعيين الامام الذى سبقه ، مستدلين على ذلك بأن الرسول صلوات الله عليه ، قد أوصى بالخلافة الاولى للامام على ، والامام في رأيهم معصوم ، لا تحل مخالفته ، ولا يجوز عزله .

ومصر ، ولكنه فى نهاية المطاف عاد الى حلب أخيرا ، وبدأ فيها منذ أول يناير سنة (٦٢٥ هـ - ١٢٢٨ م) يعمل على تهذيب معجم البلدان ، غير أن منيته قد عاجلته قبل أن يفرغ من عمله ، وكانت وفاته فى ٢٠ من أغسطس سنة (٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م) بخان عند أحد أبواب حلب ، ولم يتجاوز الخمسين من عمره وقيل انه وقف مكتبته الكبيرة على مسجد بغداد ، وقام ابن الأثير المؤرخ بتنفيذ وصيته ♦

٤ - أساتذة ياقوت وشيوخه

أشرنا من قبل الى أن (عسكر بن أبى نصر) كان فى حاجة ماسة الى تعليم ياقوت ، لكى يضبط له حساب تجارته ، وما كاد ياقوت يجلس بين أيدي المؤدين والعلمين - حتى ظهرت فطرته المخصصة ، وانكشفت ميوله واستعداداته ، فبدأ تفوقه فى دراسته واضحا ، وقد دفعه ذلك الى مزيد من الاطلاع والأخذ عن العلماء ، فكان من أساتذته المشهورين (العبرى) الأديب اللغوى ، شارح ديوان أبى الطيب المتنبى ، والمطلع على شرح العبرى لهذا الديوان يلمس فيه النزعة اللغوية ، ثم كان من أساتذته وشيوخه (ابن يعيش) النحوى ، شارح كتاب المفصل فى النحو للزمخشري ، وهذا الشرح مشهور ، ويقع فى عدة أجزاء ويلاحظ أن شيوخه كانوا من اللغويين والنحويين ، لأنه أراد أن يدعم ثقافته اللغوية ، لكى يتغلب على عجمة لسانه ، ولكنه بالرغم مما بذله فى ذلك فإن

لغته لم تصل الى مستوى عال من البلاغة ، ولكننا برغم ذلك نجد كتابته فى التأليف وفى انشاء الرسائل - وقد درسنا له نموذجاً منها - على درجة طيبة من الاجادة الفنية •

ومن العجيب أن يروى عنه أنه كان شاعراً رقيقاً، وقد رويت له أشعار - وان كانت قليلة - الا أنها تدل على خيال مخصب وطبع أصيل ، قال الكمال الموصلى فى كتاب (عقود الجمان) أنشدنى أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادى ، صاحب تاريخ بغداد ، قال أنشدنى ياقوت فى غلام تركى ، وقد رمدت عينه ، وعليها رفائد سوداء •

وَمَوْلَدٌ لِلتَّرْكِ تَحْسَبُ وَجْهَهُ بَدْرًا يَضِيءُ سَنَاهُ بِالْإِشْرَاقِ
أَرْخَى عَلَى عَيْنِيهِ فَضْلَ وَقَايَةٍ لِيَرِدَ فَتَنْتِهَا عَنِ الْعُشَاقِ

٥ - ياقوت كما يراه المستشرقون

وصفه المستشرق الروسى الكبير (كراتشكوفسكى) بأنه الجغرافى العربى الوحيد ، الذى ظهر فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وأنه قد حاول محاولة جادة وضع مرجع كبير ، يجمع ما تفرق من المادة الجغرافية المعروفة فى عصره ، وكان ذلك فى وقت كادت فيه هذه المادة وغيرها من مواد التراث العربى الاسلامى - توشك أن تضيع فى طوفان من الفتن المتلاحقة والمصائب المتتابعة ، التى بدأت تجتاح العالم الاسلامى كله ، بسبب

الغزو التتري المخرب المدمر لكل مظاهر الحضارة والمدنية ، ولقد كان هذا المعجم فى الصورة التى رسمها فيه ياقوت ، وفى المادة التى جمعها فيه - ممثلا بكل دقة لآخر انعكاس للوحدة الاسلامية ، التى كانت قائمة فى عصور ازدهار الاسلام •

ويهتم المتحدثون عن ياقوت من المستشرقين بتقرير مسألة هامة ، وهى وجود الارتباط القوى بين ياقوت ومعجم البلدان فالحديث عن كل منهما يعتبر تعبيرا عن الآخر ، ويقول الأستاذ (نفيس أحمد) فى كتابه (جهود المسلمين فى الجغرافية) : « ان أهمية معجم البلدان ترجع الى أنه يصور العالم الاسلامى فى الفترة السابقة على الحراب ، الذى أصاب ثقافته وثروته بأيدي المغول » •

ولا شك فى أن معجم البلدان فى الوقت الذى ألف فيه كان من أفضل المصنفات الجغرافية ، التى قام بها مؤلف عربى فى العصور الوسطى ، ومن الأدلة على ضخامة هذا العمل الجليل الذى قام به ياقوت - أن ذلك المعجم يتألف من ثلاث آلاف وثمانمائة وأربع وتسعين صفحة ، وتتناول هذه الصفحات الكثيرة بين سطورها مادة علمية للجغرافية فى صورها الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات ، كذلك تعكس هذه الصفحات الكبيرة ألوانا وصورا دقيقة للجغرافية التاريخية ، وما يتصل بها من دين وحضارة ، وأجناس ، وفصائل بشرية ، وأدب شعبى (Folklore) وأدب فنى ، وفى هذه الصور التى جمعها ياقوت ، وأنفق فى سبيل جمعها الكثير من الطاقة والجهد

– خلاصة المعلومات الجغرافية التي وصل اليها العرب والمسلمون في مدى القرون الستة الأولى للهجرة وما قبلها ، وذلك بالاضافة الى طائفة كبيرة من النصوص الأدبية والشواهد الشعرية ، التي تقرب من خمسة آلاف بيت ، وهى ولا شك تكون مادة أدبية ، ذات قيمة فنية .

تلك مادة معجم البلدان فى اجمال ، ولا ريب فى أنها تلقى ضوءاً قويا على الجهود التى بذلها ياقوت فى احياء ناحية من نواحي التراث العربى الاسلامى .

وقد بدأ المستشرقون فى أوربة يتعرفون على ياقوت، ويقومون بدراسات له منذ القرن التاسع عشر ، وكانت المخطوطات التى تحمل آثاره العلمية والأدبية قد تسربت الى المكتبات الأوربية المعنية بالتراث الشرقى ، وبخاصة التراث العربى الاسلامى ، ومن أوائل علماء الاستشراق الذين وجهوا عنايتهم الى دراسة ياقوت العالمان (راسموسن) Rasmussen (١٨١٤ م) و (فرين) Frahn

(١٨٢٧ م) ، فقد نسب الى هذين العالمين أنهما نقلتا عن معجم البلدان القطعة الخاصة بابن فضلان ، وهو الرحالة العربى الذى رأس البعثة ، الموفدة من المقتدر العباسى الى ملك (بلغار) ، هذه البعثة التى كان لها أثر قوى فى دعم الصلات والروابط بين الروس والعرب منذ العصر العباسى الثانى .

وكان العلامة (فرين) أول من كتب عن شخصية ياقوت ،

وعرف به ، غير أن المتن الكامل لكتاب معجم البلدان ظل مخبوءاً لم
ير النور الا فى سنة (١٨٦٠ م) •

ومن علماء الاستشراق الذين قدروا جهود ياقوت العالم
(سكوفسكى) ، فقد وصف ياقوتا بالدقة والاجتهاد واعترف بأن علم
الاستشراق مدين له ، لأن ياقوتا فى معجمه حفظ وسجل بكل دقة
آثاراً قيمة فى جغرافية وتاريخ العصور الوسطى ، ولأنه كان من
علماء العرب غير المتحمسين الذين عنوا بدراسة الأوضاع الجغرافية
والاثنوغرافية والسياسية التى كانت معروفة فى عصره (١) •

بيد أن العالم المستشرق (فرديناند فستفلد) كان فى مقدمة
المستشرقين الذين قاموا بجهود صادقة متصلة فى اخراج أول طبعة
كاملة لمعجم البلدان ، وترجع أهمية هذه الطبعة فى أوربة الى العمل
العلمى البارز الذى اضطلع به (فستفلد) فى تحقيق الشخصيات
التاريخية ، التى ذكرها ياقوت ، ولكى يتمكن من النهوض بهذا
العمل الثقافى الكبير اضطر الى مراجعة عدد كبير من المصادر
والمراجع المختلفة ، ولذلك اعتبرت طبعته من أفضل الطبعات ، التى
كانت المصدر الوحيد لجميع المشتغلين بالدراسات العربية فى الميدان
الجغرافى •

ويشير (كراشكوفسكى) الى طبعة الخانجى للمعجم فى مصر،

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى - للمستشرق الروسى الكبير
(اغناطيوس يوليانونتش كراشكوفسكى) - دار النشر والترجمة والتأليف .

ويرى أن الاضافة التى قام بها الخانجى ، وهى (منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان) لا تمثل قيمة كبيرة من وجهة النظر العلمى ، وقد يكون العلامة الروسى على حق فيما ذهب اليه - اذا وضعنا فى اعتبارنا أن أسلوب ياقوت فى تأليف معجمه والعمل العلمى الذى قام به كان ملائما للاتجاهات العلمية فى عصره ، أما القيام بعمل يعتبر امتدادا لهذا الأسلوب فى عصرنا - فانه من غير شك يعد عملا خاليا من الابتكار ويوضح العلامة الروسى رأيه فى منجم العمران بقوله : ان عمل الخانجى لا يزيد على أن يعطينا فكرة عن أن الأوساط المثقفة فى الشرق العربى - ما تزال تسير على الأنماط القديمة فى تأليف المعاجم الجغرافية التقليدية ♦

ومن الذين شغلوا بدراسة المادة الجغرافية لياقوت (باربيه دى مينار) ، فقد اعتمد على معجم البلدان فى وضع دراسة منسقة عن ايران ، وقد أفادت المادة التى جمعها (دى مينار) فى نواح أخرى ، اذ كانت عوننا لمن قاموا بدراسة الحروب الصليبية ، ووضع فهرس منظم للموضوعات الأدبية الشعبية الفلكلورية (Folklore) كذلك قام (مدنيكوف) (١) Mednikov بتحليل عام لمعجم البلدان ، القاه فى محاضرة له ، ولكنها لم تطبع ، وقد تناول فيها

(١) (مدنيكوف) : هو نيقولاى ميدنيكوف ، مستشرق روسى ، كان أستاذا لكراتشكوفسكى (١٨٥٥ م - ١٩١٨) ، وقد ترجم وجمع وشرح اخبار جميع رجال التاريخ والجغرافية العربية القديمة عن (فلسطين) ، وأخرج ذلك فى كتاب ، يقع فى اربعة اجزاء كما الف كتابا كبيرا ضمنه الافعال العربية على نظام الجداول ♦

طريقة ياقوت في جمع ودراسة المصادر ، التي اعتمد عليها ، ومنهجه العلمى فى نقد النصوص ، التي أوردها فى معجم البلدان •

ويقول (نفيس أحمد) : ولقد قام ياقوت بدراسة متقنة لما سبق بين يديه من مؤلفات جغرافية ذات قيمة ، والحق أنه هادنا بإشاراته التي وردت فى ثنايا كلامه الى كتب متعددة ، لم يعد يتيسر الحصول عليها ، ويبدو استعماله المنهج النقدي ، الذى يأخذ به الجغرافى الحديث ، حين ينقد اشارات بطليموس الى مدن ومواقع من جزيرة العرب ، فيذكر ياقوت أنه قد فشل فى تحقيق كثير من الأماكن التي وردت فى كتابات بطليموس ، لأنها لم تعد بعد قائمة •

وسنشير الى ذلك بشيء من التفصيل حينما نتناول مقدمة ياقوت لكتابه (معجم البلدان) فى موضعها من هذا الكتاب •

وقد اعترف بأسبقية ياقوت وأصالته فى التأليف الجغرافى المستشرق الأمريكى (سارتون) فى كتابه (المدخل لتاريخ العلم) والمستشرق الفرنسى (كارادى فو) فى كتابه (مفكر الإسلام) •

٦ - العوامل التي ساعدت ياقوتا على التفوق فى وضع الموسوعات الجغرافية والأدبية •

أشرنا من قبل الى أن ياقوتا نشأ كغيره من علماء العرب

والمسلمين عالما موسوعيا ، بيد أن شهرته في تأليف الموسوعات الجغرافية والأدبية كانت تفوق شهرة غيره من علماء عصره ، ولذلك عوامل يمكن اجمالها فيما يأتي :

١ - قالوا ان الجفوة التي وقعت بينه وبين مولاه (عسكر بن أبي نصر الحموي) لأول مرة - كانت سببا في عكوفه على نسخ الكتب والاشتغال بالوراقة ، وياقوت وان كان قد قام بهذا العمل باعتباره وسيلة من وسائل كسب العيش والارتزاق - الا أنه قام به في الوقت نفسه تلبية لدوافع نفسية على درجة من القوة ، قد استولت عليه ، واستجابة لميول طبيعية ، سيطرت على تفكيره ، فتوفر على الاشتغال بعلوم الجغرافية ، وقد ساعده على ذلك رغبة ملحة في التحصيل والدراسة ♦

٢ - ثم قيامه بعمل عظيم كان ذا أثر قوى في اشباع دوافعه النفسية ، فانه لما توفي مولاه عسكر بن أبي نصر ، نال منه أموالا كثيرة ، فلم يجد وسيلة نافعة في رأيه ، وأجدى في تقديره ، لاستخدام هذا المال واثميره من الاتجار به في الكتب والمخطوطات ، فأدى ذلك الى نمو مكتبته وازدحامها بمختلف المراجع ، وعندئذ اتسعت أمامه مصادر المعرفة ومراجعها ، وهو الرجل الطلعة ، فقف منها ، وأروى غلته ، وبذلك ازداد علما وثقافة وقدرة على تأليف الموسوعات ♦

٣ - هذا بالاضافة الى كثرة أسفاره ورحلاته ، التي استغرقت

شطرا كبيرا من حياته ، مترددا أثناءها على كثير من البلدان ، والأقطار المتعددة ، وقد استغل هذه الرحلات في زيارة أكبر عدد ممكن من دور الكتب وخزائنها النفيسة والاطلاع على ما فيها من المراجع ، ونسخ ما فيها من كتب ، هذا الى أن هذه الرحلات قد هيأت له فرصة التعرف بنفسه على الأماكن والبقاع والبلدان ، التي مر بها ، أو أقام فيها .

٤ - وكان ياقوت بطبيعته محبا لاقتناء الكتب ، ولا شك أن هذا الحب كان نابعا من رغبة عارمة في القراءة والاطلاع ، ويقول ابن خلكان في نهاية ترجمته لياقوت : أنه وقف كتبه على مسجد الزيدى بدرب دينار بمدينة السلام (بغداد) ، وسلمها الى الشيخ عز الدين بن الأثير صاحب الكامل في التاريخ .

٥ - وفضلا عن أن ياقوتا كان عالما غزير المادة في ميدان العلوم الجغرافية - فقد كان الى جانب ذلك أديبا كبيرا ، ومؤرخ آداب ، برز في كتابة فن (تراجم الأشخاص) بوضعه موسوعته الثانية المشهورة ، وهي (معجم الأدباء) غير أن تراجمه الأدبية في هذا المعجم لم تسلم من بعض النقد ، مما سنشير اليه في موضعه عن هذه الموسوعة الأدبية الكبرى .

مؤلفاته الجغرافية والأدبية والتاريخية

جاء في تاريخ (اربيل) الذى عنى بجمعه أبو البركات بن المستوفى أن ياقوتا قدم (اربل) فى رجب سنة (٦١٧ هـ) وكان مقيما فى (خوارزم) ، وفارقها للواقعة التى جرت بين التتر والسلطان (محمود بن تكش خوارزم شاه) ، وكان قد تتبع التواريخ ، وصنف كتابا سماه (ارشاد الألباء الى معرفة الأدباء) يدخل فى أربعة جلود كبار .

ومن تصانيفه : معجم البلدان ، ومعجم الشعراء ، وكتاب (المشترك وضعا المختلف صقعا) ، وهو من الكتب النافعة ، وكتاب (المبدأ والمآل) فى التاريخ ، وكتاب « الدول » ، وكتاب (أخبار المتنبى) ، ومجموع كلام أبى على الفارسى ، و «المقتضب فى النسب» يذكر فيه أنساب العرب .

ويقول (كراتشكوفسكى) : ان ياقوتا وضع كتابين ، أتم طبعهما قبل أن يؤلف معجمه الكبير (معجم البلدان) وقد هبطت قيمتها العلمية بعد ظهور معجم البلدان ، ولكنه يناقض نفسه حين يقول ان أحد الكتابين وهو (المشترك وضعا المختلف صقعا) وضعه بعد المعجم ، ويزعم أنه قد استخرجه من المعجم ، ليكون أسهل عند المراجعة ، ولذلك كانت مادته مختصرة ، ووجه التناقض واضح فى كلام العلامة الروسى ، فقد ادعى أن كتاب (المشترك وضعا لمفترق

صقعا) ، وضع قبل المعجم الكبير ، ثم رجع وقال : انه وضع بعد المعجم ، وكان بمثابة مختصر له ، ولا يفوتنا أن نشير الى أن ياقوتا قد ذكر في مقدمة معجم البلدان - أنه ينفر من المختصرات ، ولا يؤمن بفائدتها ، ويطلب بألا يقدم أحد على اختصار معجمه ، فان ذلك يفقده قيمته العلمية ، وقد أجمع أكثر الباحثين على أن ياقوتا هو صاحب كتاب (المشترك وضعاً والمفترق صقعا) ، ولكن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون مختصراً ؛ لأنه شمل ألفاً وواحداً وتسعين اسماً ، عاجلت أربعة آلاف ومائتين وواحداً وستين موضعاً جغرافياً .

أما الكتاب الثاني فهو (مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع) ، ونلاحظ أن المستشرق الروسي كان مضطرباً في نسبته الى ياقوت ، فقد زعم بأنه من وضعه ، ثم عاد يتشكك ، ويقول : ان (وينبول) Juynboll طبع مسودة هذا الكتاب ، وهو موجز للمعجم الكبير ، وقد ألفه صفى الدين بن عبد الله المؤمن بن الحكم المتوفى سنة (٧٣٩ هـ - ١٣٣٧ م) ، ثم يقول : ان (رينيو) Reinaud عثر على ثلاث مسودات لهذا الكتاب ، وقد نسب الأولى الى ياقوت ، وان كانت لم تصل إلينا ، ولكنه يرتاب في قول (رينيو) بدعواه أن ياقوتا له موقف خاص من المختصرات ، فاذا وضعناه في اعتبارنا كانت نسبة هذا الكتاب اليه موضع شك كبير ، وأما المسودة الثانية فيرى (رينيو) أنها منسوبة الى صفى الدين ،

ثم ينسب الثالثة الى السيوطى ، والحقيقة التى لا تحتل شكا أن كتاب مرصد الاطلاع من وضع ياقوت ، وأن صفى الدين بن عبدالمؤمن هو الذى قام باختصاره •

ومع هذا فان ياقوتا لم يشتهر الا بمعجميه العظيمين : (معجم البلدان) و (معجم الأدباء) لأنهما من الموسوعات التى طارت شهرتها شرقا وغربا ، اذ هما حافظان بألوان من الثقافات الجغرافية والدينية والأدبية والتاريخية واللغوية ، وغيرها ، وانصافا لياقوت ، وتقديرا لمكانه بين الجغرافيين المسلمين - سأبدأ بدراسة (معجم البلدان) •



مقدمة (١) معجم البلدان

ان النسخة التى بأيدينا عنى بتصحيحها وترتيب وضعها ، وكتابة المستدرك عليها - محمد أمين الخانجى الكتبى ، وقد قرأها على الأستاذ الأديب النحوى والراوية الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطى ، نزىل القاهرة ، وتقع فى ثمانية أجزاء ، وقامت بطبعها مطبعة دار السعادة ، بجوار محافظة مصر (القديمة) ، وتقع فى ثمانية مجلدات ، وملحق بها مجلدان لمنجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان ، وهما يمثلان الجزأين التاسع والعاشر •

عرض وتحليل لمقدمة الكتاب

بدأ ياقوت كتابه (معجم البلدان) بمقدمة طويلة ، جرى فيها على مذهب السلف الصالح من علمائنا الأجلاء ، وهي تعطى فكرة واضحة عن أسباب وضعه ، والغرض من وضعه ، وتلقى ضوءاً على منهجه العلمى وطريقته فى البحث . وقد افتتحها بحمد الله تعالى والثناء عليه ، ونراه فى تحميده يبدو متأثراً الى حد كبير بموضوع كتابه فى الجغرافية ، وان كان قد تناول الى جانب ذلك فى معجمه هذا ضروباً أخرى من مختلف العلوم والفنون .

قال رحمه الله تعالى متحدثاً عن قدرة الله تعالى فى ابداع خلقه للأرض ، التى جعلها مهاداً وسكناً خلّقه :

الحمد لله الذى جعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ، وبث من ذلك نشوراً ووهاداً ، وصحارى وبلاداً ، ثم فجر خلال ذلك أنهاراً ، وأسال أودية وبحاراً ، وهدى عباده الى المساكن ، واحكام الأبنية والمواطن ، فشيّدوا البنيان ، وعمرّوا البلدان ، ونحتوا من الجبال بيوتاً ، واستنبطوا آباراً و (قلوتا) (١) وجعل حرصهم على ماشيّدوا ، واحكام ما بنوا وعمدوا - عبرة للغافلين ، وتبصرة للغابرين ، فقال وهو أصدق القائلين : « أفلم يسيروا فى الأرض

(١) القلوت اسم الجنس منه قلت بإسكان اللام ، وهو النقرة فى الجبل

تمسك الماء .

فينظروا كيف كان عاقبة ، الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وآثارا في الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، •

أحمده على ما أعطى ، وأنعم ، وهدى الى الرشـد ، وألهم ، وبين السداد وأفهم ، وصلى الله على خيرته من أنبيائه والمرسلين ، وصفوته من أصفائه الصالحين ، محمد المبعوث بالهدى والدين المبين ، •

واذا تأملنا هذا التحميد نرى ياقوتا يشير الى أن الله تعالى خلق الأرض ، وما فيها من جبال ووهاد وصحارى وبلاد ، وأنهار وبحار وأودية ، وأنه تعالى لحكمة يعلمها قد هدى الناس الى الاستقرار فى المدن ، ولا شك أن الاستقرار فى الأرض باتخاذ المساكن والأبنية للإقامة - كان أول مظهر من مظاهر الحياة الانسانية الراقية ، وكان الخطوة الأولى فى سبيل سير القافلة الانسانية فى معارج الرقى البشرى ، وينسب الى قدماء المصريين أنهم كانوا أول الأمم التى اهتمت الى ابتكار (القالـب) المصنوع من (اللبـن) الطين ؛ اذ كان هذا القالب هو الوحدة فى التشييد والبناء •

ويتخذ ياقوت من هداية الله تعالى لخلقه بتشيد المبانى واقامة المساكن ، والتنظيم الذى اتبعوه فى تعمير مساكنهم ثم ما حدث لهذه المبانى المشيدة من انهيار وخراب وفناء ، يسبب ظلم أهلها وضلالهم - عبرة للناس أجمعين ، فالله تعالى قد علم خلقه اتخاذ المساكن ،

لكى يقيموا فيها عمراناً ومدنية ، حتى يشعروا بأنهم يحيون حياة طيبة ، فاذا مافتنوا بالحياة الناعمة ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم •• أخذهم الله بذنوبهم ، وخرب بيوتهم بأيديهم ، وفى ذلك موطن العبرة فى سلوك الأمم الماضية التى ضلت سواء السبيل ، لكى يتعظ الآتون بعدهم •

ولذلك نرى ياقوتا يستدل بالآية الكريمة على أن الناس ينبغى عليهم أن يسيروا فى الأرض ، ليتأملوا ما كان عليه من قبلهم من الأمم ، حين بغوا وأفسدوا فى الأرض ، فأهلكهم الله تعالى ، وما أغنى عنهم ملكهم الكبير الذى أقاموه وشيدوه ، ويلاحظ أن الآية الشريفة قد ربطت بين الحث على الرحلة فى الأرض ، وتأمل ما كانت عليه الأمم السابقة ، ونستطيع أن نفهم من هذا أن ياقوتا جعل الهدف الدينى أول أهداف كتابه ، وهو الرحلة للدراسة والتأمل والعبرة والعظة •

موضوع الكتاب :

ثم يحدد ياقوت موضوع كتابه ، فيقول : « أما بعد فهذا كتاب فى أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان ، والبحار ، والأنهار ، والغدران ، والأصنام ، والأبداد (١) ، والأوثان •

(١) (والابداد) - واحده بد ، قال ابن دريد : الصنم نفسه الذى يعبد (فارسي) وجمعه بدده وابداد ، وقيل : البد : بيت الصنم والتساوير (مغرب)

وسنورد فيما بعد أمثلة ونماذج من هذا المعجم الكبير ، لتوضيح منهج ياقوت العلمى فى عرض ما تناوله من هذه الموضوعات التى أشار اليها ♦

الدوافع النفسية التى حملته على تأليف كتابه :

يوضح لنا ياقوت هذه الدوافع فى قوله : « ولم أقصد بتأليفه ، وأصمد ، لتصنيفه لها ولا لعبا ، ولا رغبة حثتى اليه ولا رهبا ، ولاحينا استفزنى الى وطن ، ولا طربا حفزنى الى ذى ود وسكن ، ولكن رأيت التصدى له واجبا ، والانتداب له مع المقدرة عليه فرضا لازبا - أوقفنى عليه العزيز الكريم ، وهدانى اليه النبأ العظيم ، وهو قوله عز وجل حين أراد أن يعرف عباده آياته ومثلاته ، ويقيم الحجة عليهم فى انزاله بهم أليم نقماته : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ،

فهذا تقرير لمن سار فى بلاده ولم يعتبر ، ونظر الى القرون الخالية فلم ينزجر ، وقال وهو أصدق القائلين : قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ♦ أى انظروا الى ديلاهم كيف درست ، والى آثارهم وأنوارهم كيف انطمست ، عقوبة لهم على اطراح أوامره ، وارتكاب زواجره ، الى غير ذلك من الآيات المحكمة والزواجر المبرمة ♦

ثم يقول : وقد ورد في الأثر عن السادات ممن غبر قال
عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا محل مثلة ومنزل نقلة ، فكونوا
فيها سياحين واعتبروا ببقية آثار الأولين •

وقال قس بن ساعدة الايادي ، الذي حكم له النبي صلى الله
عليه وعلى آله وسلم أنه يبعث أمة واحدة : « أبلغ العظات السير
في الفلوات ، والنظر الى محل الأموات » • وقد مدح الشعراء
الحلفاء والملوك والأمراء بالسير في البلاد وركوب الحزن والوهاد
فوجب علينا لذلك اعلام المسلمين بما علمناه ، وارفادهم بما أفادنا
الله بفضلهم فأتقناهم ؛ اذ كان الافتقار الى هذا الشأن يشترك فيه كل
من ضرب في العلم بسهم ، أو اختص منه بنصيب أو قسم ، أو
اتسم منه باسم ، أو ارتسم بفرن أو رسم » •

وفيما يقوله ياقوت تفسير واضح للدوافع التي أثارت في نفسه
القيام بوضع هذا المعجم الكبير ، ولكنه يحرص أولا على أن ينفي
عن نفسه أنه قام بذلك اشباعا لرغبة ذاتية ، أو ابتغاء قربة من أحد ،
وانما انتدبه الى تأليف هذا المعجم ما كان يحسه في قرارة نفسه ،
من أن الواجب الذي دفعه الى تأليفه - يتمثل في دينه القويم
وقرآن ربه الكريم ؛ لذلك قام بهذا العمل استجابة لما يدعو اليه
القرآن الكريم من السير في الأرض ، للعلم والمعرفة والعظة
والعبرة ؛ لأن في ذلك زجرا للنفس وتهذيبا لها ، ودعوة الى العمل
بكتاب الله الكريم ، ويؤيد قوله بما روى عن عيسى (عليه السلام) ،

وبما نسب الى (قس بن ساعدة الايادى) ، وبما قاله بعض الشعراء •

ومن هنا يتضح للباحث أن ياقوتا ربط بين البحث الجغرافى والقرآن الكريم ، والخبر المأثور ، وشعر الشعراء ، وحاول جاهدا أن يثبت أن القرآن يدعو اليه ، ويحث على طلبه ؛ لما فى ذلك من التعرف على الديار والأماكن والبقاع وصلتها بالأمم الماضية، وماتوا الى على كل من أحداث ، وفى هذا تصوير للعقلية العربية ، التى تتميز بالربط بين الحقائق المتشابهة ، واستقطاع المعرفة عن طريق الملاحظة والمشاهدة والاستقراء والبحث والتجربة ، وكل ذلك تهيئه الرحلة فى مناكب الأرض •

وفى مناهج التربية الحديثة ما يؤيد أن الرحلة من أحدث الأساليب التربوية فى تحصيل الخبرة المباشرة ، والحقائق العلمية على الطبيعة ، ولا ريب أن ياقوتا ، وهو يدعو الى الرحلة للمدرسة، يضع مبدأ جديدا فى الثقافة العربية الاسلامية ، هذا المبدأ وهو الرحلة لتحصيل الخبرة من أهم مبادئ التربية التقدمية فى عصرنا الحاضر •

ونخرج من هذا بأن الدافع الدينى هو الذى حمل ياقوتا على وضع كتابه (معجم البلدان) ، ويزيد ياقوت هذا الدافع وضوحا فيما بعد •

أهمية علم الجغرافية فى الحياة

ثم يشير ياقوت الى أن العلم بما فى الأرض من بلاد وحزون ووهاد - يشترك فيه العالم وغيره ، استكمالا للحياة فى الأرض ، وفى هذه الاشارة بيان لأهمية علم الجغرافية فى حياتنا ، وضرورته للناس على اختلاف درجاتهم ، اذ لا تكمل حياتهم الا بمعرفته ، وتطبيقاته ، ولعل هذا هو الذى دفع أبناء الأمم الغربية من شيوخ وشبان الى الرحلة فى الأرض ، وركوب المغامرات فى سبيل التعرف على أجزاء العالم شرقه وغربه ، ومعرفة طبيعة أرضها وأهلها وعامرها وغامرها ، فى حين أن المسلمين والعرب قد نسوا ما يأمرهم به دينهم ♦

ويحرص ياقوت على تطبيق المناهج السليمة فى البحث ، مثله فى ذلك مثل غيره من علماء المسلمين ، لا يتعرض الى معلومة ما الا اذا سلط عليها أشعة قوية من الفحص الدقيق تكشفها وتوضحها ، وتنزيل ما يحيط بها من لبس أو غموض ، وتبرز أهميتها من الناحية العملية ؛ لذلك يقول : فانى رأيت نقلة الأخبار وأعيان رواة الأسفار والآثار ، من غنى بها دهره ، وأنفذ فيها غرضه وعمره ، مع شدة حاجتهم اليها - أثناء رواية الأخبار ؛ لذلك نراهم عندما يمر ذكر بقعة من الأرض ، أو بيان وقعة وقعت ، يختلط عليهم الأمر ، وحالهم اما أن يكونوا غالطين أو مغالطين ، ♦

ثم يقول : « وقلما رأيت الكتب المتقنة الخط ، المحتاط لها

بالضبط والنقط - الا وأسماء البقاع فيها مهمة أو محرفة ، وعن
محجة الصواب منعطفة أو منحرفة ، قد أهملها كاتبها جهلا ،
وصورها على التوهم نقلا ، وكم من امام جليل ، ووجه من الأعيان
نبيل ، وأمير كبير ، ووزير خطير - ينسب الى مكان مجهول
فاذا سئل أهل المعارف أخذوا بالنصف الأرذل من العلم ، وهو
« لا أدري » وبشت الخطة للرجل العاقل لاغفالهم عن هذا
الفن من العلم الخطير مع جلالته ، واعراضهم عن هذا القصد الكبير
مع فخامته ، ومن ذا الذي يستغنى من أولى البصائر عن معرفة
أسماء الأماكن وتصحيحها ، وضبط أصقاعها وتنقيحها ، والناس في
الافتقار الى علمها سواسية » ♦

فياقوت يأخذ على غيره ممن سلف اهمالهم لعلوم الجغرافية ،
ويضرب مثالا لذلك ببعض الكتب التي بولغ في اتقان خطها
وضبطها ، ولكنها مع ذلك لم تسلم من التحريف في أسماء البقاع ،
التي وردت بها ، ولا شك فيما في ذلك من اضعاف لقيمتها العلمية
وبخاصة اذا ورد فيها اسم عالم جليل ، أو امام له خطره بين
الناس ، أو عظيم ذو سلطان ، ثم نجد هؤلاء الأعلام ينسبون الى
أمكنة مجهولة ، فاذا سئل المختصون من العلماء عن ذلك - أجابوا
بما يسميه ياقوت « النصف الأرذل من العلم » وهو لا ندري ♦

فمثل هذا المنهج في التأليف العلمي في نظر ياقوت غير لائق

بأهل الفضل من العلماء ، الذين يهملون في كتبهم تحديد الأماكن والأصقاع وضبط أسمائها ضبطا دقيقا .

وواضح من كلام ياقوت أنه يشير الى أهمية علم الجغرافية الوصفية ، وأنه من الضروري أن توجه عناية شديدة الى التعريف بالأماكن والبقاع تعريفا موضوعيا ، يقوم على الدقة في الرواية ، والوصف المبني على استقصاء الحقائق وتمحيصها ، والمشاهدة الفاحصة ، والنقل عن الثقات .

ولا يلبث ياقوت حتى يزيد الحاجة الى علوم الجغرافية وضوحا بقوله :

« لأن هذه الأماكن ما هي الا مواقيت للحج والزائرين ، ومعالم الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم أجمعين - ومشاهد للأولياء الصالحين ، ومواطن غزوات وسرايا سيد المرسلين ، وفتوح الأئمة من الخلفاء الراشدين ، وقد فتحت هذه الأماكن صلحا وعتوة وأمانا وقوة ، ولكل من ذلك حكم في الشريعة في قسمة الفئ (١) وأخذ الجزية (٢) ، وتناول الخراج (٣) لا يسع الفقهاء جهلها ،

(١) (الفئ) ما بعد الزوال من الظل ، سمي فيثا لرجوعه من جانب الى جانب ، وقال ابن السكيت : الظل ما نسخته الشمس والفئ ما نسخ الشمس والفئ هو الخراج .

(٢) (الجزية) ما يؤخذ من أهل الذمة ، وهم المعاصرون من النصارى وغيرهم ممن يقيم في دار الاسلام .

(٣) (الخراج) مثلثة الخاء الاتاة وأصله ما يخرج من غلة الارض والمال ، وهو المال المضروب على الارض .

ولا تعذر الأئمة والأمراء اذا فاتهم فى طريق العلم حزنها وسهلها ؛
لأنها لوازم فتيا الدين ، وضبط قواعد الاسلام والمسلمين » •

وفى العبارة السابقة نرى ياقوتا ما يزال شديد الحرص على
توضيح أهمية علوم الجغرافية ، فيجلو لنا أهمية جديدة لها فى ميدان
حياتنا الدينية ، وهى أنها شديدة الارتباط بأحكام الفقه الاسلامى ،
والفتاوى الدينية ، وضوابط قواعد الدين ، مما يكشف أمام
الباحثين أن الجغرافية عند المسلمين من العلوم الخادمة لقضايا
الشريعة والفقه والأحكام الدينية ، ويبين أن القرآن الكريم كان
من أقوى البواعث والدوافع التى حملت المسلمين على الاشتغال
بالعلوم الدينية وغيرها من العلوم الدنيوية ، التى تتصل بالدين من
ناحية ، وتساعد على وضوح المعرفة الدينية ، والقاء ضوء ساطع على
قضاياها من ناحية أخرى •

ولا يكتفى بهذا القدر من الاحتجاج لمزايا هذه العلوم ،
فيضيف الى ما تقدم أهمية أخرى ، وهى حاجة أهل السير والأخبار
والحكمة والتنجيم إليها •

**حاجة أهل السير والأخبار والحكمة والتنجيم الى علوم
الجغرافية :**

يقول ياقوت : « فأما أهل السير والأخبار والحديث والتواريخ
والآثار فحاجتهم الى معرفتها أمس من حاجة الرياض الى القطار
غيب اخلاف الأنواء ، والمشفى الى العافية بعد يأس من الشفاء ، لأنها

معتمد علمهم ، الذى قل أن تخلو منه صفحة بل سطر من كتبهم » .
وأما أهل الحكمة والتفهيم والتطبيب والتنجيم فلا تقصر حاجتهم الى معرفتها عن قدمنا ، فالأطباء لمعرفة أمزجة البلدان وأهوائها ، والمنجم للاطلاع على مطالع النجوم وأنوائها ؛ اذ كانوا لا يحكمون على البلاد الا بطوالعها ، ولا يقضون لها أو عليها بدون معرفة أقاليمها ومواقعها ، ومن كمال المتطبب أن يتطلع الى معرفة مزاجها وهوائها أو سقم منبتها ومائها ، فصارت حاجتهم الى ضبطها ضرورية ، وكشفهم عن حقائقها فلسفية » .

لذلك صنف كثير من القدماء كتباً سموها (جغرافية) ، ومعناها صورة الأرض ، وألف آخرون كتباً فى أمزجة البلدان وأهوائها مثل (أبقرات) ، و (جالنيوس) وغيرهما » .

ونرى ياقوتا بعد أن أفاض فى توضيح حاجة الأطباء والحكماء والمنجمين الى علوم الجغرافية - ينتقل الى بيان ضرورتها الى أهل الأدب أيضا .

حاجة أهل الأدب الى علوم الجغرافية

يقول ياقوت : « وأما أهل الأدب فناهيك بحاجتهم اليها ، لأنها من ضوابط اللغوى ولوازمه ، وشواهد النحوى ودعائمه ويعتمد الشاعر فى تحلية جيد شعره بذكرها ، وتزيين عقود لآلى نظمه بشذرها ، فان الشعر لا يروى ، ونفس السامع لا تشوق

حتى يذكر حاجر وزرود والدهناء وهبود ، ويتحنن الى رمال
رضوى ، فيلزمه تصحيح الاسم وأين صقعه ؟ وما اشتقاقه ونزهته
وقفره وحزنه وسهولته ؟ فانه ان زعم أنه واد ، وكان جبلا ، أو
جبل وكان صحراء ، أو صحراء وكان نهرا ، أو نهر وكان قرية ،
أو قرية وكان شعبا سفّل قدره ، ونزر كثره ، وأمن ضحكه
وجعل هزأة ، واستقل فضله ، واستجهل ، فقد ذكر بعض العلماء
أنهم استدلوا على أن هذا البيت •

إِن بِالشَّعْبِ الذِّى دُونَ سِلْعٍ لِّقَتِيلَا دُمُهُ مَا يُطَلُّ (١)
ليس من شعر (تأبط شرا) - بأن سلعا ليس من دونه شعب
لقد أبدع ياقوت فى تصوير حاجة رجال الأدب الى الجغرافية ،
وان فيما ذكره بالنسبة لهم يجعلنا نقف وقفة قصيرة امام كلامه
للاشادة بهذا العلامة الجغرافى الأديب ، الذى أشار منذ قرون الى
أحدث نظرية فى دراسة (النصوص الأدبية) وتقوم هذه النظرية
على أساس وجود علاقة قوية بين أسماء الأماكن والبقاع والانتاج
الأدبى ، وبخاصة الشعر الجاهلى ، فنقاد الأدب فى عصرنا يرون أن
العلم بأسماء الأماكن وتحديد مواقعها ، والظروف التى ربطت بين

(١) (الشعب) : الطريق فى الجبل ، والسلع بالكسر : الشق فى
الجبل ، وبالفتح : اسم مدينة ، قيل هى مدينة الانباط ، ويسمىها (بطرا)
او (بئرا) بالطاء والتاء ، وهو اسمها اليونانى ، واطلاها الى الان بوادى
موسى وتعرف باسم (حصن سلع) ، كانت مدينة عامرة ، لها شهرة أيام
الرومان ، وملوكها من قضاة .

الأديب وهذه الأماكن - تلقى ضوءاً ساطعاً على النص الأدبي ،
وتساعد على شرحه شرحاً دقيقاً ، ولقد كان شعراؤنا الأقدمون يتغنون
بهذه الأماكن ، ويزينون بها شعرهم ، لاثارة العواطف
والأشجان بذكرها ؛ لأنهم فيها التقوا بعزيز ، أو ارتبطوا بحبيب ،
لذلك كان من الضروري لنقاد الأدب ، وشرح نصوصه القديمة
والحديثة - أن يتعرفوا على هذه الأماكن تعرفاً دقيقاً ، بالاطلاع على
المراجع المعروفة بدقتها • وهذه اللفتة التي استنبطناها من كلام
ياقوت ، فيها دلالة واضحة على أن هذا الرحالة الجغرافي كان ذا
حس أدبي ، وتبصر بالمناهج الأدبية السليمة ، ولهذا نراه يطلب
الأدباء بأن يكونوا على علم بضبط الأماكن وتحديد مواقعها بكل
دقة ، لما لها من صلة قوية بالدوافع التي تثير العاطفة ، وتحرك
الشاعرية ، ولأن الانتاج الأدبي ، وبخاصة في العصر الجاهلي - قد
كان أكثره بوحى منها ، ولا شك أن في الجهل بوصف هذه البقاع ،
والارتباطات التي بينها وبين الأدباء - خطأ لقيمة الفن الأدبي ،
والأديب الذي لا يعرفها يكون موضع السخرية ، ومما يزيد من
أهمية العلم بها أنها تساعد على تمييز الانتاج الأدبي ، ونسبته الى
صاحبه •

أغاليط القدماء في ذكر الأماكن والبقاع

ثم يحاول ياقوت أن يؤيد ما ذهب اليه من ضرورة حاجة
الأدباء الى علوم الجغرافية بمثال حي واقعي ؛ ليزيد رأيه وضوحاً ،

وقوة ، فيقول : « وقد صنف في عصرنا هذا امام من أهل الأدب
جليل ، وشيخ يعتمد عليه ، ويرجع اليه في حل المشكلات الكلامية
- يقصد أحد الشراح الذين قاموا بشرح مقامات محمد القاسم
ابن علي بن محمد الحريري - ثم يصفه بقوله : فطبق مفصل
الاصابة في شرح أفانين ضروبها ، وغبر في كل وجه كل من فرغ
باله لايضاح مشكلها وغريبها ، فانه بهر العقول ، وأدهش الأذهان
بما ذكره من أسرار بلاغتها ، وأظهره من مخزون براعتها ،
وأوضحه من مكنون معانيها ، وأبانه من فتق الألفاظ التي فيها ،
وأورده من الأشباه والنظائر والعيون النواظر ... وسارت النسخ
في الآفاق ... فلم يقدم مقدام متعنت ، ولا هجم مهجم متبكت
على مؤاخذته بشيء مما فيه ، حتى ذكر أسماء الأماكن ، التي أسس
عليها أبو محمد المقامات - فانت سلك در عقد لآليه ، وتداعى
ما شيده فضله من مبانيه ، وعاد روضه الأريض مصوحاً ، وقريب
احسانه مطوحاً ... وأخذ يخلط تارة ويخلط ، ويتعثر في عشواء
الجهالة ويخبط ، فانه قال في المقامة (الكرجية) :

وكرج بلدة بين (همدان) و (أذربيجان) ، وانما هي بين
(همدان) و (أصفهان) •

وقال في المقامة (البرقعيدية) : وبرقعيد قصبة الجزيرة ، وانما
هي قرية من قرى ... الموصل ، لا تبلغ أن تكون مدينة فكيف
تكون قصبة ، وقال في (التبريزية) : وتبريز من عواصم الشام ،

بينها وبين مبنج عشرون فرسخا ، وتبريز بلدة أشهر وأظهر من أن تخفى ، وهى اليوم قصبة نواحى (أذربيجان) وأجل مدنها ، الى غير ذلك من أغاليط ، فلو كان له كتاب يرجع اليه ، وموئل يعتمد عليه لخلص من هذه البلية نجيا » ♦

ولا شك أن فيما ذكره ياقوت توضيحا لأغلاط الأدباء والنقاد، حين يتعرضون لشرح النصوص الأدبية ، فشارح مقامات الحريري بالرغم من قدرته اللغوية والأدبية - وقع فيما وقع فيه من أخطاء - قللت من قيمة مادته اللغوية والأدبية ؛ لأنه لم يجد مرجعا يعتمد عليه فى تحديد مواقع الأماكن ، التى ذكرها الحريري ، ومن هنا تتضح العلاقة التى بين علوم الجغرافية والأدب ، وحينما ترتبط الثقافة الأدبية بالأماكن والبقاع - فلا بد للأديب أو الناقد من الرجوع الى كتب الجغرافية ، التى تعنى كل العناية بضبط أسماء المواقع ، وتحديد مواضعها تحديدا دقيقا على سطح الأرض ♦

السبب المباشر فى وضع معجم البلدان

يقول ياقوت : وكان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب أننى سئلت (بمرؤ الشاهجان) سنة خمس عشرة وستمائة فى مجلس شيخنا الامام السعيد الشهيد (فخر الدين أبى المظفر عبد الرحيم ابن الامام الحافظ تاج الاسلام أبى سعد عبد الكريم السمعاني) عن (حباشة) اسم موضع ، جاء فى الحديث النبوى ، وهو سوق من أسواق العرب فى الجاهلية ، فقلت : (حباشة) بضم الحاء ،

قياسا على أصل هذه اللفظة فى اللغة ، لأن الجباشة : الجماعة من الناس من قبائل شتى ، وحبشت له جباشة : جمعت له شيئا ، فأنبرى رجل من المحدثين وقال : إنما هى جباشة بالفتح ، وصمم على ذلك ، وجاهر فى العناد بغير حجة ، وناظر ، فأردت قطع الاحتجاج بالنقل ؛ إذ لا معول فى مثل هذا على اشتقاق ولا عقل •

كانت هذه المناقشة بين ياقوت والرجل المحدث ، الذى تعصب لرأيه - السبب المباشر ، الذى جعله يعكف على الاطلاع على غرائب الكتب والمراجع ، ودواوين اللغات ، ومن ثم شرع يضع كتابه (معجم البلدان) ، ويحتج لذلك بقوله : فألقى حينئذ فى روعى افتقار العالم الى كتاب فى هذا الشأن مضبوطا ، وبالاتقان وتصحيح الأغلاط بالتقييد مخطوطا ، ليكون فى مثل هذه الظلمة هاديا ، والى ضوء الصواب داعيا ، ونبهت على هذه الفضيلة النبيلة ، وشرح صدرى لنيل هذه المنقبة الجليلة ، التى غفل عنها الأولون ، ولم يهتد لها الغابرون ، وما أحسن ما قال أبو عثمان : ليس أضر على العلم من قولهم : لم يترك الأول للآخر شيئا ، فانه يفتر الهمة ، ويضعف المنة •

فى العبارة السابقة يتحدث ياقوت عن الطريقة التى سيسلكها فى وضع كتابه ، ثم يشير فى الوقت نفسه الى مبدأ جديد فى التأليف والبحث العلمى ، يعزوه الى أبى عثمان الجاحظ ، ويتلخص فى ان أبا عثمان ينكر على من يزعمون أن الأول من العلماء لم يترك لمن

يأتى بعده شيئاً ، لأن هذا الزعم فى رأيه زعم فاسد ؛ اذ هو ضار بتقدم العلم والابتكار فى أساليب البحث وتجميد العلم ووقف تياره ، وياقوت يسجل رأى أبى عثمان مؤيدا له ، لأنه اذا صح أن الأول لم يترك للآخر شيئاً ، فان ذلك يدعو ولا شك الى فتور الهمم وضعف العزائم فى ميدان العلم ومجالات البحث ، وهذا مما يصيب العلم بضرر بالغ ؛ اذ العلم بطبيعته نام ومتطور • ومن خلال هذه الاشارة يتضح لنا مدى ما كان لعلماء العرب والمسلمين من طاقات ذهنية وعلمية ، وقدرة على النقد البناء وتزييف كل ما يقف فى سبيل انحراف البحث العلمى عن طريقه السليم •

ونلاحظ أن ياقوتا - فى كل موضع من مقدمته - يدعو دائما الى استخدام المناهج السليمة فى الدراسة والبحث ، وابرار الحقائق العلمية الجغرافية فى صور مضيئة ، لا يحجبها الخلط والاضطراب والخطأ فى الضبط ، حتى تكون بريئة مما يشوبها من أغلاط •

العلماء الذين صنفوا فى علوم الجغرافية

ثم يتحدث فى المام ودقة عن المتقدمين من الجغرافيين ، الذين ألفوا كتباً فى هذا الميدان العلمى ، فيقول :

على أنه قد صنف المتقدمون فى أسماء الأماكن كتباً ، وبهم

-ينا ، وبهم اهتدينا ، وهى صنفان :

١ - منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة ، والبلدان المسكونة المشهورة •

٢ - ومنها ما قصد به ذكر البوادي والقفار ، واقتصر على منازل العرب الواردة في أخبارهم والأشعار •

فأما من قصد ذكر العمران فجماعة وافرة : منهم القدماء والفلاسفة والحكماء ، كأفلاطن ، وفيثاغورث وبطليموس ، وغيرهم كثير من هذه الطبقة ، وسموا كتبهم في ذلك جغرافية ، سمعت من يقوله بالغين المعجمة والمهملة ، ومعناه صورة الأرض ، وقد وقفت لهم منها على تصانيف عدة ، جهلت أكثر الأماكن التي ذكرت فيها ، وأبهم علينا أمرها •••

وطبقة أخرى اسلاميون سلكوا قريبا من طريقة أولئك من ذكر البلاد والممالك ، وعينوا مسافة الطرق والمسالك ، وهم (ابن خرداذبة) ، و (أحمد بن واضح) ، و (الجيهاني) ، و (ابن الفقيه) ، و (أبو زيد البلخي) ، و (أبو اسحق الاصطخرى) ، و (ابن حوقل) ، و (أبو عبدالله البشاري) ، و (الحسن بن محمد المهلبى) ، و (ابن أبي عون البغدادي) ، و (أبو عبيد البكري) ، وله كتاب سماه (المسالك والممالك) •

وأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية - فطبقة أهل الأدب ، وهم أبو سعيد الأصبغى ، ظفرت به راوية لابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه ، وأبو عبيد السكوني ،

والحسن بن أحمد الهمداني وله كتاب جزيرة العرب • وأبو
الأشعث الكندي ، وله كتاب في جبال (تهامة) وأبو سعيد السيراني ،
وبلغني أن له كتابا في جزيرة العرب ، وأما محمد الأسود
الغندجاني ، فله كتاب في مياه العرب ، وأبو زياد الكلابي ذكر في
نوادره قدرا صالحا وقفت على أكثره ، ومحمد بن ادريس بن أبي
حفصة وقفت له على كتاب سماه : (مناهل العرب) ، وهشام بن
محمد الكلبى وقفت له على كتاب سماه : (اشتقاق البلدان) ،
وأبو القاسم الزمخشري له كتاب لطيف في ذلك ، وأبو الحسن
العمراني تلميذ الزمخشري وقفت له على كتاب شيخه ، وزاد عليه
رأيه ، وأبو عبيد البكري الأندلسي له كتاب (معجم ما استعجم
من أسماء البقاع) لم أره بعد البحث والتطلب له ، وأبو بكر محمد
ابن موسى الحازمي له كتاب (ما اختلف واثلف) ، ثم وقفت
صديقا الحافظ الامام أبو عبدالله محمد بن محمود النجار ، جزاه
الله خيرا على مختصر اختصره الحافظ أبو موسى محمد بن عمر
الأصفهاني ، من كتاب ألفه الامام أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن
السكندري : فيما اختلف واثلف من أسماء البقاع - فوجدته تأليف
رجل ضابط ، فقد أنفذ في تحصيله عمرا ، وأحسن فيه عينا
وأثرا ، ووجدت الحازمي رحمه الله - قد اختلسه وادعاه ،
واستجمل الرواة فرواه ، ولقد كنت عند وقوفي على كتابه
أرفع قدره من علمه ، وأرى أن مرماه يقصر عن سهمه ، الى أن
كشف الله خبيثته ، وتمحض المحض عن زبدته ، فأما أنا فكل

ما نقلته عن كتاب (نصر) قد نسبته اليه ، وأحلتة عليه ، ولم أضع
نصبه ، ولا أخملت ذكره وتعبه ، والله يشبه ويرحمه . •

الحياة فى المدن المعمورة

قسم ياقوت المؤلفين فى الجغرافية قسمين ، فالقسم الأول :
ينسب اليه تأليف الكتب التى تتحدث عن المدن المعمورة والبلاد
المسكونة المشهورة ، ويمثل هذا القسم فى رأيه الحكماء والفلاسفة ،
ويذكر منهم (أفلاطن) ، و (فيثاغورث) ، وإذا كان ياقوت يقصد
من ذكر (أفلاطن) الفيلسوف اليونانى العظيم (أفلاطون) - فقد
تحدث هذا الفيلسوف عن المدينة الفاضلة ، وله فى ذلك كتاب
(الجمهورية) •

ومن آرائه فى هذا الكتاب أن الغرض من اجتماع الناس
فى المدينة - هو أن يعملوا بأنفسهم على الوصول الى السعادة والخير
ولكن كيف يصلون الى هذه الغاية ، ويحققون ذلك الغرض
اجتماعهم ؟ هنا نرى أفلاطون يتبرع برسم الطريق لهم ، وله
طريق مملوء بالأشواك ، مفعم بألوان من الانحراف ؛ لأن أفلاطون
عندما ربط بين مذهبه الحلقى ومذهبه فى السياسة زعم أن طبقة
الفلاحين والعمال وأصحاب الحرف المادية - ينتمون الى القوة
الشهوية ؛ ولذلك أنزلهم منزلة أدنى من غيرهم ، من أهل المدينة
الفاضلة ، غير أنه يقال ان أفلاطون رجع فعدل عن هذا رأى
الجائر فى كتابه (القوانين) فيما بعد • لا شك أن هؤلاء الفلاسفة

والحكماء بطبيعة تكوينهم الفكرى والفلسفى يعنون بالحديث عن مقومات وخصائص المدينة الفاضلة لأن الحديث عن المدن المعمورة يدعو دائما الى الحديث عن أهل هذه المدن ، وكيفية سياسة أمورهم فى مدينتهم ، كى تستقيم حياتهم وينعموا بمجتمع الرفاهية ، الذى تتحقق لهم فيه أسباب الحياة السعيدة •

العلاقة بين الأمكنة (البيئة) والانتاج الأدبى

وأما الحديث عن البوادر والقفار ومنازل العرب فى الصحراء فينسب الى القسم الثانى من المؤلفين ، وهو يمثل رجال الأدب وقد تبين من قبل أن هناك صلة وثيقة بين هذه المنازل والآثار الأدبية ، والانتاج الذى ينتجه الأديب ؛ لذلك كان من واجب الجغرافيين الأدباء أن يبذلوا كل طاقتهم الفنية فى وضع كتبهم ، التى تتحدث عن هذه المنازل ، وتلك البوادر والقفار حديثا واعيا ، يوضح معالمها على نمط دقيق •

كذلك أشار ياقوت من قبل الى أهمية علوم الجغرافية ، بالنسبة للأدباء ، لأنها توقفهم على الأماكن والآثار الباقية والمواطن المختلفة فهذه وتلك من أهم الدوافع التى تثير الشاعرية ، وتنشئ فى النفوس الحاجة الملحة الى القول تعبيرا عن الأشجان وترويحاً للنفوس ، التى ألح عليها الحنين الى تلك المنازل ؛ ذلك لأن حياة العرب فى البادية تقوم على الحل والترحال ، والسفر والاقامة ، تبعا لمنابت الكلاء ، ومساقط الغيث ، وبسبب ذلك علقت نفوسهم

بالذكريات ، التى تثيرها فيهم هذه المنازل ، حينما يمرون بها أو يذكرونها ، ويطيل ياقوت الحديث عن الأدباء الذين ألفوا فى الجغرافية ، ويبدى أسفه لأن كتاب أبى عبيد البكرى الأندلسى لم يقع فى يده كذلك يثير كلام ياقوت فى نفوسنا تلك الأمانة العلمية ، التى هى صفة علماء العرب والمسلمين جميعا ، وان خرج على ذلك القليل منهم ، ممن نبه عليهم ، ولا يكادون يذكرون ، ويهتم بالإشارة الى كتب الذين سبقوه فى التأليف الجغرافى ، ويبين مدى ما كان لبعض هذه المراجع من أثر فى نفسه وما أفاده منها ، ويتجه باللوم العنيف الى الحازمى ، ويقسو عليه ؛ لأنه اختلس كتاب أبى نصر لنفسه ، وبذلك يضرب ياقوت المثل الرائع فى الأمانة العلمية والصدق فى النقل حين يقول : وما نقلته عنه - يقصد أستاذه أبا نصر - نسبته اليه وأجلته عليه •

ونلاحظ أن الأمانة العلمية ، والتماس المراجع القديمة للسلف من العلماء عنصران هاما يدخلان فى منهج ياقوت العلمى ، بيد أنه لم يقتصر على المصادر والمراجع الجغرافية وحدها ، فقد وجد أن هناك ينابيع أخرى لها أهميتها فى موضوع كتابه ولذلك أخذ يطلبها استكمالا للبحث واتماما للفائدة ، يقول : « وهذه الكتب المدونة فى هذا الباب التى نقلت منها ، ثم نقلت من دواوين العرب القدماء والمحدثين ، وتواريخ أهل الأدب والمحدثين ، ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهده فى أسفارى ، وحصلته فى تطوافى أضعاف ذلك ، والله الموفق ان شاء الله » •

ياقوت ينقد كتب الطبقتين :

يقول : ان كتب الطبقة الأولى من الحكماء والفلاسفة ترد فيها أسماء الأماكن مصحفة مغيرة ، بسبب تخليط النساخ ، وعدم دقتهم ، وأما كتب الطبقة الثانية وان كانت تتميز بأصولها المضبوطة ، فانها فى الوقت نفسه تشوبها بعض العيوب ، التى منها عدم الترتيب وشدة الاختصار ، وأن مؤلفيها ركزوا على تصحيح الألفاظ ، وأهملوا ما عدا ذلك من أغراض هامة ، ويعبر عن ذلك بعباراته التى يقول فيها : « فأما الطبقة الأولى فأسماء الأماكن فى كتبهم مصحفة مغيرة ، وفى حيز العدم مصيرة ، قد مسخها من نسخها ، وأما الطبقة الثانية فانها وان وجدت لها أصول مضبوطة ، وبخطوط العلماء منوطة مربوطة ، فانها غير مرتبة ، ولشفاء الغليل غير مسبية ، لشدة الاختصار وعدم الضبط والانتساب لأن قصدهم منها تصحيح الألفاظ لا الابانة عما عدا ذلك من الأغراض ، والبحث عما يعترض فيها من الأعراض » ♦

وياقوت يمهّد بهذا النقد الى المنهج الذى رسمه لكتابه ، فهو لا يرتضى كتب الطبقة الأولى ؛ لأنها انحرفت عن هدف هام يسعى اليه ، وهو الدقة فى ضبط أسماء الأماكن ، ولا يرتضى كتب الطبقة الثانية ؛ لأنها وان تميزت بأصولها المضبوطة - فانها أغفلت أسسا لها أهميتها فى نظره ، ومنها عدم الترتيب ، وشدة الاختصار والتركيز على تصحيح الألفاظ مع أهمال أغراض أخرى ، لها

قيمتها العلمية • وفى ضوء هذا النقد نراه يحدد الأسس السليمة ،
التي يقوم عليها منهجه فى تأليف موسوعته الجغرافية فيما يلى :

الأسس السليمة التي ارتضاها لتأليف معجمه :

يبدأ ياقوت فى وضع التخطيط الدقيق للأسس التي سيلتزمها
فى تأليف موسوعته ، وتتلخص فى المبادئ الآتية :

١ - ضبط ما شتته ، واشتبّه فيه العلماء السابقون ، مع اضافة
ما أهملوه من أسماء البلدان •

٢ - ترتيب أسماء البلدان بحسب حروف المعجم ، لأن ذلك
يساعد على التنسيق فى عرض أسماء الأماكن وعلى الإحاطة
والاستيعاب •

٣ - العناية بضبط الأسماء على طريقة أهل اللغة المحققين ،
وذكر اشتقاقها ان كانت عربية ، ومعناها ان كانت أعجمية •

٤ - بيان الأقاليم التي تقع فيها هذه البلدان والأماكن وطالعها،
والمستولى عليها من الكواكب ، وتلك ناحية فلكية اهتم بها ياقوت
وعنى بها كل العناية •

٥ - الاهتمام بذكر بناء البلدان وما يجاورها من بلدان أخرى
مشهورة ، والمسافة التي بينها وبين ما يقاربها ، وما اختصت به هذه
البلدان من الخصائص ، وما ذكر عنها من العجائب ، وبعض من

دفن فيها من الأعيان والصالحين والصحابه والتابعين ونبد مما قيل فيها من الأشعار فى الحنين الى الأوطان ، والشاهد على صحة ضبطه فى اتقان •

٦ - بيان الزمن الذى فتحها فيه المسلمون ، وكيف تم هذا الفتح ؟ هل تم صلحا أو عنوة ؟ والغاية من ذلك تقرير موقف هذا البلد ، من حيث حكمه فى الفىء والجزية •

٧ - بيان من ملكه فى أيامنا من حكام وأمرأ •

لقد أجهد ياقوت نفسه فى تحديد هذا المخطط الدقيق للأساس الفلسفى ، الذى بنى عليه معجمه ، وذلك بعد الاطلاع على عدد كبير من المراجع الجغرافية للسلف من علماء هذا الميدان ، وجدير بنا أن نقف أمام مخططة وقفة قصيرة ، لنلقى عليه أضواء توضحه ، وتكشف عن عناصره ، فياقوت يأخذ على السابقين تساهلهم فى ضبط أسماء الأماكن فقد اشتبه عليهم الضبط الدقيق فى بعضها، وشتوا بعضها الآخر ، كما أهملوا أسماء بعض البلدان ، فخلت منها كتبهم ولم تظفر هذه الأماكن بشىء من التعريف بها ، وكان ياقوتا يريد أن يقول ان علماءنا السابقين سامحهم الله لم يصبروا طويلا على البحث واستعمال الدقة فى تناول أسماء الأماكن وترتيبها وضبطها ضبطا صحيحا ، ولكى يجد الباحث المطلع سهولة فى البحث والاطلاع على معجمه - رأى أن يرتب ما يرد فيه من أسماء الأماكن والبقاع وغيزها على حسب حروف المعجم ، وقد اهتم علماء

المسلمين بصفة عامة بهذا الأسلوب فى ترتيب وعرض الحقائق منذ أيام (الخليل بن أحمد) ، ولياقوت عنايته الخاصة بضبط أسماء الأماكن ، فهو يجرى فى ذلك على طريقة المحققين من أهل اللغة مؤيدا ما يقوله بالشاهد على صحة الضبط ، ولعل هذه الناحية اللغوية هى أبرز ما يتميز به معجم البلدان لياقوت ، بالنسبة لغيره من المعاجم الجغرافية ، ويتحرى فى الضبط بأن يذكر اشتقاق الاسم ان كان عربيا ، أما اذا كان أعجميا فانه يكتفى بذكر المعنى ، ويسترسل ياقوت فى رسم منهجه بالتعرض الى شئ من الجغرافية السياسية والطبيعية والفلكية ، فيهتم بتعيين الاقليم الذى يقع فيه المكان أو البلد ، مع بيان طالع الفلكى واسم الكوكب المسيطر عليه ، ثم تتناول عنايته الحديث عن المباني المشهورة فى البلد ومن بناها ، ويمتد حديثه الى ما يجاورها من بلدان أخرى والمسافات التى بين بعضها وبعض ، ويتعمق فى الحديث عن الخصائص المميزة لكل بلد ، وما اشتهرت به من عجائب ، وتناقله المحدثون والرواة عنها من غرائب ، كذلك يبدى اهتمامه بذكر بعض الذين دفنوا فيها من الأعيان والصالحين والصحابة والتابعين وطرف من سيرهم العطرة ، ولا ينسى أن يتحف القارئ بنبد ومختارات من الأشعار الرقيقة ، التى رويت فى الحنين الى الأوطان ، ويتصل بحديثه عن البلدان أن يستكمل كل ما يرتبط بها من النواحي التاريخية ، فيعرض لبيان التاريخ الزمنى ، الذى تم فيه فتحها على أيدي المسلمين ، وكيف تم هذا الفتح ؟ هل تم صلحا ؟ أو تم عنوة ؟ اذ لكل من الموقفين

حكم في الشريعة الغراء من فيء أو جزية ، مما يكشف عن حقيقة هامة ، أشرنا إليها من قبل ، وهي أن الدافع الديني كان من أهم عوامل اشتغال المسلمين بعلوم الجغرافية وغيرها والتأليف فيها ، وأن المسلمين قد استخدموا العلم في تحقيق أغراض عملية يقوم عليها نظام مجتمعهم ، فالعلم عندهم كان للمجتمع حقا ، كان لخدمة الأغراض الدينية والدنيوية معا .

ثم يتحدث ياقوت عن ملك كل بلد من هذه البلدان من حكام وأمراء .

ونستطيع في ضوء هذا العرض أن نتبين ثقافة ياقوت ، التي تتألف من ألوان مختلفة من جغرافية وصفية وطبيعية وفلكية ، ومن سير وتاريخ وقصص ، ومن شريعة وفقه وأدب ، ورواية أشعار ، كل هذه الألوان حشدها ياقوت في معجمه ، ولذلك استحق هذا المعجم أن يكون موسوعة فريدة في بابها .

مبدأ تربوي حديث يوحى إليه منهج ياقوت في معجمه

الجغرافى :

أشرت من قبل الى مفهوم التخصص في العلم عند العرب المسلمين ، وهو وان ابتعد حينا عن مفهوم المحدثين في عصرنا - الا أن التيارات الحديثة في العلوم أخذت تقترب بمفهوم العرب عن التخصص بما هو واضح الآن لدى أكثر علماء هذا العصر ، ونحن

نعرف أن العالم عند العرب كان يغلب عليه الطب مثلاً ، ولكنه الى جانب ذلك يبرز في الفلسفة ، وتبدو عبقريته فيها واضحة كابن سينا ، والرازي يشتهر بالطب أيضاً ، ولكنه في الوقت نفسه يعرف بالنبوغ في الكيمياء ، وقد كان هذا مما يتفق مع مناهج العرب المسلمين ، واتجاهاتهم الصحيحة في تحصيل العلوم ، فالحدود والفواصل بين العلوم كانت حدوداً وهمية في نظرهم ، اذ كانوا يؤمنون بوحدة المعرفة ، وهذا مما يتجه اليه التقدم العلمي الحديث ، لأن العلوم يخدم بعضها بعضاً .

وفي ضوء هذا الاتجاه في فهم الصلات بين العلوم يقرر ياقوت مبدأ تربوياً حديثاً ، يعرف اليوم في التربية الحديثة بمبدأ ترابط المواد ، فهو في معجمه يجعل اسم المكان محورا ، ثم يقيم حوله دراسات لغوية وفلكية وجغرافية وأدبية وتاريخية ودينية ، ولم يهتد ياقوت الى ذلك اعتباطاً ، وانما فعله تطبيقاً لاتجاهات علمية سائدة في الثقافة العربية الاسلامية .

رأيه في بعض الخرافات التي ذكرها في معجمه :

لا ينسى ياقوت - وهو العالم المحقق - أن ينبه على أنه أحيانا قد يذكر أشياء ، تنفر منها العقول السليمة ، وهو يذكرها مرتاباً فيها وأنه أحيانا أخرى قد يقع في خطأ غير مقصود ، وتلك ولاشك بعض خلال علمائنا الصادقين المتمسكين بأهمية الأمانة العلمية في

البحث ، يقول غفر الله له : « لقد ذكرت أشياء كثيرة تأبأها العقول ، وتنفر منها طباع من له محصول ، لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة ، وإن كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق ، وأنا مرتاب بها نافر عنها ، متبرئ إلى قائلها من صحتها ، لأننى كتبتها حرصا على احراز الفوائد ، وطلبا لتحصيل القلائد والفرائد ، فإن كانت حقا فقد أخذت بنصيب المصيب ، وإن كانت باطلا فلها فى الحق شرك ونصيب ؛ لأننى نقلتها كما وجدتھا ، فأنا صادق فى إيرادھا ، كما أوردتها ، ولتعرف ما قيل فى ذلك حقا كان (أو) باطلا ، فإن قائلًا لو قال : سمعت فلانا يكذب - لأحببت أن تعرف كيفية كذبه ، وهؤلاء أئمة الحفاظ الذين هم القدوة فى كل زمن ، وعليهم الاعتماد فى فرض الشرائع والسنن - لم يشترط أكثرهم فى مسنده ، وهى أحاديث الرسول التى تبنى عليها الأحكام ، ويفرق بها بين الحلال والحرام - إيراد الصحيح دون السقيم ، ونفى المعوج ، وإثبات المستقيم ، لم يخرجهم ذلك عن أن يعدوا من أهل الصدق ، أو يتزحزحوا عن مراتب الأئمة ، والحق أنهم أوردوا ما سمعوه كما وعوه ، وإنما يسمى كذابا من وضع حديثا ، أو حدث عمن لم يسمع منه ، أو روى عمن لم يرو عنه ، فأما أن يروى ما سمع كما سمع - فهو من الصادقين ، والعهد على من رواه عنه ؛ إلا أن يكون من أهل الاجتهاد - فله أن يرويه ، ثم يزيفه ، ولولا ذلك لبطل كثير من الأحاديث ، وعلينا الاقتداء بهم والتمسك بحبلهم » ♦

تعليق ونقد :

نرى ياقوتا وهو يحدثنا عن تلك الأشياء التي تأبأها العقول ، لأنها من قبيل الأوهام والخرافات - يؤكد لنا أنه يذكرها وهو مرتاب في صحتها ، وما حمله على هذا الا لأنه يعتقد أنها قد لا تخلو من فائدة ، ويحاول أن يهيئ أذهاننا ، لكي نؤمن بأنه صادق فيما رواه ؛ لأنه نقله بحسب ما سمعه ، ويؤكد ياقوت مرة أخرى أن ما يرويه عن غيره كما سمعه - لا يمكن أن يوصف فيه بالكذب ، لأن مسؤولية الكذب فيما رواه لا تقع عليه ، وانما تقع على صاحب الخبر أو الرواية •

ويحتج لرأيه بأن رواة حديث الرسول - صلوات الله عليه - وهو في المنزلة الثانية بعد القرآن الكريم في تقرير الأحكام الشرعية وشرحها وتوضيحها - يروون ما يروونه من كلام الرسول من غير تمييز بين السقيم والصحيح منه ، ثم لم يقل أحد فيهم انهم غير صادقين ، لأن العهدة في الصدق والكذب على المصدر المنقول عنه ، الا اذا كانوا من أهل الاجتهاد - فان من واجبهم أن يزيفوا الأحاديث ، التي تتوافر لديهم الأدلة لتزييفها من عقل ونقل ، وبحسب ياقوت نفسه من الصنف الأول ، وهم الرواة من غير أهل الاجتهاد ، وفي رأينا أن ياقوتا ضعيف الحجة فيما احتج به لنفسه ، اذ أن ما قاله لا يبرئه من تهمة اهمال التحقيق فيما رواه ، وهو الذي يقرر أنه ألف كتابه لتصحيح أخطاء السابقين ،

ومؤاخذتهم على تقصيرهم فى التحقيق العلمى ، وكان جديرا به -
وهو يأخذ نفسه بهذا الأسلوب العلمى فى البحث - ألا يتعرض
الى رواية ما يرتاب فى صحته ، وما يعد من قىيل الخرافات
والأوهام ، التى لا تثبت أمام الحقائق ، وبخاصة والفائدة المترتبة
عليها مشكوك فيها وفى قيمتها ♦

ادعاءات لياقوت :

وفضلا عن ذلك فإن ياقوتا لم يسلم من نقد آخر ، فقد حاول
أن يرفع من شأن كتابه ، بادعائه أنه فريد فى بابيه ، وأنه لا يستطيع
أحد أن يؤلف مثله - الا اذا كان مؤيدا بالتوفيق ، وتحمل فى سبيل
تأليفه ألوانا من المشتقات ، فسافر من أجل جمع فرائده ، فأبعد فى
السفر ، وتفرغ لذلك وقتا طويلا ، بدأه بأيام الشباب ، وساعده
العمر على امتداده وكفايته ، وكان حريصا أشد الحرص على العمل
الدائب المتصل ، وياقوت حقا بذل فى تأليف معجمه طاقات متعددة ،
وأنفق وقتا طويلا فى انجازه وجمع مادته ♦

غير أن ما ادعاه لا يتفق مع تواضع العلماء من أمثاله ، وكتابه
غنى عن كل هذه الادعاءات ، اذ المجهود الذى بذل فيه واضح
للباحث المنصف ، وهو شاهد على فضله وسبقه ، وتقدمه فى علوم
الجغرافية ، وعلى ما أنفقه من وقت فى تأليفه ، وكان من الخير له
أن يبرىء نفسه من الادعاء والفخر والاعتداد بمجهوده ♦

رأيه في اختصار الكتب :

ويحذر ياقوت كل من يحاول اختصار كتابه ، ويذكر أن بعض الطلاب قد التمسوا منه ذلك ، ولكنه أبى أن يستجيب إلى طلبهم ، ثم وجه رجاء إلى كل مطلع على كتابه ألا يحاول اختصاره ، ويعلل لذلك : « بأن الاختصار مضيع لكثير من فوائد ، ومبدد لما جمعه ، ومفسد لما أنفقه من تعب ، ومعطل لما حواه من فرائد » ، ويحاول ياقوت أن يلقي أضواء أخرى لتوضيح رأيه فيقول :

« قرب راغب عن كلمة غيره متهاك عليها ، وزاهد في نكتة غيره مشغوف بها - ينضى الركاب إليها ، فان أحببتي بررتي جعلك الله من الأبرار » ♦

ويستمر في تحذيره موضحاً ضرر اختصار كتابه ، فيشبه من يحاول القيام بهذا العمل بمن يقدم على خلق سوى رائع ، فيفسد جماله ، بتقطيع أوصاله ، ثم يروى عن الجاحظ : « أنه صنف كتاباً ، وبوبه أبواباً ، فأخذ بعض أهل عصره ، فحذف منه أشياء ، وجعله أشلاء ، فأحضره وقال له : يا هذا ان المصنف كالمصور ، واني قد صورت في تصنيفي صورة ، كان لها عيان فعورتها ، أعمى الله عينيك ، وكانت لها أذنان ، فصلمتها ، سلم الله أذنيك ، فاعتذر إليه الرجل بجهله هذا المقدار ، وتاب إلى الله عن المعاودة إلى مثله » ♦

ولكن ياقوتا على الرغم من شدة تحذيره واهتمامه ببيان

الضرر المترتب على اختصار معجمه الجغرافى ، واستشهاده بكلام الجاحظ فقد نسب اليه أنه وضع بنفسه مختصرا لهذا المعجم فى كتاب آخر له ، وان كان ذلك لم تثبت بصفة قاطعة فى المراجع الموثوق بها •

موقف علماء العرب والمسلمين من المختصرات :

ويبدى علماء العرب والمسلمين بعد الجاحظ وياقوت عناية كبرى بالتنبيه على عدم اختصار الكتب ، ومنهم ابن خلدون ، فهو يرى أن الاختصار من العوامل التى تقف عقبة فى سبيل التعليم ، ويبين أن المتأخرين قد أولعوا بهذه الطريقة ، ويذكر منهم (ابن الحاجب) فى الفقه وأصول الفقه ، و (ابن مالك) فى النحو ، ويقول : ان فى هذه الطريقة افسادا للتعليم واخلالا بالتحصيل ، وتضييعا لوقت المتعلم فى تتبع ألفاظ الاختصار العويصة فى الفهم ، واستخراج المسائل من بينها ، وهذا مما يقف فى سبيل الملكة الحاصلة من التعليم ، والذي حمل المتأخرين على هذا أنهم قصدوا بالمختصرات تسهيل الحفظ على المتعلمين ، فأركبوهم مركبا صعبا ، يحول بينهم وبين تحصيل الملكات النافعة ، واذا كان رجال التربية الحديثة فى عصرنا يشورون فى عنف على هذه المختصرات - فقد سبقهم الى هذه الثورة الجاحظ وياقوت وابن خلدون ؛ لأنها ترهق العقل ، وتشوش نظامه ، وتضيع وقت الناشئ ، ثم لا تثبت معلوماتها فى ذهنه الا لمدة يسيرة ، ومن أجل ذلك حاربها القدماء والمحدثون •

طريقة ياقوت فى تبويب معجمه وعرض مادته :

بعد أن انتهى ياقوت من مقدمته بدأ معجمه بمدخل له يتألف من خمسة أبواب ، تتناول موضوعات فى الجغرافية الطبيعية وبعض المصطلحات وأخبار بعض البلدان ، التى ترتبط بمادته العلمية •

وينبغى انصافا لعالمنا الكبير - أن ننوه عن فضله فى هذا المدخل ، الذى جمع فيه بين الجغرافية الطبيعية والوصفية ، والكشف عن معانى المصطلحات العلمية ، التى يحتاج اليها الدارس ، للاستعانة بها على فهم مادة الكتاب ، ونترك الآن الحديث لياقوت ؛ لكى يشرح لنا طريقته ، فيقول :

ثم قدمت أمام الغرض من هذا الكتاب خمسة أبواب ، بها يسمو فضله ، ويغزروبله ، وهى :

الباب الأول : فى ذكر صورة الأرض ، وحكاية ما قاله المتقدمون فى هيئتها ، وما رويانا عن المتأخرين فى صورتها •

الباب الثانى : فى وصف اختلافهم فى الاصطلاح وكيفيته واشتقاقه ودلائل القبلة فى كل ناحية •

الباب الثالث : فى ذكر ألفاظ يكثر تكرار ذكرها فيه ، ويحتاج الى معرفتها ، كالبريد ، والفرسخ ، والميل ، والكورة ، وغير ذلك •

الباب الرابع : فى بيان حكم الأرضين والبلاد المفتحة فى

الاسلام ، وحكم قسمة ألفىء والحراج ، فيما فتح صلحا أو عنوة •

الباب الخامس : فى جمل من أخبار البلدان ، التى لا يختص

ذكرها بموضع دون موضع ، لتكمل فوائد الكتاب ، ويستغنى به عن غيره فى هذا الكتاب •

ونلمح فى هذه الأبواب ، وفيما سيحدثنا عنه ياقوت فيما بعد من تخطيط لكتابه - أنه يرسم له أساسا فلسفيا دقيقا للطريقة التى سيجرى عليها فى تبويبه وتنسيق مادته ، اذ لا شك فى أن تقسيم الكتاب الى أبواب وفصول ووضع الأسس التى سيسلكها المؤلف فى عرض مادته العلمية - مما يسر للقارئ الاطلاع الواعى ، ويساعده على الافادة من غير تضيق للوقت •

وهذا مما يذكر بالفخر والاعجاب لعلمائنا السابقين ، فقد اهتموا بتفكيرهم العلمى الصحيح الى هذه الأسس ، التى لا تخرج كثيرا عما يتبع فى تأليف الكتب الحديثة ، من حيث العرض والتبويب والدراسة ، على بعد ما بيننا وبينهم فى حساب الزمن ، وبالرغم مما طرأ على تأليف الكتاب العربى فى عصرنا من تطوير كبير •

ويقسم ياقوت معجمه ثمانية وعشرين كتابا بعدد حروف المعجم ، ويقسم كل كتاب ثمانية وعشرين بابا ، ملتزما ترتيب كل كلمة فيها على أول الحرف وثانيه وثالثه ورابعه ، والى أى غاية بلغ،

فيقدم ما يجب تقديمه بحسب ترتيب الحروف الأبجدية ، بأن تكون الألف قبل الباء ، والباء قبل التاء ، وهكذا ، وذلك في غير نظر الى أصول الكلمة وزوائدها ، وحجة ياقوت في هذا المسلك أن جميع ما يرد من أسماء في كتابه إنما هي أعلام المسميات مفردة ، وأكثرها أعجمية ومرجلة ، وما يجيء من أمثال هذه الأسماء لا داعي للاشتقاق فيها ، ثم يقول :

والغرض من هذا التبويب تسهيل طريق الافادة في غير مشقة ، والله المعين على ما اعتمدنا ، والمرشد الى سلوك ما قصدنا ، من غير حول منا ولا قوة الا بالله ، وسميته (معجم البلدان) اسم مطابق لمعناه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وكان الشروع في هذا التبييض في ليلة احدى وعشرين من محرم سنة خمس وعشرين وستمئة ، نسأل الله المعونة على اتمامه بمنه وكرمه •

ونلاحظ على مقدمة (ياقوت) أن قدماء المؤلفين في تراثنا المجيد يختلفون عن مؤلفي العصر الحاضر من حيث الاعتماد على المقدمات المطولة في التخطيط لكتبهم العلمية والعناية برسم صورة دقيقة لتقسيمها وتبويبها ، وطلب المعونة من الله تعالى لكي يستمروا في بحثهم ، حتى تخرج كتبهم في الصورة التي ترضى عنهم العلمي ، فهذه الدقة ، وتلك الثقة بالله والاعتماد عليه - كانت تفتح أمام علمائنا السابقين أبواب العلم • وقد كان ابن سينا حينما يصعب عليه فهم مسألة دقيقة من مسائل العلم والفلسفة يلجأ الى الله تعالى ،

ويصلى له مخلصا ، وما يكاد يفرغ من صلاته حتى يتضح له ما أبهم عليه ، وتتفتح له الأبواب المغلقة الى فهم العويص من المسائل العلمية والفلسفية •

ولا يسعنا ونحن نعرض للأسس التى اتبعها ياقوت فى تأليف هذه الموسوعة الضخمة - الا أن نعترف بالجهد العظيم الذى بذله ، ولا شك أن عملا كالذى قام به ياقوت يعد معجزة علمية ، اذا راعينا ظروف النشر والتأليف فى عصره وامكانات التدوين ، فقد اعتمد ياقوت بعد جمع مادته وترتيبها هذا الترتيب الدقيق على أسلوب النسخ فى الاخراج ؛ اذ لم تكن الطباعة الحديثة معروفة آنذاك ، واذا فكم من الوقت ؟! وكم من الجهد ؟! أنفق هذا المؤلف الكبير ؛ لكى يؤلف معجمه ويخرجه •

ولم يكن معجم البلدان هو المعجم الوحيد الذى ألفه ، فان له معجما آخر يكبره فى حجمه ومادته ، وقد يقول قائل : ان العمل الذى قام به ياقوت يغلب عليه طابع الجمع والنقل والرواية ، وما أيسر هذا اذا قيس بمؤلفات عصرنا الكبيرة ، ومع افتراض صحة ذلك - فان هذا القول لا يضعف أبدا من قوة هذا البناء الشامخ ، الذى أقام صرحه ياقوت فى عالم الجغرافية فى عصره •

ولكى تتم لنا الصورة عن معجم البلدان ، وتظهر أماننا واضحة الملامح ، معبرة عن الجهد العلمى لرائد كبير من علماء العرب المسلمين ، أخضب حقول الجغرافية العربية الاسلامية ، لا بد

أن نقدم للقارئ مقتبسات من أبواب مدخله ، ونماذج من مواد معجمه ؛ ليكون فيها بعض الغناء لراغبي الاطلاع على مصادر التراث العربى الاسلامى ، والتعريف بجانب من جوانبه ، ثم لاستكمال البحث وتكامل صورته ♦

١ - الباب الأول

فى صفة الأرض وما فيها من الجبال والأنهار وغيرها

نجد ياقوتا فى هذا الباب - وهو العالم المسلم - يعتمد فى تصوير معلوماته الجغرافية عن الأرض على القرآن الكريم ، ثم على ما يرويه عن السلف من علماء المسلمين فى الجغرافية ، فيقول :

« قال الله عز وجل : « ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا » ، وقال عز وجل : « الذى جعل لكم الأرض قارا والسماء بناء » ♦ وقال سبحانه : « والله جعل لكم الأرض بساطا » ، قال المفسرون : البساط والمهاد : القرار والتمكن منها والتصرف فيها ، واختلف القدماء فى هيئة الأرض وشكلها ، فذكر بعضهم أنها مبسوطة التسطيح فى أربع جهات فى المشرق والمغرب والجنوب والشمال ، ومنهم من زعم أنها كهيئة (الترس) ، ومنهم من زعم أنها كهيئة المائدة ، ومنهم من زعم أنها كهيئة الطبل ، وزعم بعضهم أنها شبيهة بنصف الكرة كهيئة القبة، وأن السماء مركبة على أطرافها،

وقال بعضهم : هى مستطيلة كالأسطوانة الحجرية أو العمود •

وقال قوم : الأرض تهوى الى ما لا نهاية له ، والسماء ترتفع الى ما لا نهاية له ، وقال قوم : يرى من دوران الكواكب - انما هو دور الأرض ، لا دور الفلك ، وقال آخرون : « ان بعض الأرض يمسك بعضا » •

ثم يقول ياقوت : وأصلح ما رأيت فى ذلك وأسده فى رأى ما حكاه محمد بن أحمد الخوارزمي : قال : الأرض فى وسط السماء ، والوسط هو السفلى بالحقيقة ، والأرض مدورة بالكلية مخرسة بالكلية ، من جهة الجبال البارزة والوحدات الغائرة ، ولا يخرجها ذلك عن الكروية اذا وقع الحس منها على الجملة ؛ لأن مقادير الجبال وان شمت صغيرة بالقياس الى كل الأرض ... ولولا هذا التضريس لأحاط بها الماء من جميع الجوانب وغمرها ، حتى لم يكن يظهر منها شيء ... والأرض كرة يحيط بها الهواء من جميع الجهات •

ويؤخذ من كلام ياقوت أن رأى الخوارزمي فى هيئة الأرض وشكلها أصلح الآراء وأصوبها وأسدها ، فهو يؤيده ويؤمن به ، وهذا رأى فى الحقيقة يمثل الاتجاه العام ، الذى غلب على جغرافى العرب فى العصور الوسطى ، وبه خالفوا جميع الآراء القديمة وفى مقدمتها رأى بطليموس الذى كان سائدا قبل اشتغال العرب بالجغرافية •

ثم يعرض ياقوت لرأى (أبى الريحان البيرونى) ، فيقول
نقلا عنه : « وسط معدل النهار يقطع الأرض بنصفين على دائرة ،
تسمى خط الاستواء ، فيكون أحد نصفها شماليا والآخر جنوبيا ،
فاذا توهمت دائرة عظيمة على الأرض مارة على قطب خط الاستواء ،
قسمت كل واحدة من نصفى الأرض بنصفين ، فانقسم جملتها
أرباعا جنوبيان وشماليان » •

وواضح من كلام البيرونى أنه يؤيد القول بكروية الأرض ،
ويوضح ذلك بأن خط الاستواء يقسمها نصفين ، ثم يشير الى أربعة
مناطق على سطح الأرض ، وهذا الرأى وغيره من آراء العرب
الجغرافية ، مما يساير الى اليوم أحدث الآراء فى هذا الميدان •
ومن الراجح أن الجغرافيين المسلمين كانوا متأثرين فى آرائهم
بثقافتهم القرآنية ، وبما وعوه وفهموا مدلوله من نصوص الكتاب
الكريم ، ثم يقول ياقوت : « واختلفوا فى كيفية عدد الأرضين ،
قال الله عز وجل : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض
مثلهن » فاحتمل أن يكون فى العدد والأطباق ، وروى فى بعض
الأخبار أن بعضها فوق بعض ، وغلط كل أرض مسيرة خمسمائة
عام ، وقد عد بعضهم لكل أرض أهلا على صفة وهيئة عجيبة ،
وسمى كل أرض باسم خاص ، كما سُمى كل سماء باسم خاص •
وعن عطاء بن يسار فى قول الله عز وجل : « الله الذى خلق
سبع سموات ومن الأرض مثلهن » • قال فى كل أرض آدم
كآدمكم ، ونوح كنوحكم ، وإبراهيم كإبراهيمكم ، والله أعلم » •

الثقافة الاسلامية وعلوم الفضاء

واضح من كلام عطاء بن يسار ، كما رواه ياقوت - أن هناك أرضا غير أرضنا وعوالم غير عالمنا ، وفى كل منها حياة كالحياة التى نعيشها فوق كوكبنا الأرضى ، وقد استمد عطاء بن يسار رأيه من الآية الشريفة ، التى سبقت الإشارة إليها ، وهى تؤيد وجود أراض أخرى آهلة بالمخلوقات غير مسكونتنا ، التى نسعد بالحياة فوقها ، وقد خلقها الله تعالى ، ولا تستبعد الحياة الدائبة النشيطة فوق تلك الأراضى أو العوالم أو الكواكب ، وأيد جغرافيو العرب والمسلمين هذه الآراء فى عصور قديمة سلفت ، قبل عصر النهضة الأوربية الحديثة ، وقبل أن يفكر اليوم الروس والأمريكان فى علوم الفضاء ، ويعملوا على كشف لغز الحياة فى هذا الفضاء ، الذى تزدحم فيه الكواكب والنجوم والشموس والأقمار ازدحاما ، يدعو الى التأمل الواعى العميق والتفكير الذكى الدقيق •

ومن العجيب أن علماء الروس بصفة خاصة يؤمنون بما سبقهم اليه العرب فى هذا المجال ، فهم يعتقدون أن الحياة ليست مقصورة على الأرض وانما الحياة على الأرجح موجودة أيضا على صورة من الصور فى بعض الكواكب ، التى تسبح فى هذا الفضاء ، ولا شك أن العلم الحديث اليوم يسير بخطوات فسيحة وسريعة جبارة ، نحو تحقيق الآراء التى اعترف بها العلم العربى من قبل ، وأيدها علماء المسلمين ، مستشهدين على صحة ما ذهبوا اليه بما أشار اليه القرآن

الكریم ، وهذا مما يؤكد أن التراث الحضارى العربى غنى بالحقائق والنظريات العلمية ، التى يمكن أن تزود العلم الحديث بما يوسع آفاقه ، ويزيد فى اخصابه ، والدليل على ذلك أن كل حقيقة جديدة يكشفها علماء عصرنا - ما تلبث أن تظهر لها جذور عميقة فى مراجع التراث العربى الاسلامى ، ويؤيدنا فيما نذهب اليه بعض آى الذكر الحكيم ، ففيها الدلائل البينات ، والشواهد الواضحات ،

يقول الله جل شأنه :

« قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

« سورة الأنبياء »



ويقول تعالى :

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ » .

• (سورة النحل)

ويقول تعالى :

« إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ

عَبْدًا » .

(سورة مريم)

وبقول أعز نقائلين

« وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » .

• (سورة الروم)

فهذه الآيات ناطقة بالحق شاهدة على أن هناك عوالم أخرى ،
تعج بمخلوقات ، لا تحصى عدداً ، تسبح لله بديع السموات
والأرض ، وتنطق بوحدانيته وتعترف بربوبيته ، وبالرغم من هذه
الآيات البينة الواضحة - فإن قوما كانوا وما يزالون يتشككون ،
وينظرون الى تراثنا نظرة استخفاف ، باعتباره تراثاً قديماً في جملته ،
وأن التعريف به واحياه ضرب من الوهم وتضييع الوقت ، واليوم
ينكشف الستار عن الحقائق ، ويبدو لكل ذى بصيرة واعية ، وعقل
راجح - أن التعريف بهذا التراث في ميادين العلمية المختلفة -
أصبح اليوم على درجة كبيرة من الأهمية في بناء صرح ثقافتنا
العربية الاسلامية الجديدة ، التي هي المنطلق الوحيد لحياة عزيزة
كريمة في أرض وطننا العربى .

مركز تحقيق المخطوطات
مكتبة المخطوطات

٢ - الباب الثانى فى ذكر الأقاليم السبعة واشتقاقها

والاختلاف فى كیفیتها

يقول ياقوت : نبداً أولاً فنورد عنها قولاً مجملًا ، يكون عماداً وبياناً ، لما نأتى به بعد ، وهو أشد ما سمعت فى معناه ، وأخصه :

واختلف قوم فى هذه الأقاليم السبعة ، أفى شمال الأرض وجنوبها أم فى الشمال دون الجنوب ؟ فذهب (هرمس) الى أن فى الجنوب سبعة أقاليم كما فى الشمال ، قالوا : وهذا قول لا يعول عليه لعدم البرهان ، وذهب الأكثرون الى أن الأقاليم السبعة فى الشمال دون الجنوب لكثرة العمارة فى الشمال وقلتها فى الجنوب ، وأما اشتقاق الأقاليم فذهبوا الى أنها كلمة عربية واحداً اقليم وجمعها أقاليم ، مثل اخريط وأخاريط وهو نبت ، فكأنه انما سمي اقليماً ؛ لأنه مقلوم من الأرض ، التى تتأخمه ، أى مقطوع ، والقلم فى أصل اللغة : القطع ، ومنه قلمت ظفرى ، وبه سمي القلم ؛ لأنه مقلوم ، أى مقطوع مرة بعد مرة ، وقال (محمد بن أحمد أبو الريحان البيرونى) : الاقليم على ما ذكر أبو الفضل الهروى فى المدخل الصحبى : هو الميل ، فكأنهم يريدون بها المساكن المائلة عن معدل النهار ... ثم ينتقل الى الحديث عن مواضع الأقاليم السبعة وما لكل واحد من البروج الاثنى عشر من البلدان ، فيقول : فأما الحمل فله

بابل وفارس وأذربيجان وفلسطين ، والثور له الماهان وهمذان
والأكراد الجليليون ومدين وجزيرة قبرص والاسكندرية
والقسطنطينية وعمان والرى وفرغانة ، والجوزاء له جرجان وجيلان
وأرمينية ومصر وبرقة وغيرها •

ويبدو أن فكرة الأقاليم السبعة بدأت أولا في التفكير البابلي ،
ويتضح من الأقوال السابقة أن القدماء كانت تعوزهم الرحلات
الكشفية الدقيقة ، والامكانات التي تساعدهم على التوغل في مختلف
الأنحاء ، للموقوف على ما يتكون منه سطح الكرة الأرضية من يابس
وماء ، والمعلومات التي وصلوا اليها عن تقسيم الأرض الى أقاليم
سبعة وعن مواضع هذه الأقاليم - تدل على أنهم كانوا يجتهدون
بقدر ما لديهم من وسائل ، غير أن معلوماتهم عن الأقاليم السبعة وان
لم تكن دقيقة - الا أنها تعطينا فكرة عن محاولات ، كان لها أثر عظيم
في تقدم الكشف الجغرافية فيما بعد !

وفى (الباب الثالث) لا يفوت ياقوتا أن يحدثنا عن بعض
الألفاظ الاصطلاحية ، التي يكثر تكرارها فى معجمه ، فيعطينا عن
مفهومها فكرة واضحة ، تساعدنا على فهم آرائه ، ويذكر منها
(البريد) ، ويقول فى تفسيره : « فأما البريد ففيه خلاف ، وذهب
قوم الى أنه بالبادية اثنى عشر ميلا ، وبالشام وخراسان ستة أميال ،
وقال أبو منصور : البريد : الرسول وابراده ارساله ، وقال بعض
العرب : الحمى بريد الموت ، أى أنها رسول الموت تنذر به ، والسفر

الذى يجور فيه قصر الصلاة أربعة برد ، أى ثمانية وأربعين ميلا
بالأميال الهاشمية ، التى فى طريق مكة ، وقيل لدابة البريد بريد ،
لسيرها بالبريد ، قال الشاعر :

وانى أنض العيس حتى كأنى عليها بأجواز الفلاة بريد

وقال ابن الأعرابى : كل ما بين المنزلتين بريد ، ويقول فى
الفرسخ : وأما الفرسخ فقد اختلف فيه أيضا ، فقال قوم : هو
فارسي معرب ، وأصله (فرسك) ، وقال اللغويون : الفرسخ
عربي محض ، يقال انتظرتك فرسحا من النهار أى طويلا ، وقال
الأزهري : أرى أن الفرسخ أخذ من هذا ، ويقول فى الميل : وأما
الميل فقال بطليموس فى المجسطى : الميل ثلاثة آلاف ذراع بذراع
الملك ، والذراع ثلاثة أشبار ، والشبر ستة وثلاثون اصبعاً
وذكر فى الباب الرابع (الفى والغنمة) ، فيقول : وأما الفى
والغنمة فإن أصل الفى فى اللغة الرجوع ، ومنه الفى وهى عقيب
الظل الذى للشجرة وغيرها بالغداة ، والفى بالعشى كما قال
حميد بن ثور :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفى من برد العشى تذوق

وقال أبو عبيدة : كل ما كانت الشمس عليه وزالت عنه فهو
فى وظل ، وما لم تكن الشمس عليه فهو ظل ، ومنه قوله تعالى
فى قتال أهل البغى : حتى تفىء الى أمر الله الآية ، أى ترجع ،

وسمى هذا المال فيئا ، لأنه رجع الى المسلمين من أملاك الكفار ،
وأما الغنيمة فهي ما غنم من أموال المشركين من الأراضي كأرض
خير ، فان النبي صلى الله عليه وسلم قسمها بين أصحابه بعد افراز
الخمس ، وصارت كل أرض لقوم مخصوصين •

اشتراكتنا نابعة من ديننا

واضح من شرح ياقوت لمفهوم الغنيمة والفيء أن ما فعله
الرسول صلوات الله عليه بأرض خير كان عملا اشتراكيا سليما ،
واذا فغنائم الحرب من حق المسلمين توزع عليهم توزيعا عادلا ،
وشبيه بالغنائم في عصرنا الانتاج العام للدولة الذي يوزع على كل
المواطنين بحسب استعداداتهم وقدراتهم ، وقد أجلى الرسول اليهود
عن أرضهم وحصونهم في خير ؛ لأنهم كانوا يكونون فيها قاعدة
خطيرة للعدوان الغادر المستمر على المسلمين ، ولم يفعل الرسول
ذلك الا بعد أن أذن له في قتالهم ، وقد تبين من افراده الخمس
ليت المال وتوزيع الأخماس الأربعة على المسلمين أن طبيعة الدين
الاسلامى وروحه تسييران في الاتجاه الاشتراكى العادل والأمثلة
التي تؤيد هذا الاتجاه بعد عهد الرسول كثيرة ، فمنها ما ثبت أن
سعد بن أبى وقاص قائد جيوش المسلمين لمحاربة الفرس ، لما استولى
على أرض السواد (العراق) ، وهى أرض مخصصة قام بتوزيعها على
أجناد المسلمين الذين اشتركوا في فتحها ، وقد علم عمر رضى الله
عنه ذلك ، ولم ينكر على سعد تصرفه ، فدل ذلك على أن الاتجاه

الاشتراكي أساس أصيل في بناء النظام الاقتصادي في الاسلام ،
ولذلك اذا قلنا اليوم ان اشتراكتنا نابعة من ديننا - فاننا لا نعدو
الحق ، ولا نتجاوز الواقع ، فهي اشتراكية عربية اسلامية لا شرقية
ولا غربية •

تاريخ الحضارة العربية الاسلامية

لقد أثار ياقوت (رحمه الله) - في نفوسنا أفكارا تتصل بواقعنا
العربي الجديد، فجهوده العظيمة في ميدان الجغرافية تولد في نفوسنا
احساسا عميقا بضرورة توجيه عنايتنا الى تاريخ الحضارة العربية
الاسلامية ، وبخاصة في هذا الوقت الذي قامت فيه ثورتنا الحاضرة
لتحقيق الأهداف ، التي حددها النظام الاسلامي ، من حيث
الارتفاع بمستوى كرامة المواطنين جميعا ، عن طريق تقريب المسافات
بين الأغنياء والفقراء ، واحياء القيم المادية والروحية للحضارة
الاسلامية •

ونريد من الحضارة الاسلامية ما قامت عليه من أسس عقائدية
وأخلاق ونظم للحياة الفردية والجماعية ، وما أبدعه المسلمون من
أدب وفن وفلسفة ، وما ابتكروه من مخترعات ومقومات للحياة
الراقية ، وقد أدرك الغربيون قبلنا السر في الاهتمام بتاريخ الحضارة،
فأقبلوا في جد يدرسونه ، ويعملون على تدريسه لابنائهم وبناتهم في
مدارسهم وجامعاتهم • ولا يفوتنا أن ننبه على أن ما يقوم عليه تاريخ
الحضارة الأوروبية مقتبس أكثره من مقومات حضارتنا العربية

الاسلامية وأصولها • ان العناية بدراسة تاريخ هذه الحضارة تفرضها علينا ظروف حياتنا الجديدة ، ومن الواجب أن توجه عناية خاصة الى دراسة تاريخ العلوم عند العرب ، لكي نتبين في ضوء هذه الدراسة ما قدمه العرب والمسلمون الى الحضارة الانسانية من أفكار وقيم ومبادئ وغيرها ، وبذلك نربط ماضينا الزاهر بحاضرنا الباسم المشرق •

وقد حاول بعض علمائنا في مصر وفي أحد الأقطار العربية الشقيقة توجيهنا هذه الوجهة ، فقد قام الدكتور محمد كامل حسين بدراسة لجهود العرب في الكيمياء ، والأستاذ نظيف بدراسة علوم الفيزياء العربية في المرحلة التي انتهت اليها عند ابن الهيثم ، كما وضع عالم أردني مشهور كتابا في تاريخ العلوم عند العرب ، وهو الدكتور قدرى حافظ طوقان ، وله فضلا عن ذلك كتب وبحوث على درجة كبيرة من الناحية العلمية في ميدان التراث العربي المجيد، وللأستاذ محمد خلف الله أحمد محاضرات اذاعية ، ذات قيمة علمية عن الاسلام والحضارة ، كما نوه الدكتور على حسنى الحروبولى عما قدمه العرب للحضارة الغربية ، عندما أقاموا لهم ملكا عتيذا قائما على أحدث النظم الحضارية ، في صقلية وجنوبي ايطاليا واسبانيا ، وللدكتور شكرى عياد كتيب عن الحضارة العربية ، وللدكتور جمال الدين الرمادى كتاب عن سير علماء المسلمين وغير شك أننا في هذا الوقت بحاجة ملحة الى تطوير مناهجنا في المدارس والجامعات ، بحيث تتناول هذه المناهج الجديدة دراسات

واسعة مستفيضة عن الحضارة الاسلامية ، ومن هنا تبرز أماننا
مسئولية علمائنا الكبار ، الذين من واجبهم أن يضعوا أسس هذه
الدراسات ، بيد أن شعور كل باحث بهذه المسؤولية سيساعد حتما على
التعمق في ابراز هذا التاريخ في الصورة اللامعة ، التي نرجوها ،
تلك الصورة التي تعكس ألوانها الزاهية خطوطا واضحة لجهود العرب
المسلمين في مختلف ميادين المعرفة الانسانية .



الفصل الثالث



نماذج من معجم البلدان

فيما يلي نماذج مما قاله ياقوت عن البلاد والأماكن والبقاع والديرة مع ضبط أسمائها وبيان اشتقاقها وطالعها ، وما اشتهرت به ومن نسب اليها أو مات فيها من علماء السلف الصالح ، وما قيل فيها من شعر ، والغرض من ذلك رسم صورة متكاملة عن معجم البلدان ، تلقى أضواء على اتجاهات علماء العرب والمسلمين في معلوماتهم الجغرافية وربطها بغيرها من العلوم •

كتاب الهمزة

(أ) (آه) بالباء الموحدة ، قال أبو سعد ، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه (آه) من قرى أصبهان ، وقال غيره ان آه من قرى (ساوه) منها جرير بن عبد الحميد الآبي ، سكن

(الرى) ، قلت أنا : أما آبه فبليلة تقابل ساوة تعرف بين العامة بآوه ، فلا شك فيها ، وأهلها شيعة ، وأهل ساوة سنية ، ولا تزال الحروب بين البلدين قائمة على المذهب ، قال أبو طاهر ابن سلفة : أنشدني القاضي أبو نصر أحمد بن العلاء الميمدني (بأهر) من مدن أذربيجان لنفسه :

وقائلة أتبغض أهل آبه وهم أعلام نظم والكتاب

فقلت اليك عنى ان مثلى يعادى كل من عادى الصحابه

واليها فيما أحسب ينسب الوزير أبو سعد بن الحسين الآبى ، ولى أعمالا جليلة ، وصحب صاحب بن عباد ، ثم وزر لمجد الدولة رستم بن فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، وكان أدبيا شاعرا مصنفا ، وهو مؤلف كتاب (نثر الدر) ، وتاريخ الرى ، وغير ذلك ، وآبه أيضا من قرى (البهنسا) من صعيد مصر ، أخبرنى بذلك القاضي المفضل بن أبى الحجاج عارض الجيوش بمصر .

(ب) (الأئيل) تصغير الأئيل : موضع قرب المدينة ، وهناك

عين ماء لآل جعفر بن أبى طالب ، بين بدر ووادى الصفراء ، ويقال له : ذو أئيل ، وقد حكينا عن ابن السكيت انه بتشديد الياء ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قتل عنده النضر بن الحارث بن كلدة عند منصرفه من بدر ، فقالت قتيلة بنت النضر ترثى أباه ، وتمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أيا راراكبا إن الأثيل مظنة^(١) من صبح خامسة وأنت موفق^(١)
بلغ بها ميتا فإن تحية^(٢) ما إن تزال بها الركائب تحقق^(٢)
منك إليك وعبرة مسفوحة جادت لما أمحها وأخرى تحقق^(٣)
فليسمعن النضر إن نادية^(٤) إن كان يسمع ميت أو ينطق^(٤)
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه^(٥) لله أرحام هناك تشق^(٥)
أحمد^(٦) ولأنت ضنء نجبية^(٦) في قومها والفحل فحل مغرق^(٦)
ما كان ضرك لو مننت وربما من القتي وهو المغيظ المحنق^(٧)
فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم شعرها - رق لها ، وقال :

(١) الأثيل : موضع فيه قبر النضر ، والمظنة موضع الظن ، تريد ان
الأثيل مظنة أن تصل اليه في صبح الليلة الخامسة ، ان وفقت الى الطريق ،
ولم تحد عنه ، (٢ - ٣) ان بعد (ما) زائدة ، وتحقق تتحرك ، ومسفوحة :
مصوبة ، والمائع : النازل في البئر ليملا الدلو ومعنى البيتين : اذا وصلت
هذا المكان فبلغ ساكنه تحية مني اليه ، لا تزال الركائب تتحرك بها ، وبلغه
عبرة مصوبة ، استنزفها من العين فقده ، وأخرى آخذة بالخلق (٤) تقول :
ان كان يسمع أو ينطق ، وهو محال ، فعلى النضر ان يسمع نداءك (٥) تنوشه :
تناوله واللام في (الله) للتعجب ، والمعنى لم يقتله احد غير بني أبيه ، فعجبا
من ارحام تتقطع هناك (٦) (ضنء نجبية) وروى نسل نجبية والنجبية :
الكريمة ، والضمن : الولد (٧) الحنق : الغيظ او أشده .

ويقال : ان هذه الابيات لقتيلة بنت الحارث ، وهي ترى بها أخاها ،
ولكن ياقونا يروى انها بنت النضر ، وهي ترى بها اباها .

لو سمعت شعرها قبل قتله - لو هبته لها ، والأثيل أيضا موضع في ذلك الصقع أكثره لنبي ضمرة من كنانة

ولا يفوتنا أن نشير الى أن النضر بن الحارث مع أنه ابن خالة الرسول - كان من أشد أعداء الرسول ، وقد آذاه بما لم يؤذه به أحد ، وأبوه الحارث بن كلدة الثقفي طيب العرب المشهور ، وهو الذي عالج سعد بن أبي وقاص في مرضه ، بإشارة من النبي (ح) (ارم ذات العماد) : هي ارم عاد ، يضاف ولا يضاف ، أغنى في قوله عز وجل : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد » ♦

فمن أضاف لم يصرف (ارم) ؛ لأنه يجعله اسم أمهم أو اسم بلدة ، ومن لم يضيف جعل (ارم) اسـمه ، ولم يصرفه ؛ لأنه جعل عاد اسم أبيهم ، وارم اسم القبيلة ، وجعله بدلا منه ♦

وقال بعضهم (ارم) لا ينصرف للتعريف والتأنيث ؛ لأنه اسم قبيلة ، فعلى هذا يكون التقدير (ارم صاحب ذات العماد) لأن ذات العماد مدينة ، وقيل : ان ذات العماد وصف ، كما تقول المدينة ذات الملك ، وقيل : ارم اسم مدينة ، فعلى هذا يكون التقدير بعاد صاحب ارم ، ويقرأ بعاد ارم ذات العماد بالجر على الاضافة ، فهذا اعرابها ، ثم اختلف فيها ، فمنهم من جعلها مدينة ، ومنهم من قال : هي أرض عربية كانت واندurst ، فهي لا تعرف ، ومنهم من قال : هي

الاسكندرية ، وأكثرهم يقولون : هي دمشق ؛ وكذلك قال شبيب
ابن يزيد بن النعمان بن بشر :

لولا التي عَلِقَتْنِي من علائقِها لم تُمس لي إرمٌ داراً ولا وطناً
قالوا أراد دمشق ، وإياها أراد البحترى بقوله :

إليك رحلنا العيسَ عن أرضِ بابلٍ
يجورُ بها سَمْتُ الدَّبورِ ويَهْتَدِي^(١)
إلى إرمِ ذاتِ العمادِ وإِنَّها
لموضعُ قَصْدِي مُوجِفاً وتَعْمُدِي

وحكى الزمخشري أن إرم بلد منه الاسكندرية ، وروى آخر
أن (إرم ذات العماد) التي لم يخلق مثلها في البلاد باليمن ، بين
حضر موت وصنعاء ، من بناء شداد بن عاد ، ورووا أن شداد بن عاد
كان جباراً ، ولما سمع بالجنة ، وما أعده الله فيها لعباده الصالحين من
قصور الذهب والفضة ، والمساكن التي تجرى من تحتها الأنهار ،
والغرف التي من فوقها غرف ، قال لكبرائه : اني متخذ في الأرض
مدينة على صفة الجنة ، فوكل ذلك الى مائة رجل من وكلائه ،
وقهارمته ، تحت كل رجل منهم ألف من الأعوان ، وأمرهم أن
يطلبوا فضاء فلاة من أرض اليمن ، ويختاروا أطيبها تربة ، وملكهم

(١) العيس : الابل البيض يخالط بياضها سواد خفيف ، والدبور
الريح الغربية تقابل الصبا ، وهي الريح الشرقية .

من الأموال ... ومثل لهم كيف يعملون ، وكتب الى عماله الثلاثة (غانم بن علوان) و (الضحاك بن علوان) و (الوليد بن الريان) ، يأمرهم بأن يكتبوا الى عمالهم في آفاق بلدانهم أن يجمعوا جميع ما في أرضهم من الذهب والفضة ، والدر (١) ، والياقوت (٢) ، والمسك (٣) ، والعنبر (٤) ، والزعفران (٥) ، فوجهوا اليه ، ثم وجه الى جميع المعادن ، فاستخرج ما فيها من الذهب والفضة ، ثم وجه عماله الثلاثة الى الغواصين بالبحار ، فاستخرجوا الجواهر ، فجمعوا منها أمثال الجبال ، وحمل ذلك الى شداد ، ثم وجهوا الحفارين الى معادن الياقوت والزبرجد (٦) وسائر الجواهر ، فاستخرجوا منها شيئا عظيما ، فأمر بالذهب ، فضرب مثل اللبن ، ثم بنى بذلك تلك المدينة ، وأمر بالدر والياقوت والزبرجد

(١) الدر : كبار اللؤلؤ ، واللؤلؤ الصغير يسمى أيضا الدر أو لؤلؤ النظم .

(٢) الياقوت : أصناف أفضله الأحمر الرماني ، ثم الأحمر الجمرى ، ثم الأصفر ، ثم الاسمانجونى أى العسلى ، ثم الأبيض ، ثم الأزرق .

(٣) (المسك) طيب ، وهو من دم دابة كالظبي ، تدعى غزال المسك .

(٤) العنبر نوع من أنواع الطيب ، وقيل هو الزعفران .

(٥) (الزعفران) نبات أصفر الزهر ، له أصل كالبصل ، والجمع

زعافر .

(٦) الزبرجد : يقول بعضهم انه الزمرد ، وليس كذلك ، لان الزمرد حجر كريم أخضر شديد الخضرة ، وأفضل الوانه الدبابى نسبة الى الذباب الكبير الربعى ، واما الزبرجد فهو حجر كريم آخر أخضر الى الصفرة ، وأرخص بكثير من الزمرد .

والعقيق (١) ، ففضض بها حيطانها ، وجعل لها غرفا فوقها غرف ،
ثم أجرى تحت المدينة واديا ، ساقه اليها من تحت الأرض أربعين
فرسخا ، كهيئة القناة العظيمة ، ثم أمر فأجرى من ذلك الوادى
سواقى فى تلك السكك والشوارع والأزقة ، تجرى بالماء الصافى ،
وأمر بحافتى ذلك النهر ، وجميع السواقى ، فطليت بالذهب
الأحمر ، وبنى لنفسه فى وسط المدينة على شاطئ ذلك النهر
قصرا منيفا عاليا ، يشرف على تلك القصور كلها ، وجعل بابها يشرع
الى الوادى بمكان رحيب واسع ، ونصب عليه مصراعين من الذهب .
ويستمر ياقوت فى حديثه عن تلك المدينة فيقول : وأن الله
تعالى أحب أن يتخذ حجة الحجة عليه وعلى جنوده بالرسالة والدعاء
الى التوبة والانابة ، فانتخب لرسالته هودا عليه السلام ، وكان من
صميم قومه وأشرفهم ، وهو فى رواية بعض أهل الأثر هود بن
خالد بن الخلود بن العاص بن عمليق بن عاد بن ارم بن سام بن نوح
عليه السلام ، ثم ان هودا عليه السلام أتاه فدعاه الى الله تعالى ، وأمره
بالإيمان والاقرار بربوبية الله عز وجل ووحدانيته ، فتمادى فى
الكفر والطغيان ، فأنذره هود بالعذاب ، وحذره وخوفه
بزوال ملكه ، فلم يرتدع ، عما كان عليه ، ولم يجب هودا الى

(١) (العقيق) : أنواع اجوده الاحمر الدموى ، ويوجد ملونا ومعرقا .

(تعليق) واضح من ايراد قصة بناء (ارم ذات العماد) ان العقل

لا يستسيغها ، وانها من نسج الخيال ، ومن قبيل الخرافات التى اشار
اليها ياقوت .

ما دعاه اليه ، ووافاه الموكلون ببناء المدينة ، وأخبروه بالفراغ منها ،
فعزم على الخروج إليها فى جنوده ، فخرج فى ثلاثمائة ألف من
حرسه وشاكريته ومواليه ، وخلف على ملكه بحضرموت وسائر
أرض العرب ابنه (مرثد بن شداد) وكان مرثد فيما يقال مؤمنا
بهود عليه السلام ، فلما قرب شداد من المدينة ، واتتهى الى مرحلة
منها جاءت صيحة من السماء ، فمات هو وأصحابه أجمعون •

ثم نرى ياقوتا يطعن فى هذه القصة ، فيقول : وظننا أنها من
أخبار القصص المنمقة وأوضاعها المزوقة •

وبهذا الطعن أو الشك يساير ياقوت منهجه الذى رسمه من
قبل ، وهو أنه سيروى بعض القصص والأخبار بحسب ما سمعها ،
وعلى ما رويت له ، مع شكه فيها ، وهو لا يمكن أن يكون كاذبا فى
روايته للخبر أو الحديث أو القصة ، لأنه راو فقط ، والعهد على
صاحب الرواية ، وهذا أضعف الايمان فى مجال البحث العلمى ،
ومع ذلك فان الشك أول مرتبة من مراتب اليقين •

كتاب الباء من كتاب معجم البلدان

١ - (بحيرة طبرية) : قال الأزهري : هى نحو من عشرة
أميال فى ستة أميال ، وغور مائها علامة لخروج الدجال ، وروى أن
عيسى عليه السلام ، اذا نزل بالبيت المقدس ليقتل الدجال عندها -
يظهر يأجوج ومأجوج ، وهم أربعة وعشرون أمة ، لا يجتازون

بحى أو ميت من انسان الا أكلوه ، ولا ماء الا شربوه ، فيجتاز أولهم ببحيرة طبرية ، فيشربون جميع ما فيها ، ثم يجتاز الأخير منهم وهي ناشفة فيقول : أظن أنه قد كان ها هنا ماء ، ثم يجتمعون بالبيت المقدس ، فيفزع عيسى ومن معه من المؤمنين ، فيعلو على الصخرة ، ويقوم فيهم خطيبا ، فيحمد الله ويشنى عليه ، ثم يقول : اللهم انصر القليل فى طاعتك على الكثير فى معصيتك ، فهل من منتدب ؟ فينتدب رجل من جرهم ورجل من غسان لقتالهم ، ومع كل واحد خلق من عشيرته ، فينصرهم الله عليهم ، حتى يسدوهم ، ولهذا الخبر مع استحالته فى العقل نظائر جملة فى كتب الناس ، والله أعلم •

وأما بحيرة طبرية فقد رأيتها مرارا ، وهى كالبركة يحيط بها الجبل ، وتصب فيها فضلات أنهر كثيرة، تجىء من جهة (بانياس) والساحل والأردن الأكبر ، وينفصل منها نهر عظيم ، فيسقى أرض الأردن الأصغر ، وهو بلاد الغور ، ويصب فى البحيرة المنتنة قرب أريحا ومدينة طبرية فى لحف الجبل مشرفة على البحيرة ، مأوها عذب شروب ، ليس بصادق الحلاوة ••• ، وفى وسط هذه البحيرة حجر ناتئ يزعمون أنه قبر سليمان بن داود عليه السلام ، وبين البحيرة والبيت المقدس نحو من خمسين ميلا ••• وإياها أراد المتنبي يصف الأسد •

أَمْعَفَرِ اللَّيْثِ الْهَزَبِرِ بِسَوْطِهِ لَمِنْ أَدَّخَرَتِ الصَّارِمَ الْمُصْقُولَا (١)
 وَقَعْتُ عَلَى الْأُرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّةٌ نُضِدَّتْ بِهَا هَامُ الرِّفَاقِ تُلُولَا (٢)
 وَرَدُّ إِذَا وَرَدَ الْبُحَيْرَةُ شَارِبَا وَرَدَ الْفُرَاتُ زَيْئِرُهُ وَالنَّيْلَا (٣)

حرف الباء

(بغداد) : أم الدنيا ، وسيدة البلاد ، وقال ابن الأبنارى :
 أصل بغداد للأعاجم والعرب ، وتختلف في لفظها اذا لم يكن أصلها

(١) عفره : مرغه في التراب ، والهزير : الشديد ، والصارم :
 السيف القاطع ، وكان بدر بن عمار وهو الذي يمدحه بهذه الابيات - هاج
 أسدا عن بقرة افترسها ، فوثب على كفل فرسه ، وأعلجه عن سل السيف ،
 فضربه بسوطه ، يريد ان يقول لبدر لقد صرعت الاسد بالسوط وهو أشبد
 الحيوان ، فلمن خبات سيفك ؟

(٢) نضدت : جمع بعضها فوق بعض ، والهام : الرعوس ، والرفاق
 جمع رفقة : الجماعة في السفر وتلولا : حال المراد مماثلا للتلول ، وهى جمع
 تل والتل : الجبل الصغير ، يقول أبو الطيب : ان هذا الاسد الذى
 قتلته بدر بن عمار كان بلية كبرى وقعت على أهل نهر الاردن ، فقد فتك بكثير
 من المسافرين ، حتى كانت رعوسهم كالتلال المجتمعة من التراب .

(٣) الورد : الذى يضرب لونه الى الحمرة ، وكذلك الاسد والمراد
 بالبحيرة بحيرة طبرية ، والزئير : صوت الاسد ، يقول ابو الطيب : وكان هذا
 الاسد اذا زار فى طبرية بلغ زئيره لعراق ومصر ، وبين ورد ، وورد جناس
 لطيف .

من كلامهم ، ولا اشتقاقها من لغاتهم ... وأجاز الكسائي بغداد على الأصل ، وحكى أيضا (مغذاذ) ، و (مغداد) و (مغدان) ، وهى فى اللغات كلها تذكر وتؤنث ، وتسمى مدينة السلام أيضا ، فأما (الزوراء) فمدينة المنصور خاصة ، وسميت (مدينة السلام) ؛ لأن دجلة يقال له : وادى السلام : ... وقيل ان بغداد كانت قبل ذلك سوقا يقصدها تجار أهل الصين بتجاراتهم ، فيربحون الربح الواسع ، وكان اسم ملك الصين (بنغ) ، فكانوا اذا انصرفوا الى بلادهم قالوا (بنغ داد) أى أن هذا الربح الذى ربحناه من عطية الملك ، وقيل انما سميت (مدينة السلام) ؛ لأن السلام هو الله فأرادوا (مدينة الله) ♦

ويقول ياقوت فى بدء عمارتها : وكان أول من مصرها ، وجعلها مدينة - المنصور بالله (أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ثانى الخلفاء من بنى العباس) ، وانتقل اليها من الهاشمية ، وهى مدينة كان قد اختطها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة ، وشرع فى عمارتها سنة ١٤٥ هـ ، ونزلها سنة ١٤٩ هـ ، وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده ، فبلغه ذلك من فعلهم ، فانتقل عنها يرتاد موضعا ، وقال ابن عياش بعث المنصور روادا وهو بالهاشمية ، ليرتادوا له موضعا ، يبنى فيه مدينة ، ويكون الموضع واسطا راققا بالعامه والجند ، فنُعت له موضع قريب من (بارما) ،

وذكر له غذاء طيب وهواء ، فخرج اليه بنفسه ، حتى نظر اليه ،
وبات فيه ، فرأى موضعا طيبا ، فقال لجماعة منهم : (سليمان بن
مخالد أبو أيوب المورياني) و (عبد الله بن حميد الكاتب) :
ما رأيكم في هذا الموضع ؟ فقالوا : طيب موافق ، فقال : صدقتم ،
ولكن لا مرفق فيه للرعية ، وقد مررت في طريقى
بموضع ، تجلب اليه الميرة والأمتعة في البر والبحر ، وأنا راجع
اليه وباتت فيه ، فان اجتمع لى ما أريد من طيب الليل ، فهو موافق
لما أريده لى وللناس ، قال : فأتى موضع بغداد ، وعبر موضع قصر
السلام ، ثم صلى العصر ، وذلك في صيف وحر شديد ، وكان في
ذلك الموضع بيعة ، فبات أغيب مبيت ، وأقام يومه ، فلم ير الا خيرا ،
فقال : هذا موضع صالح للبناء ، فان الماء يأتيه من الفرات ودجلة .
ووضع أول لبنة بيده ، فقال : باسم الله والحمد لله ، والأرض لله
يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ، ثم قال : ابنوا على
بركة الله .

ثم يذكر ياقوت بعض ما قاله الشعراء في مدحها ، فيقول :
وقال طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن .

سقى الله صوب الغاديات محلة
بغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هى البلدة الحسناء خست لأهلها
بأشياء لم يجمعن مذ كن فى مصر

(بلغار) بالضم والغين المعجمة : ومدينة الصقالبة ، ضاربة
فى الشمال ، شديدة البرد ، لا يكاد الثلج يقلع من أرضها صيفا
ولا شتاء ، وقل أن يرى أهلها أرضا ناشفة ، وبنائهم من الخشب
وحده ، وهو أن يركبوا عودا فوق عود ، ويسمروها بأوتاد من
خشب أيضا محكمة ، والفواكه والخيرات بأرضهم لا تنجب ، وبين
(اتل) مدينة (الخزر) وبلغار على طريق المفاوز نحو شهر ، ويصعد
اليها فى نهر اتل نحو شهرين ، وكان ملك بلغار وأهلها قد أسلموا
فى أيام المقتدر بالله (العباسى) ، وأرسلوا الى بغداد رسولا ،
يعرفون المقتدر ذلك ، ويسألونه انفاذ من يعلمهم الصلوات والشرائع ،
ولكن لم أقف على السبب فى اسلامهم *** (١) •

(١) نقل ياقوت قصة ملك بلغار من رسالة مشهورة لاحمد بن فضلان ،
وكان قد زار مملكة بلغار بناء على دعوة من ملكها ، أرسل بها الى الخليفة
المقتدر ، ويقول ابن فضلان : فى اول رسالة ان (بلطوار) ملك الصقالبة
سأل امير المؤمنين المقتدر ان يبعث اليه من يفقه فى الدين ، ويعرفه شرائع
الاسلام ، ويبنى له مسجدا ، وينصب له منبرا ، ليقم عليه الدعوة له فى
بلده ، وسأله كذلك بناء حصن فيه من الملوك المخالفين له ، ويقال : ان يهود
الخزر كانوا قد ابتزلوا الصقالبة ، وفرضوا عليهم الاتاوات ، فوقع المقتدر
معاهدة صداقة ومودة ونصرة بينه وبين ملك بلغار يقدم بمقتضاها كل وسائل
المساعدة والنصرة لملك بلغار ضد يهود الخزر ، وهى تدل على صلوات المودة
التى كانت بين الروس والمسلمين فى العصر العباسى ، والتاريخ يعيد نفسه
اليوم ، أما هؤلاء الصقالبة فكانوا يسكنون حول نهر (الفلجا) ويمتد ملكهم ،
حتى يبلغ قازان ، التى تقع على هذا النهر محاذية لموسكو .

كتاب الجيم

(الجزائر) اسم علم لمدينة على ضفة البحر بين افريقية والمغرب ، وبينها وبين بجاية أربعة أيام ، وكانت من خواص بلاد بنى حماد بن زيري بن مناد الصنهاجي ، وتعرف بجزائر (بنى مزغناي) ، وربما قيل لها جزيرة بنى مزغناي وقال أبو عبيد البكري : جزائر بنى مزغناي مدينة جليلة قديمة البنيان ، فيها آثار للأول عجيبة ، وآزاج محكمة تدل على أنها كانت دار ملك لسالف الأمم ، وصحن الملعب الذي فيها ، قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل (الفسيفساء) فيها صور الحيوانات بأحكام عمل وأبداع صناعة ، لم يغيرها تقادم الزمان ، ولها أسواق ومسجد وجامع ، ومرساها مأمون ، لها عين عذبة ، يقصد إليها أصحاب السفن من افريقية والأندلس وغيرهما ، وينسب بهذه النسبة جماعة منهم : أبو بكر محمد بن الفرج الجزائري المصري . . . يروى عن ابن قديد أنه توفي في ذي القعدة سنة ٣٦٨ هـ . . .

كتاب الحاء

(الحجون) آخره نون ، والحجن الاعوجاج ، ومنه (غزوة حجون) التي يظهر فيها الغازي الغزو الى موضع ، ثم يخالف الى غيره ، وقيل هي البعيدة ، والحجون جبل بأعلى مكة ، عنده مدافن أهلها ، قال السكري : مكان من البيت على ميل ونصف ، وقال

السهيلى : على فرسخ وثلاث من سقيفة آل زياد بن عبد الله الحارثي ،
وكان عاملا على مكة في أيام السفاح ، وبعد أيام المنصور ، وقال
الأصمعي : الجبل المشرف الذي بحذاء مسجد البيعة على شعب
الجزارين وقال مضاض بن عمرو الجرهمي يتشوق الى مكة ، لما
أجلتهم عنها خزاعة :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحِجَّوْنَ إِلَى الصَّفَا
أُنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمَرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ^(٢)
بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا
صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَائِرُ^(٣)
فَأَخْرَجْنَا مِنْهَا الْمَلِيكَ بَقْدَرَةٍ
كَذَلِكَ بِالنَّاسِ تَجْرَى الْمَقَادِرُ^(٤)
فَسَحَّتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ تَجْرَى لِبَلَدَةٍ
بِهَا حَرَمٌ أَمِنْ وَفِيهَا الْمَشَاعِرُ

(١) الحجون بفتح الحاء اسم موضع على فرسخ وثلاث من مكة وهو
والصفا جبلان بها ، والسامر : الجماعة يتحدثون بالليل .

(٢) يقال عثر جده يعثر : تعس ، وأعثره الله أنعسه ، والجدة : الحظ

(٣) يحتمل انه يريد انه يريد بالملك الله عز شأنه ، فهو الذي سطر
عليهم من أخرجهم لما عصوه ، ويحتمل انه يريد (عمرو بن لحي) ملك خزاعة
ورئيسهم .

كتاب (الدال)

١ - (دير سمعان) يقال بكسر السين وفتحها ، وهو دير بنواحي (دمشق) في موضع نزه ، وبساتين محدقة به ، وعنده قصور ودور ، وعنده قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ... وروى أن صاحب الدير دخل على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه بفاكهة ، أهداها اليه ، فأعطاه ثمنها ، فأبى (الديراني) أخذه فلم يزل به حتى قبض ثمنها ، ثم قال : يا ديراني انه بلغني أن هذا الموضع ملككم ، فقال : نعم ، فقال : اني أحب أن تبيعني منها موضع قبر سنة ، فاذا حال الحال فانتفع به ، فبكى الديراني وحزن وباعه ، فدفن فيه ، فهو الآن لا يعرف ، وقال الشريف الرضى الموسوى :

يا ابنَ عبدِ الغزيرِ لو بَكَتِ العَيَّةُ نُ فَتَى من أُمِّيَّةٍ لبكِيتُك
أنت أنقذتنا من السب والشَّتَّةِ هم فلو أمكن الجزاءُ جزيتك
دير سمعان لا عدَّتْكَ العوادي خيرُ ميْتٍ من آل مروان ميْتُك

وأما الذي في جبل لبنان فمختلف فيه ، وسمعان هذا الذي ينسب اليه الدير أحد أكابر النصارى ، ويقولون : انه شمعون الصفا ، والله أعلم ، وله عدة أديرة ، منها هذا المقدم ذكره ، وآخر

بنواحي أنطاكية على البحر ، وقال ابن بطلان في رسالته : وبظاهر انطاكية (دير سمعان) ، وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد ، يضاف اليه المجتازون ، وله من الارتفاق كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة ، وقيل ان دخله في السنة أربعمئة ألف دينار . .

٢ - (دير طور سيناء) ويقال كنيسة الطور ، وهو في قلة طور سيناء ، وهو الجبل الذي تجلى فيه النور لموسى عليه السلام وفيه صق ، وهو في أعلى الجبل مبنى بحجر أسود ، وعرض حصنه سبعة أذرع ، وله ثلاثة أبواب حديد ، وفي غربيه باب لطيف ، وقدامه حجر ، اذا أرادوا رفعه رفعوه ، واذا قصدهم قاصد أرسلوه ، فانطبق على الموضع ، فلم يعرف مكان الباب ، وداخلها عين ماء وخارجها عين أخرى ، وزعم النصارى أن بها نارا من أنواع النار الجديدة ، التي كانت في بيت المقدس ، يوقدون منها في كل عشية ، وهي بيضاء ضعيفة الحر ، لا تحرق ، ثم تقوى اذا أوقد منها السرج ، وهو عامر بالرهبان ، والناس يقصدونه .

كتاب السين

(سمرقند) بفتح أوله وثانية ، ويقال لها بالعربية (سمران) بلد معروف مشهور ، قيل انه من أبنية ذى القرنين بما وراء النهر ، وهو قصبة (الصغد) مبنية على جنوبى وادى الصغد مرتفعة عليه ،

قال أبو عون : سمرقند في الاقليم الرابع طولها تسع وثمانون درجة ونصف ، وعرضها ست وثلاثون درجة ونصف ، وقال الأزهرى : بناها (شمر أبو كرب) فسميت (شمر كنت) فأعربت فقل (سمرقند) ، وهكذا تلفظ به العرب في كلامها وأشعارها ، وقال يزيد بن مفرغ يمدح سعيد بن عثمان ، وكان قد فتحها :

لهفي على الأمر الذي كانت عواقبه الندامة
تركي سعيداً ذا الندى والبيت ترفعه الدعامة
فُتحت سمرقند له وبني بعرضتها خيامه

وبالبطيحة من أرض (كسكر) قرية تسمى (سمرقند) أيضاً ، ذكره المفجع في كتاب (المنقذ في الايمان) في أخبار ملوك اليمن ، قال : لما مات (ناسر ينعم) الملك - قام بالملك بعده (شمر ابن أفريقس بن أبرهة) ، فجمع جنوده ، وسار في خمسمائة ألف رجل ، حتى ورد العراق ، فأعطاه (يستاشف) الطاعة ، وعلم ألا طاقة له به ، لكثرة جنوده ، وشدة صولته ، فسار من العراق ، لا يصده صاد الى بلاد الصين ، فلما صار بالصغد - اجتمع أهل تلك البلاد ، وتحصنوا منه بمدينة (سمرقند) ، فاحاط بمن فيها من كل وجه ، حتى استنزلهم بغير أمان ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأمر بالمدينة فهدمت ، فسميت (شمر كند) أي : شمر هدمها ، فعربتها العرب فقالت : سمرقند وقيل : ان (سمرقند) من

بناء الاسكندر ، واستدارة حائطها اثنا عشر فرسخا ، وفيها بستين ومزارع وأرحاء (١) ، ولها اثنا عشر بابا ، من الباب الى الباب فرسخ ، وعلى أعلى السور آراج (٢) وأبرجة للحرب ، والأبواب الاثنا عشر من حديد ، وبين كل باب منزل للنواب ، فاذا جرت المزارع صرت الى (الرض) (٣) ، وفيه أبنية وأسواق ، وفي ربضها من المزارع عشرة آلاف جريب ٠٠٠ ولما ولي سعيد بن عثمان خراسان سنة ٥٥ هجرية من جهة معاوية ، عبر النهر ، ونزل على سمرقند محاصرا لها ، وحلف لا يبرح ، حتى يدخل المدينة ، ويرمى (القهندز) (٤) بحجر او يعطوه رهنا من أولاد عظمائهم ، فدخل المدينة ، ورمى (القهندز) بحجر ، فثبت فيه ، فتطير أهلها بذلك ، وقالوا ثبت ملك العرب فيها ، وأخذ أركانهم وانصرف ، فلما كانت سنة ٨٧ هجرية عبر (قتيبة بن مسلم) النهر ، وغزا بخارى والشاش ، ونزل على سمرقند وهي غزوته الأولى ، ثم غزا ما وراء النهر عدة غزوات فى سبع سنين ، وصالح أهلها على أن له ما فى بيوت النيران وحلية الأصنام ٠٠٠

(١) الارحاء جمع رحي : الطلاحون .

(٢) الآراج : ومفرده أراج : بيوت مبنية طولا ، تشبه الابراج

(٣) الرض : ما حول المدينة

(٤) (القهندز) قال الشهاب الخفاجى فى شفاء الغليل : اسم مدينة

أوجبل ، ويفهم من كلام ياقوت انه معبود أهل المدينة .

كتاب العين

(عدن) بالتحريك وآخره نون ، وهو من قولهم : عدن بالمكان اذ أقام به ، وبذلك سميت (عدن) ، وقال الطبرى : سميت (عدن) و (أبين) بعدن وأبين ابني عدنان ، وهذا عجب لم أر أحدا ذكر أن عدنان كان له ولد اسمه عدن غير ما ذكر فى هذا الموضع ، وهى مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، ردئة لا ماء فيها ولا مرعى ، وشربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو اليوم ، وماؤها مع ذلك ردىء ، الا أن هذا الموضع هو مرفأً مراكب الهند ، والتجار يجتمعون اليه لأجل ذلك ، فانها بلدة تجارة وتضاف الى (أبين) وهو مخلاف : عدن من جملته ، وقال أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني اليمنى : عدن جنوبية تهامية ، وهو أقدم أسواق العرب ، وهو ساحل يحيط به جبل ولم يكن فيه طريق ، فقطع فى الجبل باب بزبر الحديد ، فصار لها طريق الى البر « ♦♦

(عرفات) بالتحريك وهو واحد فى لفظ الجمع ، قال الأخفش : انما صرف لأن التاء صارت بمنزلة الياء والنون فى مسلمين ، وصار التنوين بمنزلة النون ، فلما سمي به ترك على حاله ، وكذلك القول فى أذرعات ، وقال الفراء : (عرفات) لا واحد لها بصحة ، وقول الناس اليوم يوم عرفة ، مولد وليس بعربى محض ، والذي يدل على ما قاله الفراء أن عرفة وعرفات اسم

لموضع واحد ، ولو كان جمعا لم يكن لمسمى واحد ، ويحسن أن يقال : ان كل موضع منها اسمه عرفة ثم جمع ولم يتنكر لما قلنا انها متقاربة مجتمعة ، فكأنها مع الجمع شئ واحد ، وقيل ان الاسم جمع والمسمى مفرد ، فلم ينكر ، والفصيح فى عرفات وأذرعان الصرف ، قال امرؤ القيس : تنورتها من أذرعان وأهلها •

وانما صرفت لأن التاء فيها لم تتخصص للتأنيث ، بل هى أيضا للجمع ، فأشبهت التاء فى بيت ، ومنهم من جعل التوين للمقابلة ، أى مقابلا المنون التى فى جمع المذكر السالم ، وهى على هذا غير مصروفة ، وعرفة وعرفات واحد عند أكثر أهل العلم ، وليس كما قال بعضهم : ان عرفة مولد •

وعرفة حدها من الجبل المشرف على بطن عرفة الى جبال عرفة ، وقرية عرفة موصل النخل بعد ذلك بميلين ، وقيل فى سبب تسميتها بعرفة : ان جبريل عليه السلام عرف ابراهيم عليه السلام المناسك ، فلما وقفه بعرفة - قال له : عرفت ، قال : نعم ، فسميت عرفة ، وقيل بل سميت بذلك ؛ لأن آدم وحواء تعارفا بها ، بعد نزولهما من الجنة ••

(عمان) بالفتح ، ثم التشديد وآخره نون ، يجوز أن يكون فعلا من عم يعم ، فلا ينصرف معرفة وينصرف نكرة ، ويجوز أن يكون فعلا من عمن ، فيصرف فى الحالتين اذا عني به البلد ، وعمان : بلد فى طرف الشام، وكان قصبة أرض اللقاء ••

كذلك ضبطه الخطابي ، ثم حكى فيه تخفيف الميم أيضا والبقاء بالشام ، وقيل : ان عمان هي مدينة (دقيانوس) ، وبالقرب منها الكهف (١) والرقيم (٢) - معروف عند أهل تلك البلاد ، والله أعلم ، وقد قيل غير ذلك وقال أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري : عمان على سيف البادية ، ذات قرى ومزارع ، ورستاقها البلقاء ، وهي معدن الجبوب والأنعام ، بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء ، ولها جامع ظريف في طرف السوق ، مسقف الصحن على جبل يطل عليها ، وبها ملعب سليمان بن داود عليه السلام ، وهي رخيصة الأسعار ، كثيرة الفواكه ، غير أن أهلها جهال ، والطرق اليها صعبة ، قال الأحوص بن محمد الأنصاري :

أقول بعمان وهل طربي به
إلى أهل سلع (٣) إن تشوقت نافع

وقال الخطيم العكلي يذكر عمان :

أعوذ بربي أن أرى الشام بعدها وعمان ما غنى الحمام وغردا

(١ - ٢) الكهف هو غار في الجبل ، والرقيم لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف ، ونصب على بابه ، وقيل الرقيم : الكتاب ، ومنه كتاب مرقوم أى مكتوب ، وقيل الرقيم : اسم الوادي الذي كان فيه الكهف .
(٣) سلع بالفتح مدينة الانباط ، وسى (بطرا) باليونانية Petra

وإطلالها باقية بوادي موسى ..

وينسب الى (عمان) أسلم بن محمد بن سلامة بن عبد الله
ابن عبد الرحمن الكنانى العمانى ، قال الحافظ أبو القاسم من أهل
عمان .. قدم دمشق وحدث بها عن عطاء بن السائب بن أحمد
ابن حفص العمانى المخزومى ، ومحمد بن هرون بن بكار ،
وعبد الله بن محمد بن جعفر القزوينى القاضى ، وروى عنه
أبو الحسين الرازى ، وأبو بكر أحمد بن صانى مولى الحباب
ابن رحيم البزاز ..

كتاب الغين

(الغوطة) بالفتح ثم السكون وطاء مهملة ، من الغائط ،
وهو المظمن من الأرض ، وجمعه غيطان وأغواط وقال
ابن الأعرابى : الغوطة مجتمع النبات ، وقال ابن شميل : الغوطة :
الوعدة فى الأرض المظمنة ، والغوطة : الكورة التى منها (دمشق)
استدارتها ثمانية عشر ميلا ، تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها،
ولا سيما من شماليها ، فان جبالها عالية جدا ، ومياها خارجة من
تلك الجبال ، وتمد فى الغوطة عدة أنهر ، فتسقى بساتينها وزروعها ،
ويصب باقيها فى أجمة هناك وبحيرة ، والغوطة كلها أشجار وأنهار
متصلة ، قبل أن يكون بها مزارع للمستغلات ... وهى بالاجماع
أنزه بلاد الدنيا ، وأحسنها منظرا ، وهى احدى جنان الدنيا الأربع ،
وهى الصُّفْدُ ، والأبلة ، وشعب بوان ، والغوطة ، وهى من أجلها ،

والغوطة بالضم أيضا ، يقال : غاط في الأرض غوطا وهي غوطة أى منخفضة ، وهي بلد في بلاد طيء ..

كتاب الفاء

(الفراديس) جمع فردوس ، وأصله رومى معرب ، وهو البستان ، هكذا قال المفسرون ، وقد قيل : إن الفردوس تعرفه العرب ، وتسمى الموضع الذى فيه كرم : فردوسا ، وقيل كل موضع في فضاء : فردوس ، والفردوس مذكر ، وانما أنت في قوله تعالى : « الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » • لأنه عنى الجنة • • وأهل الشام يسمون الكروم والبساتين : الفراديس ، موضع بقرب دمشق ، وباب الفراديس من أبواب دمشق • • • والفردايس موضع قرب حلب بين برية (خساف) و (حاضر) طيء من أعمال (قسرين) ، وإياها عن المتنبى بقوله ، وقد اجتاز بها فسمع زئير الأسد :

أَجَارِكِ يَا أَسَدَ الْفَرَادِيسِ مُكْرَمٌ ؟
فَتَسْكُنَ نَفْسِي أَمْ مَهَانٌ فَمُسْلَمٌ (١)

(١) يقول المتنبى مخاطبا اسود هذا اللسان : هل يكون من جاورك مكرما عزيزا ، فتسكن نفسى الى جوارك ، أو يكون مهانا مخدولا ، ونوله : فتسكن نفسى جواب الاستفهام ، ولذلك نصبه بالفاء .

ورأى وقد أوى عُدَاة كثيرة

أحاذِرُ من لصٍّ ومِنِكَ وَمِنْهُمْ (١)

فهل لك في حِلْفِي على ما أريده

فإنَّ بِأسْبَابِ المعيشَةِ أعلم (٢)

٢ - (الفسطاط) وفيه لغات ، وله تفسير واشتقاق ، وسبب يذكر عن ذكر عمارته ، وأنا أبدأ بحديث فتح مصر ، ثم أذكر اشتقاقه ، والسبب في استحداث بنائه ، حدث الليث بن سعد وعبد الله ابن لهيعة عن يزيد بن جليب وعبيد الله بن أبي جعفر ، وعياش ابن عباس . . أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قدم الجابية خلا به عمرو بن العاص ، وذلك في سنة ١٨ من التاريخ (الهجرى) ، فقال يا أمير المؤمنين ائذن لى فى المسير الى مصر ، فانك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الأرضين أموالا ، وأعجز عن حرب و قتال ، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين ، وكره ذلك ، فلم يزل عمرو بن العاص ينظم أمرها عنده ، ويخبره بحالها ، ويهون عليها أمرها فى فتحها ، حتى ركن عمر بن الخطاب لذلك ، فعقد له على أربعة آلاف رجل . . قال أبو عمرو الكندى انه سار ومعه ثلاثة آلاف وخمسمائة . . وقال له سر وأنا مستخير الله تعالى فى

(١) وانما اطلب جوارك لآمن هؤلاء الذين اخافهم واخذرهم .

(٢) والحلف : اسم من المحالفة ، وهى المعاهدة ، يقول : هل لك رغبة فى معاهدتى على ما أريده من جوارك فانى أعلم منك بأسباب المعيشة ، والتصرف فى كسب الرزق ، وهذا ترغيب من المتنبي للأسد ، لكى ترضى بجواره

تسيرك ، وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى ، فإن لحقك كتابي آمرك فيه بالانصراف من مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وان دخلتها قبل أن يأتيك كتابي ، فامض لوجهك ، واستعن بالله واستنصره ، فسار عمرو بن العاص بالمسلمين واستخار عمر بن الخطاب الله تعالى ، فكأنه تخوف على المسلمين ، فكتب الى عمرو يأمره أن ينصرف ، فوصل اليه الكتاب وهو برفح فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه ، حتى نزل العريش ، ف قيل له : انها من مصر ، فدعا بالكتاب وقرأه على المسلمين ، وقال لمن معه تعلمون أن هذه القرية من مصر ، قالوا : نعم ، قال فان أمير المؤمنين عهد الى أن لحقني كتابه ، ولم أدخل أرض مصر - أن أرجع وقد دخلت أرض مصر ، فسيروا على بركة الله .. فكان أول موضع قوتل فيه (الفرما) قتالا شديدا نحو شهرين ، ففتح الله له ، وتقدم لا يدافع الا بالأمر الخفيف ، حتى أتى (بليس) فقاتلوه بها نحواً من الشهر ، حتى فتح الله عز وجل له ، ثم مضى لا يدافع الا بأمر خفيف ، حتى أتى (أم دين) وهي المقس ، فقاتلوه قتالا شديدا نحو شهرين ، وكتب الى عمر رضى الله عنه يستمده ، فأمدّه باثنى عشر ألفاً ، فوصلوا اليه أرسالا ، يتبع بعضهم بعضاً ، وكتب اليه قد أمددتك باثنى عشر ألفاً ، وما يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة ، وكان فيهم أربعة آلاف عليهم أربعة من الصحابة الكبار : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، رضى الله عنهم ، وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة ، ثم أحاط

المسلمون بالحصن ، وأمير الحصن يومئذ (المندفور) الذى يقال له : الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى ، وكان المقوقس ينزل الاسكندرية ، وهو فى سلطان هرقل .. ونصب عمرو فسطاطه فى موضع الدار المعروفة باسرائيل على باب زقاق الزهرى ، وأقام المسلمون على باب الحصن محاصرى الروم سبعة أشهر ، ورأى الزبير بن العوام خلا مما يلي دار أبى صالح الحرانى ، الملاصقة لحمام أبى نصر السراج عند سوق الحمام ، فنصب سلما وأسنده الى باب الحصن ، وقال : انى أهب نفسى لله عز وجل ، فمن شاء أن يتبعنى فليفعل ، فبعه جماعة ، حتى أوفى على الحصن ، فكبر وكبروا ، ونصب شرحبيل بن حجية المرادى سلما آخر ، مما يلي زقاق الزمامرة ، ويقال ان السلم الذى صعد عليه الزبير - كان موجودا فى داره ، التى بسوق وردان ، الى أن وقع حريق فى هذه الدار ، فاحترق بعضه ، ثم أحرق ما بقى منه فى ولاية عبد العزيز ابن محمد بن النعمان .. فلما رأى المقوقس أن العرب قد ظفروا بالحصن - جلس فى سفينته هو وأهل القوة ، وكانت ملصقة باب الحصن الغربى ، ولحقوا بالجزيرة ، وقطعوا الجسر ، وتحصنوا هناك ، والنيل حينئذ فى مده ، وقيل ان الأعيرج خرج معهم ، وقيل أقام بالحصن ، وسأل المقوقس فى الصلح ، فبعث اليه عمرو (عبادة بن الصامت) ، وكان رجلا أسود ، طوله عشرة أشبار ، فصالحه المقوقس عن القبط والروم ، على أن للروم الخيـار فى الصلح الى أن يوافى كتاب ملكهم ، فان رضى تم ذلك ،

وان سخط انتقض ما بينه وبين الروم ، وأما القبط فبغير خيار . . .
وكان الذى انعقد عليه الصلح أن فرض على جميع من بمصر أعلاها
وأسفلها من القبط دينارين عى كل نفس فى السنة ، من البالغين
شريفهم ووضيعهم ، دون الشيوخ والنساء والأطفال ، وعلى أن
للمسلمين عليهم النزول حيث نزلوا ثلاثة أيام ، وأن لهم أرضهم
وأموالهم لا يعترضون فى شىء منها ، وكان عدد القبط يومئذ
أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، والمسلمون خمسة عشر ألفا ،
فمن قال ان مصر فتحت صلحا تعلق بهذا الصلح ، وقال : ان
الأمر لم يتم الا بما جرى بين عبادة بن الصامت والمقوقس ، وعلى
ذلك أكثر علماء مصر ، ومنهم عقبة بن عامر ، وابن أبى حبيب ،
والليث بن سعد وغيرهم ، وذهب الذين قالوا انها فتحت عنوة الى أن
الحصن فتح عنوة ، فكان حكم جميع الأرض كذلك ، وبه قال
عبد الله بن وهب ، ومالك بن أنس وغيرهما ، وذهب بعضهم الى أن
بعضها فتح عنوة ، وبعضها فتح صلحا ، منهم ابن شهاب ،
وابن لهيعة ، وكان فتحها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة ٢٠
للهجرة . . وللعرب ست لغات فى الفسطاط ، يقال فسطاط بضم
أوله ، وفسطاط بكسره ، وفساط بضم أوله واسقاط الطاء الأولى ،
وفساط باسقاطها وكسر أوله ، وفسطاط ، وفسطاط بدل الطاء تاء ،
ويضمون ويفتحون ، ويجمع فساطيط ، وأما معناه فان الفسطاط
الذى كان لعمر بن العاص فهو بيت من آدم أو شعر ، وقال صاحب
العين : الفسطاط ضرب من الأبنية ، قال والفسطاط أيضا مجتمع أهل

الكورة حوالى مسجد جماعتهم ، يقال هؤلاء أهل الفسطاط ، وفى الحديث عليكم بالجماعة فان يد الله على الفسطاط ، يريد المدينة التى يجتمع فيها الناس ، وكل مدينة فسطاط ، قال ومنه قيل لمدينة مصر - التى بناها عمرو بن العاص - فسطاط

كتاب القاف من معجم البلدان

١ - (القرافة) بالفتح وزيادة هاء فى آخره خطة بالفسطاط من مصر ، كانت لبنى غصن بن يوسف بن وائل من المعافر ، وقرافة بطن من المعافر نزلوها فسميت بهم ، وهى اليوم مقبرة أهل مصر ، وبها أبنية جليلة ، ومحال واسعة ، وسوق قائمة ، ومشاهد للصالحين ، وترب الأكابر مثل ابن طولون والماذرانى تدل على عظمة وجلال ، وبها قبر الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه فى مدرسة للفقهاء الشافعية ، وهى من نزه أهل القاهرة ومصر ومتفرجاتهم فى أيام المواسم قال أبو سعد محمد بن أحمد العميدى :

إِذَا مَا ضَاقَ صَدْرِي لَمْ أَجِدْ لِي مَقَرَّ عِبَادَةٍ إِلَّا الْقِرَافَةَ
لَنْ لَمْ يَرْحَمْ الْمَوْلَى اجْتِهَادِي وَقَلَّةَ نَاصِرِي لَمْ أَلْقَ رَافَةَ

ونسب اليها قوم من المحدثين منهم أبو الحسن على بن صالح الوزير القرافى ، وأبو الفضل الجوهري القرافى ، ونسبوا الى البطن من المعافر أبا دجانة أحمد بن ابراهيم بن الحكم بن صالح القرافى ،

حدث عن حرملة بن يحيى ، وهو وزير سعيد الأربلي وغيره وتوفى سنة ٤٩٩ هـ ، قاله ابن يونس ، والقرافة أيضا موضع بالاسكندرية ، تروى عنه حكايات ، وأنشد أبو سعد محمد بن أحمد العميدى يذكر قرافة مصر ، وأعاد البيتين المذكورين •

٢ - (قرقشندة) : قرية بأسفل مصر ، ولد بها الليث بن سعد ابن عبد الرحمن المصرى الفقيه مولى بنى فهم ، ثم مولى آل خالد بن ثابت بن طاعن ، وأهل بيته يقولون : ان أصله من الفرس من أهل أصفهان ولد سنة ٩٤ هـ وتوفى فى نصف شعبان سنة ١٧٥ هـ ، وقال القضاعى : دار الليث بن سعد ومسجده عند ثقيفة مفلس بالحمراء فى زقاق الليث ، وكان ليث دار بقرقشندة بالريف بناها ، فهدمها ابن رفاعه أمير مصر عنادا له ، وكان ابن عمه ، ثم بناها الليث ثانية ، فهدمها ابن رفاعه ، فلما كان الثالثة أتاه آت فى المنام وقال له : قم يا ليث ، ثم قرأ قوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، الآية ، فأصبح ، وقد فلج ابن رفاعه فأوصى اليه ، ومات بعد ثلاث •

باب الكاف

(الكوفة) بالضم المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق ، ويسمىها قوم (خد العذارى) ، قال أبو بكر محمد بن القاسم : سميت الكوفة لاستدارتها أخذا من قول العرب : رأيت كوفاً

أو كوفانا بضم الكاف وفتحها للمريلة المستديرة ، وقيل سميت الكوفة
كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم : قد تكوف الرمل يتكوف
تكوفا ، اذا ركب بعضه بعضا ، وطول الكوفة تسع وستون درجة ،
وعرضها احدى وثلاثون درجة وثلثان ، وهى فى الاقليم الثالث ،
ويقال أخذت الكوفة من الكوفان ، يقال : هم فى كوفان أى فى
بلاء وشر ، وقيل سميت كوفة ؛ لأنها قطعة من البلاد ،
من قول العرب : قد أعطيت فلانا كيفة أى قطعة ، ويقال :
كفت أكيف كيفا اذا قطعت ، فالكوفة قطعة من هذا ، انقلبت
فيها الياء واوا ، لسكونها وانضمام ما قبلها ، وقال قطرب : يقال
القوم فى كوفان أى فى أمر يجمعهم ، قال أبو القاسم : قد ذهب
جماعة الى أنها سميت كوفة بموضعها من الأرض ، وذلك أن كل
رملة يخالطها حصاء تسمى كوفة ، وقال آخرون : سميت كوفة ؛
لأن جبل (سائيدما) يحيط بها كال كاف عليها ، وقال الكلبي :
سميت بجبل صغير فى وسطها ، كان يقال كوفان ، وقد سماها عبدة
ابن الطيب كوفة الجند ، فقال :

ان التى وضعت بيتا مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول

وأما تمصيرها وأوليته فكان فى أيام عمر بن الخطاب ، رضى
الله عنه ، فى السنة التى مصرت فيها البصرة ، وهى سنة ١٧ هجرية
وقال قوم : انها مصرت بعد البصرة بعامين فى عام ١٩ هجرية ،
وقيل سنة ١٨ هجرية . . . ، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى :

لما فرغ سعد بن أبي وقاص من وقعة (رستم بالقادسية) ، وضمن
أرباب القرى ما عليهم ، بعث من أحصاهم ، ولم يسمهم حتى يرى
عمر فيهم رأيه ، وكان الدهاقين صالحوا المسلمين ، ودلوهم على
عورات فارس ، وأهدوا لهم ، وأقاموا لهم الأسواق ، ثم توجه سعد
نحو المدائن الى (يزدجرد) وقدم خالد بن عرفطة حليف بني
زهرة بن كلاب - فلم يقدر عليه سعد ، حتى فتح خالد سبابط
المدائن ، ثم توجه الى المدائن ، فلم يجد معابر ، فدلوه على مخاضة
عند قرية الصيادين أسفل المدائن ، فأخاضوها الخيل حتى عبروا ،
وهرب (يزدجرد) الى (اصطخر) ، فأخذ خالد (كربلاء) غنوة ،
وسبى أهلها ، فقسمها سعد بين أصحابه ، ونزل كل قوم في ناحية
•• وكتب عمر الى سعد ان العرب لا يصلحها من البلدان الا
ما أصلح الشاء والبعير ، فلا تجعل بيني وبينهم بحرا ، وعليك
بالريف ، فأتاه ابن ببيعة فقال له : أدلك على أرض انحدرت عن
الفلاة ، وارتفعت عن البقية ، قال نعم : فدله على موضع الكوفة
اليوم ، وكان يقال له (شورستان) فأنتهى الى موضع مسجدتها ،
فأمر راميا فرمى بسهم قبل مهب القبلة ، فعلم على موقعه ، ثم علم
دار امارتها ومسجدتها ••• وقال ابن عباس : كانت منازل أهل
الكوفة ، قبل أن تبنى - أخصاصا من قصب ، اذا غزوا قلعوها
وتصدقوا بها ، فاذا عادوا بنوها ، فكانوا يغزون ونساؤهم معهم ،
فلما كان في أيام المغيرة بن شعبة بنت القبائل باللبن من غير ارتفاع
••• وكتب عمر بن الخطاب الى سعد أن اختط موضع المسجد

الجامع على عدة مقاتلتكم ، فخط على أربعين ألف انسان ، فلما قدم
 زياد زاد فيه عشرين ألف انسان ، وجاء بالآجر وبأساطينه من
 الأهواز ، وكان (سلمان الفارسي) يقول : أهل الكوفة أهل الله ،
 وهى قبة الاسلام ، يحج إليها كل مؤمن ، وأما مسجدتها فقد رويت
 فيه فضائل كثيرة ، روى حبة العرنى ، قال : كنت جالسا عند على
 عليه السلام ، فأتاه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين هذه راحلتى
 وزادى ، أريد هذا البيت ، أغنى : بيت المقدس ، فقال عليه السلام :
 كل زادك وبع راحلتك ، وعليك بهذا المسجد (يعنى مسجد
 الكوفة) ، فانه أحد المساجد الأربعة ، ركعتان فيه تعدلان عشرا
 فيما سواه من المساجد والبركة منه الى اثنى عشر ميلا من حيث
 ما أتته ، وهى نازلة من كذا ألف ذراع ، وفى زاويته فار التنور ،
 وعند الأسطوانة الخامسة صلى ابراهيم عليه السلام ، وقد صلى فيه
 ألف نبى ، وألف وصى ، وفيه عصا موسى و (الشجرة اليقطين) (١)
 وفيه هلك يغوث ويعوق ... وفيه مسير لجبل الأهواز ، وفيه مصلى
 نوح عليه السلام ، ويحشر فيه يوم القيامة سبعون ألفا ليس عليهم
 حساب ، ووسطه على روضة من رياض الجنة ، وفيه ثلاث أعين من
 الجنة ... ومن حفاظ الكوفة محمد بن العلاء بن كريب الهمداني
 الكوفي ، روى عنه أبو عبد الله البخارى ، ومسلم بن الحجاج ، وأبو
 داود السجستاني وأبو عيسى الترمذى ، وأبو عبد الرحمن الغساني ،
 وابن ماجة القزوينى ...

(١) اليقطين : قال فى المنجد : مما لا ساق له من النبات كالقثاء ،
 وغلب على القرع المستدير ، الواحدة يقطينة قيل : ومنه البطيخ واحده بهاء ..

كتاب الميم

(مرو الشاهجان) هذه مرو العظمى أشهر مدن خراسان وقصبتها ، نص عليه الحاكم أبو عبد الله فى تاريخ (نيسابور) مع كونه ألف كتابه فى فضائل (نيسابور) - الا أنه لم يقدر على دفع فضل هذه المدينة ، والنسبة اليها (مروى) على غير قياس ، وبين مرو ونيسابور سبعون فرسخا ، ومنها الى (سرخس) ثلاثون فرسخا ، والى (بلخ) مائة واثان وعشرون فرسخا ... أما لفظ (مرو) فقد ذكرنا أنه بالعربية : الحجارة البيض ، التى يقتدح بها ، الا أن هذا عربى ، وما زالت (مرو) عجمية ، ثم لم أر بها من هذه الحجارة شيئا ألبتة ، وأما (الشاهجان) فهى فارسية ، معناها نفس السلطان ؛ لأن الجان هى النفس أو الروح ، والشاه هو السلطان ، سميت بذلك لجلالتها عندهم ... قال أبو عون اسحق بن على فى زيجة : مرو فى الاقليم الرابع ، طولها أربع وثمانون درجة وثلاث ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وشنع على أهل خراسان ، وادعى عليهم البخل ، كما زعم ثمامة أن الديك فى كل بلد يلفظ ما يأكله من فيه للدجاجة الا ديك (مرو) فانها تسلب الدجاج ما فى مناقيرها من الحب ، وهذا كذب ظاهر بين للعيان ، لا يقدم على مثله الا الوقاع البهات ، الذى لا يتوقى الفضوح والعار ، وما ديك (مرو) الا كالديكة فى جميع الأرض ... وقد أخرجت مرو من الأعيان وعلماء الدين والأركان - ما لم تخرج

مدينة مثلهم ، منهم أحمد بن محمد ابن حنبل الامام ، وسفيان ابن سعيد الثوري ، مات وليس له كفن ، واسمه حتى الى يوم القيامة ، واسحق بن راهويه ، وعبد الله بن المبارك وغيرهم ، وكان السلطان (سنجر بن ملك شاه السلجوقي) مع سعة ملكه - قد اختارها على سائر بلاده ، وما زال مقيما بها الى أن مات ، وقبره بها في قبة عظيمة ، لها شباك الى الجامع ، وقتها زرقاء ، تظهر من مسيرة يوم وبمرو جامعان للحنفية والشافعية ، يجمعهما السور ، وأقيمت بها ثلاثة أعوام ، فلم أجد فيها عيا الا ما يعترى أهلها من العرق (١) فانهم منه في شدة عظيمة ، قل من ينجو منه في كل عام ، ولولا ما عرا أهلها من ورود التتر الى هذه البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات ، لما في أهلها من الرشد (٢) ، ولين الجانب ، وحسن العشرة ، وكثرة كتب الأصول المتقنة بها ، فاني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف ، لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانة في الجامع ، احدهما يقال لها العزيزية ، وقفها رجل يقال له عز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني ، أو عتيق بن أبي بكر ، وكان (فقاعيا) (٣) للسلطان سنجر وكان في أول أمره

(١) العرق : قيل هو المسكر الذي يتخذ بالتقطير من العنب ونحوه .

(٢) الرشد : العطاء والمعونة .

(٣) (فقاعيا) : يقال : الفقاع الشراب يتخذ من الشعير ، سمي به

لما يعلوه من الزبد والفقاعي : بائع الفقاع .

يبيع الفاكهة والريحان بسوق (مرو) ، ثم صار (شرايا) له ،
وكان ذا مكانة ، وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد ، أو ما يقاربها ،
والأخرى يقال لها (الكمالية) ، لا أدرى الى من تنسب ، وبها
خزانة شرف الملك المستوفى أبى سعد محمد بن منصور فى مدرسته ،
ومات المستوفى هذا فى سنة ٤٩٤ هجرية ، وكان حنفى المذهب
وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحق فى مدرسته ، وخزانتان
للمسماعين ، وخزانة أخرى فى المدرسة العميدية وخزانة
لمجد الدولة أحد الوزراء المتأخرين بها ، وخزانة الخانوتية
فى مدرستها ، والضميرية فى (خانكاه) هناك ، وكانت سهلة
التناول ، لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد ، وأكثره بغير رهن ،
فكنت أرتع فيها ، وأقتبس من فوائدها ، وأنسانى حبها كل بلد ،
وألهمانى عن الأهل والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما
جمعت - هو من تلك الخزائن ، وكثيرا ما كنت أترنم عند كوفى
يمرو بقول بعض الأعراب •

أقريّة الوادى التى خانَ إلفها من الدهر أحداثُ أتتْ وخطوبُ
تعالى أطارحك البكاء فإننا كلانا بمرور الشاهجان غريبُ

حرف الياء

(يثرب) بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر الراء ، وباء موحدة ،
قال أبو القاسم الزجاجى : يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ،

سميت بذلك ؛ لأن أول من سكنها عند التفرق يثرب بن قانيه بن مهلائيل بن ارم بن عيل بن عوض بن سام بن نوح عليه السلام ،
عَلَمًا نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها (طيبة) وطابة كراهية للتثريب ، وسميت مدينة الرسول لنزوله بها ، قال : ولو تكلف متكلف أن يقول في (يثرب) انه يفعل من قولهم : لا تثريب عليكم ، أى لا تعير ولا عيب ، كما قال تعالى : « لا تثريب عليكم اليوم » قال المفسرون وأهل اللغة لا تعير عليكم بما صنعتم ، ويقال : أصل التثريب : الفساد ، ويقال : ثرب علينا فلان ، وفي الحديث : « اذا زنت أمة أحدكم ، فليجلدها ولا يثرب » أى لا يعير بالزنا . . . ثم اختلفوا فقل : ان يثرب للناحية التى منها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال آخرون : بل يثرب ناحية من مدينة النبی صلى الله عليه وسلم ، ولما حملت نائلة بنت الفرافصة الى عثمان بن عفان (رضى الله عنه) من الكوفة ، قالت تخاطب أخاها :

أحقا تُراه اليوم يا ضبُّ إننى مصاحبةٌ نحو المدينة أُرْكبا
قضى الله حقا أن تموتى غريبةً بيثربَ لا تلتين أما ولا أبا

قال ابن عباس رضى الله عنه : من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثا ، انما هى طيبة ، وقال النبی صلى الله عليه وسلم لما هاجر :

« اللهم انك اخرجتني من أحب أرضك الى ، فأسكني أحب
أرضك اليك ، ، فأسكنه المدينة •

مادة معجم البلدان

وقيمتها الجغرافية والأدبية والتاريخية

يتبين لنا من عرض النماذج السابقة أن مادة معجم البلدان
متنوعة ، حافلة بوثائق على جانب من الأهمية عن الديار التي تتألف
منها دولة الخلافة الاسلامية ، وأن ياقوتا قد وجه اهتماما ملحوظا الى
العالم الاسلامي كما وجه مزيدا من عنايته الى ضبط أسماء الأماكن
والبلدان والبقاع وغيرها بالحروف ، نقلا عن المصادر التي لا يشك
في صحة ضبطها ، مع ذكر اشتقاقاتها ان كانت عربية ، ويقتصر في
الغالب على ذكر معانيها ان كانت أعجمية ، ونلاحظ أيضا اهتمامه
بتسجيل ما قد يوجد في هذه الأماكن من آبار وآثار وعجائب
وصناعات وغيرها ، ولا تفوته الإشارة الى بيان الاقليم التي ينتسب
اليه كل مكان من هذه الأماكن •

وهناك ناحية فلكية يعول عليها كثيرا ، وهي الحديث عن طالع
المكان ، واسم الكوكب المستولى عليه ، ثم ما بينه وبين ما يجاوره من
أمكنة لها شهرة تاريخية ، ثم ما بين هذه الأماكن وغيرها من مسافات ،
مع تحديد مداها •

وقد حاول التعرف على أماكن من أوربة الشرقية والشمالية ،

ولكن معلوماته عن هذه الأجزاء من العالم الغربي لم تكن على درجة من العمق ، بحيث تصل الى مستوى معلوماته عن بلاد العالم الاسلامى ، التى وزع اهتمامه عليها وعلى بلاد الشرق الأقصى بدرجة واحدة •

ولا يغفل ياقوت النواحي التاريخية ، لما لها من ارتباط قوى بجغرافية الأمكنة ؛ لأنها تلقى ضوءا على ناحية يستهدفها من كتابه ، وهى الناحية الدينية ، فيذكر ما حدث فى هذه الأمكنة والبقاع من وقائع حربية فى الجاهلية والاسلام ، مستشهدا على ذلك بما قيل من الأشعار ، موضحا حكمها من حيث الفتح الاسلامى ، هل فتحت صلحا أو عنوة ؟ أو فتحت صلحا وعنوة معا ؟ والغاية من ذلك تقرير موقف البلد أو المدينة من الناحية الشرعية ، وحكمه فى الفىء والجزية ، وقد رأينا ياقوتا عندما تحدث عن (الفسطاط) - يسهب فى شرح الأسباب ، التى تذرع بها عمرو بن العاص لفتح مصر ، واحتياله على الخليفة عمر بن الخطاب ؛ لكى يوافق على المضى فى فتح هذا البلد الطيب ، الذى اشتهر بخصوبة أرضه ، وكثرة خيراته •

ويعرض ياقوت لآراء بعض الفقهاء فى حكم مصر ، من حيث فتحها صلحا أو عنوة ، وما يترتب على ذلك من أحكام فقهية ، كذلك نراه يوجه عناية كبيرة الى تحديد الزمن الذى تم فيه الفتح ، وكيف فتح البلد ؟ ومن كان أميره بعد الفتح ؟ ومن استشهد فيه من الصحابة رضوان الله عليهم ، أو دفن فيه من الأعيان والصالحين ؟ ومن نبغ من

أَهْلُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوْ الْكُتَّابِ أَوْ الشُّعْرَاءِ ؟ وَلَا يَنْتَنِي أَنْ يَقْصَّ شَيْئًا مِنْ
شَعْرِهِمْ وَأَنَارِهِمْ ♦

وَيَأْقُوتُ فَضْلًا عَنْ ذَلِكَ يَحْفَلُ بِالنَّوَاحِي الاجتماعية ، الَّتِي كَانَ
عَلَيْهَا سُكَّانُ هَذِهِ الْبُلْدَانِ وَالْمَدَنِ وَالْأَمَاكِنِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَيُحَدِّثُنَا عَمَّا
اشْتَهَرُوا بِهِ مِنْ كَرِيمِ الْحَلَالِ أَوْ سَيِّئِ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ ، وَنَرَاهُ أَمِينًا
دَقِيقًا فِي كُلِّ مَا يُحَدِّثُنَا عَنْهُ ، فَهُوَ يُفْنِدُ مَا قَدْ يَكُونُ قَدْ وَجَّهَ إِلَيْهِمْ مِنْ
اتِّهَامَاتٍ ، وَمَا وَصَفُوا بِهِ مِنْ صِفَاتٍ - إِنْ كَانَتْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَمِنْ
الْأَسْفِ أَنَّهُ لَمْ يَفْصِلِ الْكَلَامَ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ بَلَدٍ ، وَيَبْدُو
أَنَّهُ مُعْذُورٌ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ بَاحِثٌ مُجْتَهِدٌ ، وَقَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْجَلَ
مَا وَصَلَ إِلَيْهِ بِاجْتِهَادِهِ ، أَوْ نَقَلَ عَنْ غَيْرِهِ ♦

وَيَأْقُوتُ مَعَ كُلِّ هَذَا لَا يَهْمِلُ الْحَدِيثَ عَنْ نَاحِيَةٍ لَا تَتَّفَقُ مَعَ
الْمَعْقُولِ ، وَلَا تُثَبِّتُ أَمَامَ التَّحْقِيقِ التَّارِيخِيِّ الدَّقِيقِ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْقِصَّةُ
الَّتِي رَوَاهَا عَنْ (أَرَمِ ذَاتِ الْعِمَادِ) وَغَيْرِهَا مِنْ قِصَصٍ ، وَمِنْ الْعَجِيبِ
أَنْ يَذْكَرَ لَنَا هَذِهِ الْمُنْقُولَاتِ الْخُرَافِيَّةَ ، وَيُبْرِئَ نَفْسَهُ مِنْ تَهْمَةِ زَيْفِهَا
وَعَدَمِ صَحَّتِهَا ، وَيَجْتَجِجُ لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ نَاقِلٌ فَحَسْبُ ؛ لِأَنَّ الْمَسْئُولِيَّةَ مِنْ
حَيْثُ الصَّحَّةِ وَالْكَذِبِ - إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى الْمَصْدَرِ الْأَصْلِيِّ ، الَّذِي حَاكَ
الْقِصَّةَ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ حَوَادِثِهَا ، وَرَوَاهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ♦

وَمِنْ الشُّعْرَاءِ الَّذِي رَوَى لَهُمْ : الْمُتَنَبِّيُّ ، وَالْأَحْوَصُ ، وَدَعْبَلُ
الْحَزَاعِيُّ ، وَابْنُ قَيْسِ الرِّقِيَّاتِ ، وَابْنُ بَحْتَرَى وَغَيْرُهُمْ ، وَيَقْرُرُ (أَمَارَى)

Amar أن ياقوتا هو المؤلف الجغرافي الذي أشار في معجمه الى مؤلفين مفقودين من صقلية أحدهما أبو علي الحسن (١٠٥٠) م والآخر هو (ابن القطاع) المتوفى سنة (٥١٥ هـ - ١١٢١ م) ، وأن ياقوتا اعتمد عليهما فيما رواه من معلومات جغرافية عن هذه الجزيرة •

وياقوت يروى في وضوح نظرة العرب والمسلمين الى علوم الجغرافية ، باعتبارها من العلوم الخادمة لأحكام الشريعة الاسلامية الغراء ، تلك الأحكام التي ينبغي أن تطبق تطبيقا عادلا على البلاد المفتوحة ، وذلك مما يلقي ضوءا كاشفا على اتجاهات المسلمين نحو العلوم ، فهم ينظرون اليها نظرة عملية ، فالحقائق العلمية في رأيهم وفي منهجهم في الحياة - ليست مقصودة لذاتها بقدر ما هي وسيلة لتوفير الخير وتحقيق الرفاهية للناس ، والنهوض بمستوى حياتهم في مجتمعهم •

ولا شك أن عصرنا الحاضر يتميز بتقدم (التكنولوجيا) والتطبيقات العملية للعلوم ، واستخدامها فيما يحقق السعادة للانسان ، بصرف النظر عن استخدامها في النواحي التدميرية ، فتلك ناحية انحرافية تأباها طبيعة العلم الصحيح ، لذلك قد يدهش الباحث حين يتضح له أن العرب كانوا يدركون من قبل مزايا التطبيق العملي للعلوم التي عرفوها ، فقد عرفوا منذ بدءوا في وضع أسس النحو وقواعده ؛ لضبط التلاوة في المصحف الشريف ؛ ولاتقاء اللحن

فى أحاديثهم ، وكتاباتهم حول ما يدور ويتصل بحياتهم ؛ ذلك لأنهم كانوا يؤمنون بأن لكل علم من العلوم قيمة عملية، واذن فليس عجباً أن نجد الدوافع التى حملتهم على ابتكار ما ابتكروه فى ميادين العلوم نابعة من حاجتهم الى الانتفاع بها فى حياتهم •

ولو أن ركب العلم الإسلامى استمر فى زحفه الى الأمام ، ولم تقف فى سبيله الحوائل - لأصبح العرب والمسلمون فى عصرنا سادة الدنيا ، ولكنهم جمدوا ، ووقف تيار العلوم فى ديارهم ، بسبب انهيارهم السياسى ، وتفتت وحدتهم وانقسام عرا الروابط ، التى كانت تربط بين أجزاء الدولة العربية الإسلامية الكبرى ، من أجل ذلك تفرق العلماء حين فقدوا الأمن النفسى والاطمئنان والتشجيع ؛ لذلك أصبحوا لا يفكرون فى العلم بقدر ما كانوا يفكرون فى النجاة من العدو محافظة على أرواحهم ، والتماساً لديار ومواطن جديدة ، يشعرون فيها بالأمن والاستقرار ، وبالرغم من ذلك فقد كانت هناك أشعة قوية من العلم تلوح حيناً بعد حين ، فتعطر الأجواء بعبيرها الجميل الساحر ؛ الى أن استقر هؤلاء العلماء فى القاهرة قلب العالم الإسلامى وقتئذ ، والتى أصبحت مركز الثقافة العربية الإسلامية ، فأخذوا منذ توافرت لهم عوامل الاطمئنان والبحث يسلطون أضواء قوية على التراث الضائع والعمل على جمع ما تشتت منه ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، فقد سنحت لهم فرص الابتكار فى العلم من جديد •

ففى عصر الدولة الفاطمية يبرز بعض العلماء الكبار ، وعلى

رأسهم العالم الطبيعي والمهندس العظيم ابن الهيثم الذي حاول في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي تطبيق نظرياته الهندسية على مشروع في النيل ، يشبه مشروع السد العالي ولكنه يصطدم بعقبات لا قبل له بها ، وهي الامكانيات المادية ، والقوى البشرية المدربة تديبا فنيا ، والتي لا بد منها لتنفيذ مشروعه ، ولم يستطع الحاكم أن يمدده بما يريد ، فأخفق في مشروعه ♦

أما معجم البلدان فالذي لا يشك فيه أنه كان دائرة معارف عامة ، ينتقل القارىء فيها من فن الى فن ومن علم الى علم ، فقد جمع فيها ياقوت كل ما يفرق من المادة الجغرافية الضخمة ، التي تراكت في مدى ستة قرون ، وبالرغم مما نلاحظه على ياقوت من ميل لغوى ؛ الا أنه لم يقتصر حقا على الجغرافية اللغوية ، بل تناول الى جانبها شيئا من الجغرافية الرياضية والفلكية ، فانه بالرغم من اشارته الى الأقاليم السبعة - فقد نوه عن زيج أبى عون اسحق بن على ، ومن الغريب أن هذا الزيج لم يكن معروفا لكثير من المؤلفين الجغرافيين ، حتى ان الخبير الجغرافي الفلكي (نالينو) Nallino - لم يشير اليه ، مما يدل على أنه قد وقعت في أيدي ياقوت مصادر ، لم تصل إلينا ، وقبل أن نودع معجم البلدان يحسن بنا أن نلخص بعض الأهداف ، التي كان يتوخاها ياقوت من موسوعته الكبرى ♦

(١) أهداف للمهتمين بالدراسات التاريخية واللغوية والشرعية الإسلامية

١ - كان ياقوت يستهدف تحقيق غرض تهذيبى من الحديث عن الأماكن والمدن ، التى عبث بها الزمان ، وأحالها الدهر الى أطلال دوارس - بأن يبعث فى نفوسنا العظة والعبرة ، بما حل بهذه الأماكن من دثور وفناء وتخریب ، بعد أن كانت عامرة بأهلها ، زاهية زاهرة ، سعيدة بمن فيها من سكانها الآمنين ، ولذلك يستشهد بالآية الكريمة « أفلم يسيروا فى الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها » •

٢ - بعض هذه الأماكن يرتبط برواية الحديث والسنة الشريفة ، وبعضها كان مزارا للصحابة والتابعين ، أو مشاهد للأولياء الصالحين ، وقارىء السنة فى أشد الحاجة الى معرفة هذه الأماكن ، لما فى ذلك من التبصرة والذكرى والفهم الواعى العميق لأحاديث الرسول (صلوات الله عليه) وأخبار الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم أجمعين •

٣ - والضبط الصحيح الدقيق لأسماء الأماكن والبلدان - يساعد على التعرف الصحيح على هذه الأماكن ، وتحديد مواضعها ، ومن نسب إليها من العلماء والمشهورين من الأدباء ورواة الأخبار ، كما يساعد على عدم الخلط بين مكان وآخر ؛ لأن الخلط بين الأماكن

بعضها وبعض - يؤدي الى فقدان الحقائق التاريخية وانطماستها •

٤ - الوقوف على مواطن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ،
وفتوحات الخلفاء ، وحكم البلاد المفتوحة مما يساعد على صحة أحكام
الفىء والجزية وعدالتها ، وبعدها عن الظلم والجور ، تلك بعض
الأهداف التى قصدها ياقوت بالنسبة للمشتغلين بالدراسات التاريخية
واللغوية والشرعية •

(ب) أهداف للمشتغلين بالدراسات العربية وآداب اللغة :

أما المشتغلون بالدراسات العربية وآداب اللغة - فانه يقدم اليهم
خزانا أدبيا دسما ، يتفق مع اهتماماتهم ، ويساعد على تعميق ثقافتهم
الأدبية ، ومن ذلك :

١ - أن المطلع على معجم البلدان يقف بكل دقة على حقيقة
أسماء الأماكن والبلدان ، ويهتدى الى ضبطها الصحيح ، وأسمائها
الصحيحة ، من حيث هى عربية أو أعجمية ، وما اشتق منها اذا كانت
عربية ، فاذا أضيف الى ذلك ما ارتبط بهذه الأماكن من شعر ونثر ،
وما أُلِم بها من نوازل الدهر ، وأحاط بها من غيره وأحداثه - أفاد
من ذلك الأديب الباحث ؛ اذ يستطيع أن يقف على الظروف
والمناسبات ، التى ربطت الانتاج الأدبى بهذه الأماكن ، وذلك مما
يعين على توضيح المعانى والأفكار وانكشافها ، ولا يغيب عنا ونحن
نتحدث عما يصيب هذه الأماكن والبقاع من محن وما يعتورها من

فمن - أن نشير الى أن شأنها فى ذلك شأن الناس ، ولذلك يقول
الشاعر •

واذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد
٢ - وعناية ياقوت بالحديث عن مساكن القبائل العربية تمكن
الدارسين المشتغلين بتفصيح اللغة وسلامة أساليبها وتنقيتها من الدخيل
والعامى - من الاطمئنان الى صحة ما يقوله شاعر عربى وصوابه ،
والى الحيلة والحذر مما يقوله آخر ، ذلك لأن مساكن القبائل اذا
اتصلت بالحضر ، وقربت من الأمصار والمدن - نشأت سلسلة من
التبادل اللغوى والثقافى وذلك مما يؤدى الى تسرب الفساد واللحن
الى لغة هذه القبائل ، وعندئذ لا يمكن الاحتجاج بما يقوله شعراؤها
على فصاحة الأساليب والنصوص اللغوية •

أما اذا بعدت مساكن القبائل عن الحضر ، وتعذر الاتصال بين
البادية والحاضرة أو قل - بقيت السليقة العربية على أصالتها ؛ ولذلك
يحتج بلغة هذه القبائل ؛ لأن لسانها العربى الفصيح - لم يلوث
بالعامى والدخيل ، وفى الوقت نفسه يمكن التمييز بين الشعر الذى
امتزج بمعانى الحضر ، واستقى من أفكارهم ، وغيره من الشعر الذى
ظل بدويا ، يمثل بيئته تمثيلا دقيقا •

لذلك كان الناقد الأدبى ومؤرخ الآداب فى أشد الحاجة الى
معجم ياقوت الجغرافى ؛ للوقوف على مساكن القبائل ، والتعرف على
قربها أو بعدها عن الحضر •

٣ - ويتحدث ياقوت عن مواضع أيام العرب ، ومواطن وقائعها المشهورة ، ويرتبط بهذه الأيام والوقائع شعر كثير ، قيل في هذه المناسبات ، ولا يستطيع الباحث أو الناقد الأدبي ادراك القيمة الفنية لهذا الانتاج - الا اذا عرف بالدقة الأماكن التي وقعت فيها أيامهم المشهورة ، ووقائعهم العظيمة التي كان لها أثر في حياتهم ؛ اذ ان كثيرا من البواعث والمثيرات التي دفعت الشعراء الى الانشاد - ترجع الى الرغبة الملحة في الحفاظ على هذه الأماكن والتعلق بها والحنين اليها ، وبذلك تتاح الفرصة لدراسة هذه الآثار من الناحيتين التاريخية والأدبية والبلاغية ، والالمام بكثير من الأسباب والمقومات ، التي قام عليها التاريخ الأدبي للعرب في الجاهلية والاسلام .

٤ - واذا تأملنا الشعر الذي رواه ياقوت وجدناه يعطى صورة واضحة عن عادات العرب وأخبارهم ، وحياتهم الفكرية والاجتماعية والأدبية ، وعقائدهم ، والقيم السائدة في مجتمعهم في الجاهلية والاسلام ، ومن اليسير على الباحث المدقق أن يستنبط من هذا الشعر تلك المقومات والمبادئ ، التي كان يقوم على أساسها المجتمع العربي من الجاهلية الى عصر ياقوت .

وقد كان العرب في البادية لا يعرفون حياة الاستقرار ، فحياتهم دائما نجعة « وارتياذ » ، وحل وترحال ؛ اذ كانوا مضطرين الى تتبع مساقط الغيث ومنابت العشب والكأ ، وقد ضمنوا أشعارهم كل هذا ، فأضحت تلك الأشعار أصدق مرجع لتاريخهم ولأمر

ما قالوا : « ان الشعر ديوان العرب ومجمع مفخرهم ومآثرهم » ♦

٥ - ويزعم بعض الباحثين أن العربى لا يقول الشعر الا فى بيئته ، وما جاء فى معجم البلدان لياقوت من أشعار قالها العرب فى بيئات مختلفة ، ينقض هذا الزعم ، فقد قالوا هذه الأشعار فى أماكن غزواتهم ، وفتوحاتهم ، وأسفارهم البعيدة ، وتناولوا فى بعضها وصف أهل البلاد التى دخلوها غازين أو مسافرين ، ووصفوا حسن بلائهم فى الحروب مع أهل تلك الديار ، وعبروا عن عواطفهم أثناء اقامتهم فيها ، نجد ذلك فيما رواه ياقوت من شعرهم فى فتوح بلاد فارس وخراسان والشام ومصر وغيرها ♦

٦ - وقد عنى ياقوت فى معجم البلدان عند الحديث عن المدن والأماكن - ببيان أسماء من سكنوها من العلماء والأدباء والكتاب والخطباء والمؤلفين والشعراء ومؤلفاتهم فى العلوم المختلفة ، كما أورد الكثير من بليغ أشعارهم وخطبهم ، ونراه ينفرد فى بعض الأحيان بذكر بعض الآثار الأدبية التى لا يكاد الباحث يعثر عليها فى غير معجم البلدان ، وكثيرا ما نوه بأسماء شعراء وكتاب وخطباء كانوا مغمورين ، فكشف النقاب عنهم ♦

وبالرغم مما لكتاب معجم البلدان من قيمة جغرافية سبق بها كتب عصره ، ونال به ياقوت شهرة جغرافية جعلته بين النابهين من علماء الجغرافية المسلمين - فان لهذا المعجم الى جانب هذه الناحية العلمية قيمة فنية أدبية ، تجعله من مراجع الأدب العربى الكبرى ،

ولهذا فانه يعتبر فى هذا المجال نواة صالحة وكنزا أدبيا زاخرا
بالطريف من البحوث الأدبية •

معجم البلدان كنز زاخر بالطريف من البحوث الأدبية :

لقد كشفت فى دراستى السابقة عن أهمية معجم البلدان فى
الناحية الجغرافية ، ثم حاولت بعد ذلك أن أوضح ما له من قيمة
أدبية ، وقد دعانى الى ذلك أسلوب ياقوت نفسه فى عرض مادته
الجغرافية ، فقد مزجها بالأدب ورواية الشعر ؛ لذلك كان لا بد
من ابراز هذا الجانب ، الذى اشتملت عليه هذه الموسوعة الكبيرة ،
وأذكر على سبيل المثال البحوث الأدبية ، التى يمكن استخراجها
من هذا المعجم وهى على نحو ما يلى :

١ - شعر لصوص العرب

والحديث عن هذا الشعر شائق وجذاب ، وقد روى ياقوت
طائفة منه ، عند ذكره لأسماء البلاد التى فروا اليها ، أو تلصصوا
بها ، أو حبسوا فيها ، أو حنوا اليها ، وأدباء الرواة يضعون شعر
لصوص العرب فى الطبقة العالية من البلاغة ؛ اذ يمتاز بالجزالة
والقوة ، وهو فى الوقت نفسه يمثل قوة العارضة والشكيمة ؛ اذ
كان لصوص العرب عربا أقحاحا خلصا ، لم تلوث سليقتهم العربية
بأى مؤثر حضرى ، فقد كانوا مع قسوتهم وشدة فتكهم - ذوى
طبع كريم ، ونخوة عربية ، ولم يكونوا مثل لصوص زماننا ،

يمثلون الحسة والنذالة والجبن والوحشية والجهل ، ويزعم بعض الرواة أن للامام (السكرى) كتابا يسمى (شعراء اللصوص) غير أنه مفقود ، لم يعثر عليه ، وفى استطاعة الأدباء والباحثين اذا رجعوا الى معجم البلدان - أن يستخرجوا منه نماذج وصورا بليغة لهذا اللون من الفن الشعرى القوى •

٢ - الأدب المصرى

والأدب فى مصر العربية الى القرن السابع الهجرى أدب حى قوى ، ويجد الباحث على صفحات معجم البلدان حديثا عن كثير من شعراء مصر المغمورين ، وآثارهم الشعرية فى هذه الفترة ، التى تمثل أول حلقة من تاريخ مصر العربى الأدبى •
فهو مرجع على جانب من الأهمية ، ومورد عذب لمن يحاول أن يؤرخ لهذه الفترة الأدبية •

٣ - أدب الأندلس

ويعطى ياقوت الأدب الأندلسى عناية ملحوظة فى معجمه ، فيورد منه أمثلة كثيرة ، ويتحدث عن عدد كبير من الشعراء والكتاب والخطباء الذين نبغوا فى بلاد الأندلس أو المغرب ، ممن لهم آثار قيمة جديرة بالبحث والدرس ، فاذا أضاف الباحث ما ذكره ياقوت عن أدب هذا الصقع العربى الجميل والفردوس المفقود - الى جانب ما جاء فى كتاب (نفح الطيب) استطاع أن يضع يديه على مادة

غزيرة ، تصور بدقة أدب الأندلس ، ومما هو جدير بالنظر أن المكتبة العربية ما تزال الى اليوم فقيرة في الدراسات الأدبية الأندلسية ، بالرغم من توافر المراجع التي تمد الباحث بفيض غزير ومدد كبير من النصوص والمادة التاريخية التي تفسر هذه النصوص ، وتلقى عليها أضواء كاشفة .

٤ - أدب الحوار

يذكر ياقوت في افاضة الكثير من أخبار الحوار وخطبهم وأشعارهم ، وقد جاءت مبثوثة في الأماكن التي وقعت فيها حروبهم ، والجهات التي أظهروا فيها بلاءهم ، ويجد الباحث الأدبي المدقق في تلك الآثار البليغة ، التي امتاز بها أدب الحوار مادة طيبة ، يستخرج منها أخبارهم وعقائدهم وآدابهم .

والمطلع على أدب الحوار يستطيع أثناء تصفح نصوصه - أن يتعرف على ما اشتهر به القوم من شدة العارضة وقوة الحجة وعزة النفس ، وثبات اليقين والتمسك بالمبدأ ، والتحمس الشديد لما يعتقدونه حقاً ، وقد استفادت أخبار الحوار في العصر الأموي ، ولذلك كان أدبهم بارزاً في هذا العصر .

٥ - أدب الشيعة والشعوية

كذلك تضمن معجم البلدان طائفة من أسماء شعراء الشيعة والشعوية ، وقدرا صالحا من شعر هؤلاء الشعراء ، مما أنشدوه

تأييدا لدعوتهم ، وما رد به خصومهم عليهم ، وأدب الشيعة لا يقل
في أهميته عن أدب الحوارج ، فهو يلقي ضوءا على حياتهم
ومعتقداتهم ومذهبهم في الخلافة ، ومثله أدب الشعوبية ، ونحن
الآن بحاجة الى دراسة أدب الشعوبيين لارتباطه بمذاهب العناصر
المنافسة للقومية العربية ♦

٦ - الأدب النسوي

ويقصد منه بيان ما للمرأة من أثر في الأدب والشعر ، وقد
تناول معجم البلدان طائفة من أسماء شواعر ، أورد لهن شعرا رقيقا
في أغراض مختلفة ، ولا سيما فيما تجيده المرأة من فنون القول ،
كالحنين الى الولد والوطن ، وكالثناء ، وغير ذلك ، مما يترجم عن
عواطف الأمومة ♦

وبعد فأنت ترى فيما أسلفناه من حديث عن معجم البلدان أنه
موسوعة جغرافية عظيمة الشأن ، مزج فيها ياقوت مسائل الجغرافية
وبحوثها في عصره بالأدب والتاريخ وعلوم العربية والشريعة
الاسلامية ، وياقوت لا يعرف أنه يحقق بذلك مبدأ ترابط المواد ،
ولكنه ربما قصد من هذا اللون من الدراسة دفع السأم والملل عن
القارئ ، وامتناعه بأفانين من القول ، وأغلب الظن أن هذا المسلك
الذي سلكه ياقوت تعبير صادق عن الاتجاه الموسوعي في التأليف
عند علماء العرب والمسلمين ♦

وقد طبع معجم البلدان في أوربة في « ليسك » سنة ١٨٦٦
- ١٨٧٠ م ، في أربعة مجلدات ، وقيل في ثمانية مجلدات ، وزيد
عليها فهرس بأسماء الأعلام الذين جاء ذكرهم فيه .

أما كتابه (المشترك وضعاً المختلف صقلاً) ، وكان قد انتخبه
من كتابه معجم البلدان على حروف المعجم - فقد نشره (فستفلد)
في مدينة (كوتنجن) سنة ١٨٤٦ م ، وقد لخص أبو الفضائل
عبد المنعم بن عبد الحق صفى الدين سنة ٧٣٩ هـ كتاب (معجم
البلدان) ، واقتصر فيما لخصه على الجغرافية ، وسماه (مرآة
الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) (١) ، ويعتبر هذا الكتاب
تكملة هامة للمعجم ، وطبعه (جونبول) T-G-J-Junboll في
(لندن) في ستة أجزاء ، واختصره السيوطي في كتاب له يسمى
(مختصر معجم البلدان) .

ثم طبع معجم البلدان بمطبعة دار السعادة بمصر ، وكان
الفراغ منه في شوال سنة ١٣٢٤ هـ ، ويقع في ثمانية أجزاء وطبع
معه ذيله ، الذي يسمى (منجم العمران في المستدرك على معجم
البلدان) في جزأين ملحقين به ، وقد جمع الذيل ورتبه (السيد
محمد أمين الحانجي) ، وطبع على نفقة (السيد / أحمد ناجي

(١) أخرجت هذا الكتاب (دار عيسى البابي الحلبي) بالقاهرة بتحقيق
الاستاذ على محمد البجاوي سنة ١٩٥٥ م .

الجمالى ، ومحمد أمين الخانجى وأخيه ، ومولوى عبد الله جيتيكر ،
وسيد موسى شريف) سنة (١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م) •

ويقول (السيد محمد أمين الخانجى) جامع منجم العمران :
انه لم يقصد بكتابه أن يكون استدراكا لما تركه ياقوت ، فانه ماترك
شيئا ، ولكنه يريد الحديث عما يدور على ألسن الناس ، مما لم
يصل اليه تنقيب المؤلف ؛ لجهالة مكانه فى زمنه ، أو كان مما حدث
بعد زمانه ، وبخاصة المستعمرات الافريقية والأمريكانية وغيرها فان
أكثرها حديث الكشف ، ويوضح ذلك بقوله فى مقدمته :

وبعد فان كتاب (معجم البلدان) لأبى عبد الله ياقوت الحموى
الرومى غنى فى علو مكانته عن التعريف بمكانه ، وفى علو قدره
عن التنويه بمقداره ، وقد كنا حين شرعنا فى طبعه عزمنا أن نجعل
له ذيلا ، يكون كاللحل فى عين الحساء ، أو كالوشاح لكشح
الهيفاء ، ولما تم لنا بعون الله ما أردنا من طبعه على الوجه الذى كنا
تستشرف اليه ، وفور الحصول عليه - قمنا الى انجاز ما سبق الوعد
به ، حين الشروع فى طبعه ، فأخرجناه من الحفاء ، وأبرزناه يمس
فى حلل من البهاء ، وسميناه (منجم العمران فى المستدرك على معجم
البلدان) ، ولسنا نستدرك فى هذا التذييل ما فات المؤلف من ذكر
القرى والمحال والهضاب والجبال ، مما عقد كتابه لبيانه ، وأمضى
فيه جل عمره لايضاح شأنه ، فما أقل هذا وأندره ! فان المؤلف
رحمه الله بالغ فى البحث والتنقيب ، حتى لا يكاد أن يجد معترض

للاعتراض عليه سيلا ، ولو أن أحدا من البشر فى كل ما سلف
من الأيام والأعوام سلم من هذا - لكان حريا بأن يكون اياه •

وانما عمدنا الى ما للناس فيه فائدة من حادثة تاريخية ، أو
أثر جميل ، أو شئ غريب ، أو كان للناس فيه حاجة دنيوية
للقوف عليه ، لتجارة أو صناعة ، أو كان به من الرياض والغياض
والملاهى والمتنزهات - ما يكون للناس فيه مستراح ، ولهم جمام ،
وأهملنا ما عدا ذلك ، مما ليس فيه من الفوائد ما ذكرنا •

وقد اتخذ صاحب منجم العمران أسلوب ياقوت وجرى على
طريقته ، واتبع منهاجه فى عرض مادة كتابه وترتيبها ، وفيما يلى
أمثلة من هذا الكتاب ، لتبين فى ضوءها أنه كان مقلدا لياقوت ، وأنه
لا فرق بين الكتاب الأصل والذيل المستدرك عليه فى المنهج وطريقة
عرض المادة •

باب الهمزة

من كتاب منجم العمران

١ - (آمد) بميم مكسورة بعدها دال ، قال البستاني : جد قبيلة من العرب ، يدعون بنى آمد ، وكانت مواطنهم بين (أجا وسلمى) والعراق ، وربما كان اسم مدينة آمد مأخوذاً منه ، والأتراك الآن يسمونها (آميدة) أى آمد السوداء ؛ لسواد حجارتها ، قلت والمدينة ذكرها المصنف فى الأصل •

فاذا وازنا بين ما قاله ياقوت فى هذا المكان (آمد) ، وما استدركه عليه صاحب المنجم - فلا نجد فى قوله من جديد - الا ما نقله عن البستاني من (آمد) اسم رجل ، وهو جد قبيلة من العرب ، واسم المدينة مأخوذ منه ، ثم ما ذكره من تسمية الأتراك لها ، وكل ذلك مما أخذ من مصادر لم تصل اليها أيدى ياقوت أو مما استحدث بعد عصره •

٢ - (أمستردام) بفتح فكسر فسكون ، وهى أكبر مدن (هولاندا) ، والعاصمة الحقيقية لها فى نظر أهالى المملكة ، واقعة على جنوب خليج (واى) فى عرض ٥٢ درجة ، و ٢٢ دقيقة شمالاً ، وطول أربع درجات و ٥٣ دقيقة شرقاً ، وعدد أهاليها ٤٠٠ ألف نسمة ، وهى مدينة جميلة جداً ، ومن أغنى مدن العمران ، هلالية الشكل ، وطرفاها داخلان فى خليج (واى) ، ومنهما تتكون الميناء ،

وهي متصلة مع البحر الشمالى بواسطة ترعة (بومويدين) ، ولها مرفآن يمكن أن ترسو فيهما ألف سفينة ، وكانت هذه المدينة من الجهة اليابسة مكتنفة بأسوار ، ثم رفعت وأبدلت بخندق ، وعرضه ثلاثون ياردا ، وظلل جانباه بالأشجار فصار كمنتزه جميل ، وموقع المدينة المذكورة فى أرض منبسطة أجمية ، وبيوتها مبنية على أوتاد أو أعمدة مغروسة فى الأرض ، على عمق خمسين قدما ، وبواسطة الترع المتخللة انقسمت الى نحو تسعين جزيرة ، ويعلو تلك الترع نحو ٣٠٠ جسر ، ومحيط المدينة يبلغ عشرة أميال ، ولها ثمانية أبواب من حديد ، اسم كل باب منها باسم الحى الذى يدخل اليه منه ، والقسم القديم من المدينة غير منتظم ولا مستحسن المنظر ، لضيق أزقته ، وحقارة بيوته ، أما الجديد منها فهو بناء بغاية الانتظام والطرافة ، ذو أسواق جميلة ، طول السوق منها نحو ميلين ، وعرضه ٢٢٠ قدما ، والترع مارة بها ، وبيوتها مبنية من آجر ، ومؤلفة من أربع أو خمس طبقات ، ويدخل اليها بدرج فى مستقبلها وبها من الأبنية العمومية الجميلة دار الحكمة ، وجملة كنائس ، ودار القضاء ، ودار اجتماعات العمومية الجديدة ، ودار الصناعة ، وجملة أبنية خيرية أيضا ، وبها جملة مدارس خصوصية وعمومية علمية وصناعية ، وبها بستان لتربية أنواع النباتات ومكتبة عمومية ، ومدرسة للموسيقا ، ومدرسة للبحرية ، ودار للصور ، وبها عدة معامل صناعية لعمل السكر والزجاج وصب الحديد وبناء السفن ، والصابون والمنسوجات ، وغير ذلك ، وهى مشهورة بتجاريتها أكثر

من صناعتها ، ومعظم البضائع الداخلة الى هولاندا والخارجة منها -
تمر بأمستردام ، وقد بلغت عدة السفن التى دخلت ميناءها والتى
خرجت منها فى بضع سنين - نحو ثلاثة آلاف سفينة ، وأهم
صادراتها السمن والجبن والسكر والبن والبهار ، والزيت ،
والقصدير ، والصباغ ، وأكثرها لألمانيا وانجلترا ، ولها طرق
اتصال بغيرها متعددة ، منها الترع والسكك الحديدية وغيرها •

وقد كانت أمستردام سابقا خاضعة لاسبانيا ، ثم تداولتها أيادى
جملة دول ، منها البروسيون والانجليز والفرنساويون ، ثم انتقلت
الى هولاندا ، وجعلت عاصمة لها ، الا أن البلاط الملكى فى مدينة
(لاهاى) •

ويلاحظ أن صاحب منجم العمران يعنى بضبط اسم المدينة،
ولكنه يهمل الناحية الاشتقاقية ، وعذره واضح فى ذلك لأنه
يتحدث عن مدن أوربية أو أمريكية مجهولة الاشتقاق ، وقد سلك
ياقوت قبله هذا المسلك ، فهو لم يتحدث الا عن اشتقاقات أسماء
المدن العربية الخالصة ، وكان يهمل الأسماء الأعجمية للبلدان
والأماكن ، لتعذر معرفة اشتقاقها وصاحب المنجم مقلد ، ولم يأت
بجديد من حيث المنهج وطريقة البحث ، ولذلك يعتبر المنجم امتدادا
لأسلوب ياقوت وتكملة لمعجم البلدان ، من حيث التعريف بالأماكن
التي نشأت بعد عصر ياقوت فى أوربية وأمريكا والمستعمرات
الافريقية •

الفصل الرابع



ياقوت بين الجغرافيين

يذهب العلامة الروسى كراتشكوفسكى الى القول بأنه لا يمكن وضع ياقوت بازاء باحث عالمى كبير كالبيرونى ، أو بازاء رحالة حلقت شهرته فى كل سماء وطارت الى أكثر من مكان كالسعودى أو المقدسى •

ولكننا اذا وضعناه بازاء الجغرافيين اللغويين من طبقة (البكرى) - فان ياقوتا يفضل الكثير من هؤلاء ، ويبزهم ، اذ يتفوق عليهم بغزارة مادته وتنوعها ، وبمنهجه فى البحث الذى انفرد به ودل على ذكائه ومهارته ؛ ولذلك لا نبالغ بعد هذا اذا وصفناه بأنه كان من أبرز رجال عصره فى تطوير مادة الأدب الجغرافى ، التى عاجلها باقتدار فى معجم البلدان ، وما يزال هذا المعجم الى وقتنا يخدم غرضه ، الذى وضع من أجله ، وما يزال مرجعا من أهم المراجع الموثوق بها فى دراسة التراث الجغرافى العربى القديم •

ونضيف الى قول العلامة (كراتشكوفسكى) أننا لا نستطيع أن نضع ياقوتا بالرغم من شهرته فى عصره وبالرغم من القيمة العلمية الكبيرة لكتابه معجم البلدان - بجانب الخوارزمى ، اذ أننا نجد الخوارزمى وهو العالم الجغرافى العظيم قد اشترك فى أيام المأمون فى وضع الخرائط الجغرافية ، ومنها رسم مصور لوادى النيل ، كما قام بقياس درجة من درجات محيط الأرض ، ولم يعرف عن ياقوت أنه شغل نفسه برسم الخرائط ، وبوضع الزيجات الفلكية ، وانما اتجه نحو الجغرافية الوصفية ، وركز اهتمامه على التعريف بالأماكن والبقاع والبلدان ، وضبط أسمائها وبيان اشتقاقاتها ، ولا يمكن أن نضعه بجانب السيرافى ، فالسيرافى قد توسع فى رحلاته ، وجاوز بها البلاد العربية الاسلامية ، فاجتاز بها الهند ، ومر بجزيرة سيلان وملقا وزار الصين ، فى حين أن ياقوتا لم تذكر المراجع عنه انه زار الصين وغيرها من البلاد التى سجل السيرافى عنها كثيراً من الأوصاف وعادات السكان وتقاليدهم ، فأمد برحلاته الجريئة مؤلفى القصص الخرافى بثروة ضخمة ساعدتهم على وضع قصص السندباد المشهورة •

و (ابن خرداذبه) يسبق ياقوتا فى كتابه « المسالك والممالك » بالتحدث عن أقسام الدولة العباسية ، وكيفية جباية خراج هذه الأقسام ، وبالتحدث عن الطرق التجارية ، ووصف بلاد الصين واليابان وكوريا وصفا دقيقا ، مما أغفله ياقوت أما (ابن فضلان)

فقد انفرد بين الجغرافيين العرب ومنهم ياقوت برحلته الى حوض (القولجا) ، وتقول الرواية العربية : ان أحد ملوك الصقالبة قد أسلم ، وكانت له مملكة شاسعة الأطراف ، تشمل حوض (القولجا) وتمتد الى (قازان) في محاذاة (موسكو) ، وأنه أرسل الى الخليفة المقتدر العباسي في طلب بعض علماء المسلمين ، ليفقهوه وقومه في دينهم الجديد ، ويوقفوهم على أحكامه وتعاليمه الصحيحة ، ثم لكي يقيموا مسجدا ، وينصبوا منبرا ، ينادى من فوقه قومه ، ويدعوهم الى التمسك بالاسلام ، ويقال : ان الخليفة المقتدر أجابه الى طلبه ، واختار وفدا من العلماء برئاسة (أحمد بن فضلان) (١) ، وغادر الوفد مدينة بغداد في ١١ من صفر سنة ٣٠٩ هـ ، ثم تتعرض هذه البعثة أو السفارة العربية الاسلامية لكثير من الصعوبات في الطريق الى ملك بلغار ، بسبب قسوة زمهرير الشتاء في تلك الأصقاع الباردة ، وقد حملت البعثة معها كثيرا من الهدايا والأدوية ، مما يدل على سعة الحضارة العباسية ، ووفرة الرخاء وقشذ ، وقد كانت هذه الرحلة الفريدة ، والرسالة التي كتبها ، يصف فيها ما شاهده من عجائب وغرائب في بلاد الصقالبة موضع عناية المستشرقين ، وبخاصة المستشرقون الروس ، ومنهم (فرمن) الذي عكف على

(١) (أحمد بن فضلان) هو أحمد بن فضلان بن عباس بن رشيد بن حماد ، أرسله الخليفة المقتدر سنة ٣٠٩ الى ملك البلغار وليس المراد بالبلغار أهل بلغاريا الذين تشغل أرضهم جزءا من بلاد البلقان شرقي أوروبا ، وإنما المقصود بهم الصقالبة أو الروس سكان شواطئ القولجا شرقي موسكو .

دراسة المخطوطات ، التى أشارت الى هذه الرحلة ، واهتم (فرمن) بنشر ما جاء فى معجم ياقوت عن هذه الرحلة ، وأتم طبعه فى سنة (١٨٢٣) م فى (سان بطرسبرغ) « ليننغراد » ، كما توصل العالم التركى أحمد زكى الى نسخة من رسالة ابن فضلان ونشرها فى سنة ١٩٣٤ م ، وقد وقف ياقوت من ابن فضلان موقف المسجل الناقل لما تركه من آثار •

وأما يعقوبى فيهتم بوصف الامبراطورية البيزنطية ، فضلا عن وصفه لبلاد الهند والصين ، والبثانى يوجه عنايته الى الأرصاد الجوية والجغرافية الفلكية ، وقد وضع زيجته المشهور الذى يعرف بالزيج الصابى ، مما لم يقم به ياقوت ، وكان الاصطخرى من أشهر مؤلفى الجغرافية فى العصر العباسى ، ألف كتاب (المسالك والممالك) واهتم فيه بالمصورات والخرائط ، ويقال انها كانت ملونة ، مما يدل على دقته فى التصوير الجغرافى •

ومن المؤكد أن ياقوتا لم يشتغل برسم الخرائط بدليل أن معجم البلدان نشر خاليا منها ، والمقدسى وان كان كياقوت فى أن رحلاته كانت مقصورة على البلاد الاسلامية - الا أنه يتميز برسم خرائط ملونة للبلاد التى زارها •

وأما « الشريف الادريسي » الذى طارت شهرته فى العالمين الاسلامى والمسيحى ، فقد قيل عنه انه كان صاحب الفضل فى تجديد علوم الجغرافية بتأليفه كتاب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ،

وكان يعرف هذا الكتاب بالكتاب (الرجارى) نسبة الى (روجر) ملك النورمانين بصقلية ، وهم الذين تغلبوا على مسلمى هذه الجزيرة وأجلوهم عنها ، ولكن (روجر) كان معروفا بتسامحه الدينى ، وحبّه للعلماء ، وبخاصة علماء المسلمين ، الذين ملأت شهرتهم العلمية سمع العالم وبصره وقثذ ، فقرب منه (الشريف الادريسى) ، وطلب اليه وضع كتاب ، يشمل جميع المعلومات الجغرافية المعروفة فى عصره ، فوضع الكتاب الذى سبقت الاشارة اليه ، وقد جاء ما فيه من مادة جغرافية وصفا دقيقا لكل ما هو معروف عن الكرة الأرضية ، التى كانت تمثلها كرة ذهبية ، وقيل فضية - أمر (روجر) بصنعها ، وقد رسمت عليها الاقاليم السبعة المعروفة ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها ، وريفها ، وخليجانها ، وبحارها ، ومجارىها ، ومنابع انهارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلد وغيره من الطرقات المعروفة والأمال المحدودة ، والمسافات ، والمراسى المعروفة ، واشتهر الادريسى بدقته فى رسم الخرائط ، ومن خرائطه المشهورة خريطة لنهر النيل ، تصوره آتيا من بحيرات تقع فى المنطقة الاستوائية ، ويقال : انه صحح بهذه الخريطة آراء الجغرافيين فى عصره ، الذين كانوا يخلطون خلطا كبيرا فى تحديد منابع النيل ، وخرائط الادريسى فى دقتها ووضوحها - قد وضعت الصورة السليمة الصحيحة للكرة الأرضية ، وعليها اعتمد (كولبس) فى القيام برحلته البحرية ، التى حققت كشف الأمريكتين ، (الدنيا الجديدة) •

ولا نستطيع ازاء هذه الجهود الضخمة التى قام بها الشريف
الادريسي أن نضع بازائه ياقوتا ♦

والذى يلاحظ بصفة عامة أن ياقوتا قد اتجه فى تأليفه
الجغرافى اتجاهها يختلف فيه عن كثير من سلفه علماء الجغرافية ،
فرحلاته كانت ضيقة ، شملت العالم العربى الاسلامى وحده ،
وما ذكره عن بعض البلدان والبقاع الأخرى فقد كان نقلا عن
غيره ، وكان يركز فى معجمه الجغرافى على التعريف بأسماء الأماكن
والبلدان والبقاع والديرة ، ويعنى بالضبط كل العناية ، وباشتقاقات
أسماء البلدان والأماكن اذا كانت عربية ، ثم نراه يهتم بتوجيه
علوم الجغرافية الى خدمة الأحكام الشرعية ، وقد نقل أكثر ما قاله
فى وصف البلدان والتعريف بالأماكن ممن تقدموا عليه ، وأيد
ذلك باعترافه الواضح فى مقدمة (معجم البلدان) ، ولذلك يقول
العالم الايطالى (ألدوميللى) فى كتابه (العلم العربى) : « انه جمع
فى معجمه قسما كبيرا من مؤلفين سابقين » ♦

ان ياقوتا وان كنا نضعه بين المشهورين من الجغرافيين
المسلمين - الا أن أكثر معلوماته قد نقلها عن غيره ، واذا فهو مؤلف
جغرافى ، وليس جغرافيا بالمعنى الذى تتصوره فى الشريف
الادريسي ، أو فى أبى الريحان البيرونى ، فكل من أبى الريحان
والادريسي قام بأعمال فلكية، ولكل منهما آراء استنبطها من دراساته،
ومن آراء أبى الريحان قوله : « والعقل يقضى بوجود جزء مغمور

فى الجانب الغربى من الكرة الأرضية ، ، ولكنه ىدى احتراسا ففما فقوله ففن فرى أنه لا فمكن الؤزم بوفوء هفا الؤءء المغمور فى الجانب الغربى من الكرة الأرضفة - الا بعد المشاهدة وتواتر الؤبر من الثقات •

وكما أفاد (كولبس) من خرائط الشرفف الادرفسى ، كذلؤ أفاد من آراء أبى الرفحان البفرونى ، وهفا مما دفعه بفقفن قاطع على اقؤام بحر الظلمات (الموفط الأطلسى) من أؤل فؤقق الفكرة المنطقفة لأبى الرفحان - عن طرفق العفان والمشاهدة • وفاقوت وان لم فبلغ ما بلغه السابقون من علماء الؤؤراففة المسلمفن كالبئانى والبفرونى والشرفف الادرفسى وففرهم - الا أنه بالنسبة لؤؤرافف عصره فمكن وضعه فى قمة علماء الؤؤراففة ، فقد لمع فاقوت فى عصره لقيامه ببعض الرحلات ، التى أؤاؤها له سفده عسكر بن أبى نصر الؤموى ، وبرؤلات أخرى قام بها بعد وفاة سفده ، ثم بوضعه كتابه المشهور (معجم البلدان) فى الؤؤراففة الوصففة ، وان كان قد استهله ببعض فصول قصفرة فى الؤؤراففة الطففعة والفلكفة، ففؤبر معجم البلدان موسوعة كبرى مزؤ ففها فاقوت علوم الؤؤراففة بعلوم الشرفعة الاسلامفة والأؤب والقصص والتارفن والفلك •

ومن الرافؤ أن كؤرففن من الؤؤرافففن الؤفن ؤاءوا بعد فاقوت - لم فؤأؤروا بؤؤؤاهه الؤؤرافف الى درؤة ملحوظة ، فى مثل

ما عني به من التعريف الدقيق بالأماكن والبلدان ويمكن أن نستثنى من هؤلاء العلماء أبا الفداء اسماعيل بن علي بن محمود في كتابه المشهور (تقويم البلدان) (١) ، ومن العجيب أن أبا الفداء يتهم علماء الجغرافية السابقين بضعف العناية بالضبط ، ولا شك أن هذا الاتهام يتناول ياقوتا ، ولا نستطيع ان نقول ان أبا الفداء لم يطلع على معجم البلدان ، ومن هنا يتضح لنا الاسراف في توجيه هذا الاتهام ، الذي يوجهه دائما بعض الحلف الى السلف في غير دقة ولا تمحيص .

ولكن الذي لا ريب فيه أن ياقوتا قد نهض نهضة كبيرة بالتأليف الجغرافي في عصره ، فأفاد بمعجمه الجغرافيين والأدباء والمغويين والأطباء ورجال الشريعة الاسلامية وغيرهم ، ويقول الأستاذ (نفيس أحمد) في كتابه جهود المسلمين في الجغرافية (٢) : والحق أنه (أي ياقوتا) هدانا بأشاراته التي وردت في ثنايا كلامه الى كتب متعددة ، لم يعد يتيسر الحصول عليها ، وهو يبدى استعماله المنهج النقدي الذي يأخذ به الجغرافي الحديث ، حين ينقد اشارات بطليموس الى مدن ومواضع من جزيرة العرب ، فيذكر ياقوت أنه

(١) (تقويم البلدان) ألفه أبو الفداء اسماعيل ، ورتبه المؤرخ التركي (سباهي زادة) المتوفى سنة (٩٩٧ هـ) على حروف المعجم ، وسماه أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك .

(٢) ترجمه الاستاذ (فتحى عثمان) وراجعہ الاستاذ (على أدهم) ، ونشرته دار القلم من سلسلة الألف كتاب .

قد فشل في تحقيق كثير من الأماكن التي وردت في كتابات بطليموس ؛ لأنها لم تعد بعد قائمة •

(٢) ارشاد الأريب الى معرفة الأديب ، المعروف بمعجم الأدباء
أو طبقات الأدباء •

وهو المعجم الثاني الذي طارت به وبسابقه شهرة ياقوت في الآفاق ، ويقتضينا تقديمه للقارىء أن نستشير مقدمته ؛ لنستخرج منها الأساس الفلسفى الذى بنى عليه ، والمنهج الذى سلكه ياقوت فى عرض تراجمه ، يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه الاعانة : الحمد لله ذى القدرة القاهرة ، والآيات الباهرة ، والآلاء الظاهرة ، والنعم المتظاهرة ، حمدا يؤذن بمزيد نعمه ، ويكون حصنا مانعا من نقمه ، وصلى الله على خير الأولين والآخرين من النبيين والصدّيقين محمد النبي والرسول الأمى ، ذى الشرف العلى ، والخلق السنى ، والكرم المرضى ، وعلى آله الكرام ، وأتباعه سرج الظلام ... فما زلت مذ غذيت بغرام الأدب ، وألهمت حب العلم والطلب - مشغوبا بأخبار العلماء ، متطلعا الى أنباء الأدباء ، أسائل عن أحوالهم ، وأبحث عن نكت أقوالهم بحث المغرم الصب والمحب عن المحب ، وأطوف على مصنف فيهم ، يشفى الغليل ، ويداوى لوعة الغليل ، فما وجدت فى ذلك تصنيفا شافيا ، ولا تأليفا كافيا ، مع أن جماعة من العلماء والأئمة

القدماء أعطوا ذلك نصيبا من عنايتهم وافرا ، فلم يكن عن صبح الكفاية سافرا كأبى بكر محمد بن عبد الملك التاريخي ، وأرى أنه أول من أعارهم طرفه ، وسود في تبيض أخبارهم صحفه ، لأنه قال في مقدمة كتابه : وقد اجتهد أبو العباس محمد بن مؤيد الأزدي ، وأبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني في مثل ما أودعناه كتابنا من أخبار النحويين ، فما وقعا ولا طارا •

هذا مع أن كتابه صغير الحجم قليل التراجم ، محشو بالنوادر التي رووها ، لا يختص بأخبارهم أنفسهم •

ثم ألف بعده في هذا الأسلوب أبو محمد عبد الله بن جعفر ابن درستويه كتابا ، فلم يقع إلينا الا أنباء ظنه لذلك ، ثم صنف أبو عبد الله محمد بن عمر المرزباني كتابا حفيلا كبيرا على عادته في تصانيفه - الا أنه حشاه بما رووه ، وملاه بما وعوه ، فينبغي أن يسمى مسند النحويين وقد وقفت على هذا الكتاب ، وهو تسعة عشر مجلدا ، ونقلت فوائده الى هذا الكتاب ، مع أنه أيضا قليل التراجم بالنسبة الى كبر حجمه ، ثم ألف فيه أبو سعيد الحسن ابن عبد الله بن المرزبان السيرافي القاضي كتابا صغيرا في نحاة البصرة ، نقلنا أيضا فوائده الى هذا الكتاب ثم جمع في ذلك أبو بكر محمد بن حسن الأشبيلي الزبيدي كتابا لم يقصر فيه ، وهو أكثر هذه الكتب فوائدا ، وأكثرها تراجم وفرائد وقد نقلنا أيضا فوائده الى هذا الكتاب •••

موضوع معجم الأدباء ومنهج المؤلف فيه :

هذا الكتاب كما يدل عليه اسمه يمكن أن يسمى قاموس
الأدباء ، ويقول ياقوت :

وجمعت في هذا الكتاب ما وقع لى من أخبار النحويين
واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاعباريين والمؤرخين
والوراقين المعروفين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل
المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف فى
الأدب تصنيفا ، أو جمع فى فنه تأليفا ، مع ايثار الاختصار ، والاعجاز
فى نهاية الایجاز ، ولم آل جهدا فى اثبات الوفيات ، وتبين المواليد
والأوقات ، وذكر تصانيفهم ، ومستحسن أخبارهم ، والاعبار
بأنسابهم ، وشئ من أشعارهم .

فأما من لقيته أو لقيت من لقيه ، فأورد لك من أخباره
وحقائق أموره - ما لا أترك لك تشوفا الى شئ من خبره ، وأما
من تقدم زمانه ، وبعد أوانه - فأورد من خبره ما أدت الاستطاعة
اليه ، ووقفنى النقل عليه فى ترددادى الى البلاد ، ومخالطتى للعباد ،
وحذفت الأسانيد الا ما قل رجاله ، وقرب مناله ، مع الاستطاعة
لاثباتها سماعا واجازة ، الا أننى قصدت صغر الحجم وكبر النفع
وكنت قد شرعت عند شروعى فى هذا الكتاب أو قبله - فى
جمع كتاب فى (أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء) فرأيت أهل
العلم المتأدبين والكبراء المتصدرين - لا تخلو قرائحهم من نظم شعر

وسبك نثر ، فأودعت ذلك الكتاب كل ما غلب عليه ، فدون ديوانه ،
وشاع بذلك ذكره وشانه ، وصحت روايته ، وشاعت درايته ، وقلَّ
شعره ، وكثر نثره ، فهذا الكتاب عشه ووكره ، وفيه يكون ثناؤه
وذكره ، وأجتزىء به عن التكرار هناك - الا النفر اليسير الذين
دعت الضرورة اليهم ، ودلتنا عنايتهم بالصناعتين عليهم •

ففى هذين الكتابين أكثر أخبار الأدباء من العلماء والشعراء ،
وقصدت بترك التكرار خفة محمله فى الأسفار ، وجعلت ترتيبه على
حروف المعجم ، أذكر أولا من أول اسمه ألف ، ثم من أول اسمه
باء ، ثم تاء ثم ثاء الى آخر الحروف وألتزم فى ذلك فى أول حرف من
الاسم وثانيه وثالثه ورابعه ، فأبدأ بذكر من اسمه (آدم) ألا ترى
أن أول اسمه همزة ، ثم الف ، ثم من اسمه (ابراهيم) لأن أول
اسمه الف ، وبعد الألف باء ، ومعنى ذلك انه اذ اشترك اثنان
أو أكثر فى الحرف الأول من الاسم رتب بحسب الحرف الثانى ،
فان اشتركا فيه كان الترتيب بحسب الحرف الثالث وهكذا ، فان
اتحدت الأسماء الأول رتب بحسب الأسماء الثوانى ، فأدم قبل
ابراهيم ، كما سبق ، ومحمد بن أحمد قبل محمد بن على ،
وهكذا •

فاذا اتفق اسماء عدة رجال وأسماء آبائهم ، قدم من تقدمت
وفاته ، ولم ينظر فى الترتيب الى أسماء الجدود اذا اتفقت الأعلام
فى أسمائهم وأسماء آبائهم ، فنراه يقدم ابراهيم بن محمد بن عبيدالله ،

على ابراهيم بن محمد بن سعيد وكانت طبيعة الترتيب تقتضيه أن ينظر الى أسماء الأجداد ، لاتمام الترتيب ، ومع ذلك فقد يسهو ، ويقدم ما يجب تأخيره ، كتقديمه ابراهيم بن محمد سعدان على ابراهيم بن القاسم ، ولكن لا يبعد أن يكون هذا من صنيع النساخ ثم يقول : ولم أقصد أدباء قطر ، ولا علماء عصر ، ولا اقليما معينا ، ولا بلدا مينا ، بل جمعت للبصريين والكوفيين والبغداديين والحراسانيين ، والحجازيين ، والتميمين ، والمصريين ، والشاميين ، والمغربيين ، وغيرهم على اختلاف البلدان وتفاوت الأزمان ، على حسب ما اقتضاه الترتيب وحكم بوضعه التبويب ، لا على أقدارهم في المقدمة والعلم والتأخر والفهم ، وابتدأته بفصل يتضمن أخبار قوم من متخلفي النحويين والمتقدمين المجهولين .

ويفهم من قول ياقوت أنه جمع في كتابه الأول في (أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء) عددا كبيرا منهم ، ولم يحاول أن يكرر أسماء هؤلاء في كتابه معجم الأدباء كراهة التكرار ، ولذلك نراه يشير الى ذلك بقوله : ففي هذين الكتابين أكثر أخبار الأدباء من العلماء والشعراء والنحويين واللغويين . . .

اشادته بفضل من نقل عنهم ، وبأثر علمهم وأدبهم في الحياة

والدين :

وبعد فهذه أخبار قوم أخذ عنهم علم القرآن المجيد، والحديث

المفيد ، وبضاعتهم تنال الامارة ، وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان والوزارة ، وبعلمهم يتم الاسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام ، ألا ترى أن القارىء اذا قرأ : « ان الله برىء من المشركين ورسوله » ، فقد سلك طريقا من الصواب واضحا ، وركب منهجا من الفضائل لائحا ، فان كسر اللام من (رسوله) كان كفرا بحتا ، وجهلا قحا ، وروى أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول : « نعلم العربية هو الدين بعينه » ، فبلغ ذلك عبد الله بن المبارك فقال : صدق ؛ لأنى رأيت النصارى عبدوا المسيح لجهلهم بذلك ، قال الله تعالى : « انى ولدتك من مريم وأنت نبيى » فحسبوه يقول : أنا ولدتك وأنت بنىى ، فبتخفيف اللام ، وتقديم الباء وتعويض الضمة بالفتحة كفروا ، وحسبك من شرف هذا العلم أن كل عالم على الاطلاق مفتقر الى معرفته ، محتاج الى استعماله فى محادثته •

ونلاحظ أن ياقوتا فى افتتاحية مقدمته يبدأ بتحميد الله جل شأنه ، وبالصلاة على رسوله أفضل الخلق وأشرفهم ، وهو بذلك يجرى على عادته ، حينما قدم الينا من قبل كتابه (معجم البلدان) ، والذي نستطيع أن نستشفه من خلال هذا التحميد والصلاة على النبي الكريم أن علماءنا السابقين ، ومنهم ياقوت كانوا يربطون دائما بين تفكيرهم العلمى وصلتهم بالخالق عز شأنه ؛ اذ هو الذى يهديهم ، ويرشدهم الى سواء السبيل ، ويعينهم على البحث ، ويوفقهم فيما يستنبطونه من مسائل العلم ويفتح أمامهم أبوابه المغلقة •

وتلك ظاهرة جديرة بالنظر ، سبق أن أشرنا إليها عند الحديث عن مقدمة ياقوت (لمعجم البلدان) ، وانى استعيد الحديث عنها ؛ لأكشف عن شئ من أسرار هذه الظاهرة ، التى تثبت أن علماء المسلمين فى العصور الماضية من الاسلام كانوا على صلة قوية بالله تعالى ، وكانت هذه الصلة من العوامل التى ساعدتهم على هذا الانتاج الضخم ، الذى يقف أمامه العقل حائرا ، فقد جمعوا ثمرات طيبة من العلوم الناضجة فى مجلدات ضخام ، لقد كانت عقيدتهم صافية ، ثم أضافوا إليها شغفا زائدا بالعلم ، ورغبة صادقة فى استقصاء مسائله والبحث عن شوارده ، ولو أنهم كانوا يعيشون فى عصرنا بما هم عليه من صفات - لأثروا بالعجب العجاب ، وسجلوا فى ميادين البحث نظريات وحقائق علمية ، تفوقوا بها على معاصرينا . كذلك تكشف لنا هذه المقدمة عن الأمانة العلمية فى اشارات ياقوت الى من سبقوه فى هذا الميدان ، ونقله عنهم ، واعتماده على مراجعهم ، وتلك الأمانة نتيجة منطقية للإيمان العميق بالله واعتماد عليه ، ولا ينسى ياقوت أن يشرح لنا طريقته فى عرض مادة كتابه ، وترتيب أبوابه ، وأنه لم يؤثر فريقا من الأدباء والعلماء بالذكر والتنويه لفضلهم دون فريق آخر ؛ اذ كان هدفه الكشف عن الحقيقة العلمية والأدبية أينما وجدت ، ويحدثنا ياقوت عن أثر علوم الأدب فى الحياة ، وفضلها فى تسليط أضوائها الكاشفة عن المسائل الدينية ، فالعالم بعلوم الحياة ، والعالم فى الدين فى أشد الحاجة الى الأدب ، ولذلك وجدنا أكثر

المفسرين من ذوى السبق فى هذا الميدان يعتمدون على النصوص الأدبية من شعر وغيره فى شرح مقاصد آى الذكر الحكيم ، ويؤيد رأيه بما وقع فيه المسيحيون من خطأ شنيع فى تفسير بعض النصوص الدينية ، وما ترتب على هذا الخطأ من عواقب أليمة بالنسبة لهم •

وبعد أن فرغ ياقوت من مقدمته بدأ كتابه (معجم الأدباء) بفصلين ، الفصل الأول فى فضل الأدب وأهله ، وذم الجهل وحمله ، والفصل الثانى فى فضيلة علم الأخبار ، وسنعطى القارىء فكرة عن اتجاهات ياقوت فيهما •

فهو يقول فى الفصل الأول (فى فضل الأدب وأهله وذم الجهل وحمله) ، قال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - : كفى بالعلم شرفاً أنه يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح اذا نسب اليه من ليس من أهله ، وكفى بالجهل خمولاً أنه يتبرأ منه من هو فيه ، ويفضرب اذا نسب اليه ، فنظم بعض المحدثين فى ذلك فقال :

كفى شرفاً للعلم دعواه جاهل ويفرح أن يدعى اليه وينسب
ويكفى خمولاً بالجهالة أننى أراع متى أنسب اليها وأغضب

وقال على رضى الله عنه : قيمة كل انسان ما يحسن ، فنظمه شاعر وقال :

لا يكون الفصيح مثل العبي ولا ذو الذكاء مثل الغبي
قيمة المرء قدر ما يحسن المرء قضاء من الامام على

ويقول : سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
يقول : رحم الله امرأً أصلح من لسانه . . . قالوا والفرق بين العالم
والأديب أن الأديب من يأخذ من كل شيء أحسنه فيألفه ، والعالم
من يقصد بفن من العلم فيعتمله (١) ، ولذلك قال علي كرم الله
وجهه : العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شيء أحسنه . .
وقال بزرجمهر : من أكثر أدبه أكثر شرفه وان كان ضيعا ، وبعد
صوته وان كان خاملا ، وساد وان كان غريبا ، وكثرت الحاجة اليه
وان كان فقيرا .

وفي فضل علم النحو قال نافع مولى ابن عمر : كان ابن عمر
يضرب ولده على اللحن ، كما يضربهم على تعليم القرآن .

ونرى ياقوتا فيما عرضناه من هذا الفصل يتمثل بقول علي بن
أبي طالب كرم الله وجهه في فضل الأدب، ويحرص على أن يزودنا
بنصوص من الشعر ، تعبر عما قاله الامام العظيم ، والتعبير عن المعنى
الواحد بأساليب مختلفة منحى بلاغى ، سلكه ياقوت للتشويق ،
وتقوية المعنى ، ولزيادة الثروة اللغوية ، وحين يفرق بين العالم
والأديب يسلك مسلكا علميا دقيقا .

(١) يعتمله : يعمل فيه بجد وجهد .

فالأديب عنده من يعنى بالصفة الكلامية وتأليف الكلام - وأما العالم فهو الذى يعتمد على طاقته الفكرية ، فيعتمل الأشياء أى يفكر فيها بجد وجهد ، وهذا الفرق بين كل من العالم والأديب - لا يبعد عن وجهة نظرنا الحديثة •

وفيما يسجله ياقوت عن أهمية النحو العربى ، وأن ابن عمر كان يضرب أبناءه ، ليحملهم على توجيه مزيد من عنايتهم الى النحو ، كما كان يضربهم على الاهتمام بحفظ القرآن الكريم - دليل على سمو منزلة النحو عند العرب الأولين ، وأنهم كانوا يبالغون فى تعليمه لأولادهم ، والحقيقة أن النحو وان لم يكن من علوم المقاصد والغايات ، كما يقول العلامة ابن خلدون ، وأنه لم يكن غاية فى ذاته - الا أنه وسيلة هامة وضرورية ، لاحسان القول ودقته ووضوحه ، من حيث سلامة تأليف الجمل والعبارات وصوابها من حيث النطق ، وللنحو مثل هذه الأهمية فى كل لغة من اللغات ، فكيف بالعربية - التى تفضل كل لغة بنحوها ، الذى هو قطعة من العقل العربى الخالص ، والذى يدل بقواعده المفصلة على اكتمال نمو اللغة وازدهارها •

ويقول ياقوت فى فضيلة (علم الأخبار) : وقديما قيل : ان علم النسب والأخبار من علوم الملوك وذوى الأخطار ، ولا تسمو اليه الا النفوس الشريفة ، ولا تأباه الا العقول السخيفة ، وقد قالت

الحكماء : الكتاب نعم الجليس والذخر ، ان شئت ألهمتك بوادره (١) ،
وأضحكت نوادره (٢) ، وان شئت ألهمتك مواعظه ، وان شئت
تعجبت من غرائب فرائده ، وهو يجمع لك الأول والآخر ، والناقص
والوافر ، والغائب والحاضر ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ،
وهو ميت ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء ، وهو مؤنس
ينشط بنشاطك ، وينام بنومك ، ولا ينطق الا بما تهوى ...

وكان عبد الله محمد بن عائشة القرشي يقول : الأخبار تصلح
للدين والدنيا ، قلنا : الدنيا قد عرفنا ، فما للآخرة ؟ قال : فيها
العبرة يعتبرها الرجل ، وقال الله تعالى مخبرا عن قصة يوسف
واخوته : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب » .

وليس من عجب حين يجعل ياقوت علم الأخبار والأنساب
من علوم الملوك ، فانه حين علم الجبار (تيمورلنك) وهو في الشام
بأن ابن خلدون في دمشق استدعاه ، لسابق فضله في علم التاريخ
والأخبار والأنساب ، ولأنه كان عمدة المحققين وقتئذ ، فأراد
الطاغية التتري أن يأنس بحضرة هذا العالم الكبير ، بعد أسره هو
وجماعة من العلماء ، كانوا قد خرجوا في جيش السلطان (فرج)

(١) (البادرة) : البديهة وهي ما يستقبل به الامر فجأة ، أى مفاجئته

اياك بالطرائف .

(٢) (ندر الشيء) : شذو منه النوادر وشذوذها غرابتها ، واطراد

الطرائف النادرة أى القليلة .

لمدافعة هذا الجبار عن الشام ، ويقال ان ابن خلدون خلبه بسحر بيانه ، فأكرمه وأخلى سبيله ، لكى يسافر الى مصر ليحضر له تاريخه ومقدمته المشهورة ، لكى يقف على ما يقوله عن حوادث الأيام الحوالى والأعصار والأدهار المواضى ، فذهب ولم يعد اليه ، وفى هذا ما يؤيد رأى ياقوت فى أن علم الأخبار والأنساب من العلوم ، التى يحفل بها الملوك •

وأما الكتاب فلا يجهل فضله ، ولكن ياقوتا تقديرا له - لا ينسى أن يزيدنا علما بأثره العظيم ، وهو يستهدف من ذلك أن يحبينا اليه ، وأن يغرينا باصطحابه ومصادقته ، وحمله للاطلاع عليه والافادة منه ، وأما أثر علم الأخبار فى النواحي الدينية - فهو يأتى من ناحية أنه يمس مواطن العبرة ، وقد أوضح ذلك ياقوت فى مقدمة (معجم البلدان) ، حينما أشار الى عنايته بالتحدث عن الأماكن والديار وغيرها والدقة فى ضبط أسمائها ، فقد كان من جملة مقاصده فى مسلكه أن تتأمل المصير ، الذى انتهى اليه من سكنوها ، وأن نملاً نفوسنا بالتفكير فى أحوال من ذهبوا ، لنكون على حذر شديد من غدنا وعلى بينة من حاضرننا ، ولنستعد لمستقبلنا ، لنسلك فى حياتنا أقوم سبيل ، ونتفع بهدى الصالحين الأولين ، والقرآن أصدق مثل وشاهد على ذلك ، فقد أكثر من ضرب الأمثلة بحوادث الماضين للعبرة والتذكرة ، وانما يتذكر أولو الألباب •

واتباعا لمنهجنا فى البحث سنعرض لبعض النماذج من معجم

الأدباء ، نقدمها للقارئ ، كما فعلنا بمعجم البلدان ، ولكن لن نكثر من عرض هذه النماذج ؛ لأنها من الناحية الفنية تجرى على نمط واحد ، فبعضها يغنى عن بعض ؛ إذ كان الغرض رسم صورة واضحة للطريقة التي سلكها العرب في تراجم الأشخاص والأعلام ، وهذه الطريقة وإن كان لنقاد الأدب في عصرنا مآخذ كثيرة عليها - إلا أنها أثرت أدب التراجم العربية ، وقدمت لنا رغم قصورها صورا لا تحصى عن شخصيات علمائنا وأدبائنا وشعرائنا ، حتى كان لنا من هذا البحر الزاخر مدد عظيم ، أغنانا بمعلومات كثيرة عن حياة هؤلاء الخالدين ، وفيما يلي ترجمتان أوردهما ياقوت في باب الألف أوردهما على سبيل المثال :

١ - أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد - بديع الزمان

الهمداني •

بديع الزمان الهمداني أبو الفضل ، قال أبو شجاع سيرويه ابن شهردار في تاريخ (همدان) : ان الحسين بن يحيى بن سعيد ابن بشر أبا الفضل الملقب ببديع الزمان ، سكن هراة ، روى عن أبي الحسين (أحمد بن فارس بن زكريا) وعيسى بن هشام الاخبارى وكان أحد الفضلاء والفصحاء ، متعصبا لأهل الحديث والسنة ، ما أخرجت همدان بعده مثله ، وكان من مفاخر بلدنا ، روى عنه أخوه أبو سعد بن الصفار ، والقاضي أبو محمد عبد الله ابن الحسين النيسابورى ، قال وتوفى في سنة ثمان وتسعين

وثلاثمائة ، قال شيرويه محمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر الصفار : الفقيه أبو سعد أخو بديع الزمان أبي الفضل أحمد ابن الحسين بن يحيى لأبيه ، وأنه مفتى البلد ، وروى عن ابن لال وابن تركان وعبد الرحمن الامام ، وأبى بكر محمد بن الحسين الفراء ، وابن جئاح ، وذكر جماعة وافرة ، قال : وأدركته ، ولم يقصد لى عنه السماع ، وكان فى الحديث ثقة ، ويتهم بمذهب الأشعرية ، ويقال جن فى آخر عمره الى أن مات ، وسمعت بعض أصحابنا يقول : كان يعرف الرجال والمتون ، ولد فى ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ومات ولم يذكره ، وذكره الثعالبي فى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، كذا قال أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الجبار الفامى فى تاريخ هراة ، قال المؤلف وقد رأيت البديع فى عدة تصانيف من كتب العلماء ، فلم يستقص أحد خبره أحسن مما اقتصه الثعالبي ، وكان قد لقيه وكتب عنه ، فنقلت خبره من كتابه ، ولخصته من بعض سجمه قال :

بديع الزمان معجزة همذان ونادرة الفلك ، وبكر عطار ، وفرد الدهر ، وعزة العصر ، ولم نر نظيره فى الذكاء وسرعة الحاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ولم ندرك

نظيره فى طرف الشر وملحه ، وعزر النظم ونكته (١) ، وكان صاحب عجائب وبدائع ، فمنها انه كان ينشد الشعر لم يسمعه قط ، - وهو أكثر من خمسين بيتا - الا مرة واحدة ، فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها الى آخرها ، لا يخرم حرفا ، وينظر فى الأربعة والخمسة الأوراق من كتاب لم يعرفه ، ولم يره الا نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهذهها عن ظهر قلبه هذا (٢) ، ويسردها سردا ، وهذا حاله فى الكتب الواردة وغيرها .

وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو انشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب ، فيفرغ منها فى الوقت والساعة ، وكان ربما كتب الكتاب المقترح عليه ، فيبتدىء بآخره ، ثم هلم جرا الى أوله ، ويخرجه كأحسن شئ وأملحه ، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من انشائه ، فيقرأ من النظم الشر ، ويروى من الشر النظم ، ويعطى القوافى الكثيرة ، فيصل بها الأبيات الرشيقة ، ويقترح عليه كل عويص من النظم والشر ، فيرتجله أسرع من الطرف على ريق (٣) لم يبلعه ونفس لا يقطعه ، وكلامه

(١) (النكت) جمع نكتة : المعنى الدقيق المستملح ، وذلك ان من عادة الانسان اذا فكر فى أمر دقيق نكت الارض يعود بيده وهو يفكر فقليل لما استخرجه فى تفكيره (نكتة) .

(٢) (الهدى) : القطع فى القراءة ، تقول : هو يهذ القرآن هذا أى يتلوه عن ظهر قلب .

(٣) (على ريق) : أى فى لحظات لا تستغرق زمنا ، لقوة بديهته وفرط ذكائه .

كله عفو الساعة ، وفيض اليد ، ومسارقة القلم ، ومسابقة اليد
للفم ، وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة
على المعاني الغريبة بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الابداع
والاسراع ، الى عجائب كثيرة لا تحصى ، ولطائف تطول بأن
تستقصى ، وكان مع ذلك مقبول الصورة ، حسن العشرة •

وفارق همدان سنة ثمانين وثلاثمائة ، وهو في مقبل
الشيبة ، غض الحداثة ، وقد درس على أبي الحسن بن فارس ،
وأخذ عنه جميع ما عنده ، واستنفذ علمه ، وورد حضرة الصاحب
ابن عباد ، فتزود من ثمارها وحسن آثارها ، ثم قدم جرجان ،
وأقام بهامدة على مداخلة الاسماعيلية (١) ، والتعيش في أكنافهم ،
واختص بالدهخداة أبي سعيد محمد بن منصور ، ونفقت (٢)

(١) (الاسماعيلية) فرقة من الشيعة ، سميت بهذا الاسم ، لأنها وقفت
بسلسلة الامامة عند اسماعيل الابن الاكبر لجعفر الصادق ، الامام السادس ،
وقد جعلوا الامامة بعد جعفر لابنه اسماعيل ، وكان جعفر قد عين ابنه اسماعيل
خلفا له ، ولكنه عاد فعين ابنه الثاني (موسى) ، لأنه لقي اسماعيل ثملا غير
ان الاسماعيلية لم يسلموا بنزع الامامة من اسماعيل ، اذ كانوا يرون ان الامام
معصوم ، وان شرب الخمر لا يفسد عصمته ، وانه يجوز لله ان يأمر بشيء ثم
ينسخه على نقیض ما قرر جعفر ، وتوفي اسماعيل بالمدينة في سنة ١٤٣ هـ :
ومن معتقدات الاسماعيلية - انكار صفات الله ، لانهم يقولون انه فوق متناول
العقل ، والعقل عاجز عن ادراك كنهه ، ويقولون : ان الله لم يخلق العالم
اخلاقا مباشرا ، وانما ابدع العقل الكلى بعمل من أعمال الارادة ، وهو الامر ،
وان العقل الكلى محل لجميع الصفات الالهية ، وهو عندهم الاله ممثلا في
مظاهره الخارجية .

(٢) نفقت بضاعته : المراد قدرت مواهبه . علومه •

بضاعته لديه ، وتوفر حظه من عادته المعروفة في اسداء الافضال على الأفاضل ، ولما أراد ورود (نيسابور) أعانه بما سيره اليها ، فوردها سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، ونشر بها بزه (١) وأظهر طرزه (٢) وأملى أربعمائة مقامة ، نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية (٣) وغيرها ، وضمنها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، ثم شجر بينه وبين الأستاذ أبي بكر الخوارزمي (٤) - ما كان سببا لهبوب ريح الهمداني وعلو أمره ؛ اذ لم يكن في الحساب أن أحدا من العلماء ينبري لمساجلته ، فلما تصدى الهمداني لمباراته ، وجرت بينهما مقامات ومبادعات ومناظرات ، وغلب قوم هذا ، وغلب آخرون ذاك - طار ذكر الهمداني في الآفاق ، وشاع ذكره في الآفاق (٥) ، ودورت له أخلاف الرزق •

فلما مات الخوارزمي خلا له الجو وتصرفت به أحوال جميلة،

(١) بزه : البز القماش والكام مجاز •

(٢) (اظهر طرزه) : يريد اظهر مكنونات علومه وبراعته •

(٣) (الكدية) : الاستعطاء وحرفة السائل الملح •

(٤) (الخوارزمي) : هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الكاتب الشاعر اللغوى الاديب الرحالة ، فخرخوارزم وصاحب الرسائل المشهورة ، وفي آخر أيامه منى بمساجلة بديع الزمان الهمداني ومناظرته فخلل ، ولم يحل عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ •

(٥) (الافاق) : بضم الهمزة وتشديد الفاء جمع افق من بلغ النهاية في الفصاحة والعلم •

وأسفار كثيرة ، ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان (١) وغزنة بلدة الا دخلها وجنى ثمرها ، ولا ملك ولا وزير ولا أمير - الا استمطر بنوئه ، وسرى في ضوئه ، فخلصت له نعمة حسنة ، وثروة جميلة ، وألقى عصاه بهراة ، فاتخذها دار قراره ، وصاهر بها أبا على الحسين بن محمد الحشنامي ، وهو الفاضل الكريم الأصيل ، وانتظمت أحواله بمصاهرته ، واقتنى بمعونته ضياعا فاخرة ، وحين بلغ أشده ، وأربى على أربعين سنة - ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة وهاك نموذجا من رسائله ، وهو فصل من رقعة كتبها للخوارزمي ، وهذا أول ما كاتبه به :

« أنا لقرب الأستاذ كما طرب النشوان ، مالت به الحمر ، ومن الارتياح للقاءه كما انتفض العصفور بلله القطر ، ومن الامتراج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب ، ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب » ♦

والترجمة الثانية لابراهيم بن علي الحصري القيرواني (٢)

♦ الأنصاري

(١) سجستان : ناحية واسعة بين فارس والسند ، ومعنى اسمها بالفارسية : البلاد الجبلية ، فتحها عاصم بن عمرو في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) (القيروان) : مدينة عظيمة بالمغرب الأدنى ، بناها عقبة بن نافع الجهني سنة ٥٤ هـ ، وجعلها معقلا وحصنا لسكره ، ومقرا لولاية افريقية ، ومعنى القيروان : القافلة اذا خرجت لمحاربة أو غزو .

قال ابن رشيق : مات بالمنصورة من أرض القيروان سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ، وقد جاوز الأشد (١) قال : وكان شاعرا نقادا عالما بترتيل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحب المجانسة والمطابقة ، ويرغب في الاستعارة تشبها بأبى تمام في أشعاره ، وتتبع لآثاره ، وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى مجرى الماء ، ورق رقة الهواء ، لقوله في بعض مقطعاته :

يا هل بكيت كما بكت ورق الحمام (٢) في الغصون
هفت سحيرا والربى للقطر رافعة الجفون
فكأنها صاغت على شجوى شجى تلك اللحن
ذكرتى عهدا مضى للأنس منقطع القرين

والذى أعرف أنا من تصانيفه كتاب (زهرة الآداب) وكتاب (النورين) (٣) اختصره منها ، وهما يتضمنان أخبارا وأشعارا حسانا وكتاب المصون والدر المكنون ، وله عندى كتاب الجواهر فى الملح والنوادر ، كتبه عبد القادر البغدادى .

رأى فى تراجم معجم الأدباء والمائة بتاريخ طبعه وقيمه الأدبية والتاريخية :

(١) (الأشد) : بلغ أشده أى بلغ قوته ، وذلك ما بين الثمانى عشرة سنة الى الثلاثين .

(٢) ورق الحمام : جمع ورقاء ، وهى من الحمام كل ذى طوق .

(٣) قال الصفدى : ان اسمه نور الظرف ونور الطرف .

يذهب الأستاذ شفيق جبرى الى أن اضطراب الفكر الرياضى
سمة شائعة فى أدبنا ، وبخاصة أدب التراجم ، ويمثل لذلك بتراجم
ياقوت فى معجم الأدباء ، وبغيره من أدباء العرب الذين ألفوا كتباً
معروفة فى التراجم الأدبية ، ويقول : ان ياقوتا قد وقع فى ذلك
بالرغم من شهرته فى فن تراجم الأدباء وغيرهم ، ومع حرصه
الشديد على استقصاء كل ما يتعلق بالشخصيات التى يترجم لها ،
فهو حين يتحدث عن نسب الذين يترجم لهم - وهذا أمر طبيعى -
ينتقل سريعاً الى الحديث عن أعمال المترجم لهم ، وما اشتهروا به ،
وقد يذكر سنة الوفاة مهملاً سنة المولد ، ومن الغريب أن تذكر
سنة الوفاة فى صدر الترجمة ، وقد كان ينبغى أن تذكر سنة
الولادة •

ونحن اذا تتبعنا التراجم الأدبية الحديثة وجدنا لها عناصر
ومقومات أساسية ، تقوم عليها الترجمة ، لكى تسير فى خطها
الطبيعى ، وهى تمثل حياة العالم أو الأديب من مولده الى وفاته ،
وياقوت لا يسير بتراجمه فى هذا الخط ، وينأى عنه •

فاذا أخذنا ترجمته لبديع الزمان الهمداني نموذجاً للدراسة
- فالتنا نراه يبدأ الحديث عنه بذكر نسبه ، ثم يذكر سنة وفاته ،
ويهمل سنة مولده ، وينقل حديث الثعالبي عنه فى يتيمة الدهر ،
فيقول : « هو معجزة همدان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطار ،
وفرد الدهر ، وعزة العصر ، ولم نر نظيره فى الذكاء وسرعة

الخطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس » .

ولا شك فيما في هذا من الاضطراب في التسلسل المنطقي والترتيب الزمني ، الذي يجب أن يراعى في سرد قصة حياة البديع ، فقد كان من الطبيعي بعد الحديث عن نسبه - أن يتحدث ياقوت عن شيء من طفولة البديع ونشأته الأولى ، ومن قام بتثقيفه ، وكيف تثقف وهو صغير .

ثم نراه يذكر أنه سكن (هراة) ، ولم يوضح لنا لماذا ترك همدان مسقط رأسه ، وأقام بهراة ، ويستمر في نقل أشتات من المعلومات عنه ، مما يقوله الرواة ، ويحدد عمره بأربعين سنة ، ويقول انه توفي في سنة (٣٩٨ هـ) ، وما دام لم يبين سنة مولده فكيف يستطيع تحديد عمره ، لقد نقل ذلك طبعاً ، وسمعه من أفواه الناس ، وكان من الضروري أن يتحقق من سنة ولادته ، ليكون منطقياً في تحديد سنه متى عرفت سنة الوفاة ، والذي لا ريب فيه ان الاضطراب الفكري سائد في الترجمة، ثم يذكر ياقوت طرفاً من رسائل البديع ، وبخاصة مساجلاته الأدبية للخوارزمي ، وهذا مما يحمد لياقوت ؛ لأن التسجيل الأدبي بالنسبة للأدباء أمر ضروري .

أما ما نريده من الاضطراب الفكري في سرد مادة الترجمة، فانه يقوم على فقدان عناصر التسلسل الطبيعي ، وربط أجزاء الترجمة بعضها ببعض ، بحيث يوضع كل جزء منها في موضعه ،

ولعل منشأ هذا الاضطراب الفكرى راجع الى عدم توافر منابع الصافية والمصادر الدقيقة ، التى تمد ياقوتا بمادة كاملة مرتبة •

ولكننا مع تسليمنا بأن هناك اضطرابا فى تراجم ياقوت على نحو ما يقول الأستاذ (شفيق جبرى) - فان هذا لا يقلل أبدا من قيمة العمل الأدبى العظيم ، الذى قام به ياقوت فى معجم الأدباء ، مع ملاحظة اختلاف المناهج الأدبية فى عصرنا عن عصر ياقوت ويقول الأستاذ (جوستاف جرونيباوم) فى كتابه (حضارة الاسلام) : أما كتاب ياقوت المتوفى سنة ١٢٢٩ م (معجم الأدباء) فهو وثيقة تدل على سعة اطلاع هائلة ، وهو أحسن من الأغاني نظاما وتنسيقا للحقائق ، ولكن شخص العالم يكاد يكون فى كل موضع من الكتاب تقريرا - مختفيا وراء تحصيله الثقافى ، وفيما عدا حالات فردية قليلة - فان شخصيات الأدباء تهبط الى حال من الغموض ، لا يستبين الانسان معها شيئا ، والكاتب العربى متفوق فى ملاحظته لدقائق الأشياء وتفاصيلها ، وأنى يشق له غبار فى قصه للنوادر المحتوية على الخصائص الحادة النفاذة ، ولكنه فى معظم أمره لا يقدر ، أو لعله يرغب فى التأليف بين انطباعاته ، حتى تتكامل ، مؤثرا أن يسلكها احداها مع الأخرى فى سمط واحد ، مع أقل قدر من الرعاية لوحدة الشخصية ، التى يرسمها ، أو للتأليف الأدبى الذى يعمل فيه •

ولا يختلف ما يزعمه (جرونيباوم) عما ينسبه شفيق جبرى

الى ياقوت ، فهما متفقان على أن الترجمة الأدبية باعتبارها عملاً أدبياً كاملاً ، وفناً له أصوله وقواعده - لم تكتمل بعد عند أصحاب كتب التراجم من المؤلفين العرب ، ولم تتخذ عناصرها الأساسية •

غير أنه قد يكون من التجنى على الواقع أن نقيس فناً أدبياً في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، بما وصل إليه هذا الفن في القرن الرابع عشر الهجري مثلاً ، فإن كان العرب قد فاتهم في تراجمهم الأدبية ذلك التفكير الرياضي ، فلأنهم حين ترجموا الثقافات الأجنبية الى اللغة العربية - لم يحاولوا أن ينقلوا أدب اليونان ، لأنه أدب وثني ، يتحدث عن بنات الآلهة وأبناء السماء ، ولأنهم كانوا يعدون أدبهم من أسمى الآداب ؛ لذلك أهملوا متعمدين اصطناع المناهج الأدبية لدى الأمم الأخرى وبخاصة اليونان •

ومع ذلك فإن ياقوتا قد وفق في أكثر تراجمه ، ففي ترجمة بديع الزمان التي قدمناها مثلاً للدراسة - قد أعطانا فكرة واضحة عن حياة البديع الأدبية ، ورسائله ومساجلاته للخوارزمي ، وأما تقصيره من حيث تصوير النشأة الأولى لكاتب المقامات المشهور ، والعوامل التي لونت ثقافته الأدبية باللون الذي عرف به ، فإن الدراسات الأدبية وقتئذ عند العرب - كان لها طابعها الخاص المتأثر بظروف المجتمع العربي •

وبالرغم من كل ما أشرنا إليه - فإن تراجم ياقوت في معجم

الأدباء ذات قيمة أدبية وتاريخية ، وأنها ما تزال الى اليوم مرجع الدارسين فى هذا الميدان ، وما يزال (معجم الأدباء) منبعا فياضا ، يغترف منه الأدباء ومؤرخو الآداب ؛ اذ مما لا شك فيه أن فيه فيضا زاخرا عن أخبار النحاة والشعراء والنسابين والخباريين والمؤلفين وغيرهم ، فمن شاء التأليف فى أى ناحية من نواحي الأدب أو اللغة أو التاريخ - رجع اليه ، فهو موسوعة عربية كبرى ، بل لا نعدو الحق اذ قلنا : « انه كنز ثمين من كنوز اللغة ، وثروة ضخمة من ثرواتها ، ومورد عذب من أعذب مواردها ، وهو عرش الأدب ووكره ، ونبع الشعر ومتفجره ، ومجمع النثر ونهره ومجره ومنهمره ، وموئل الدر وبحره ، وهو البلاغة مسطرة والطلاوة محبرة » ♦

واذا وضعنا أماننا الظروف التى كانت تحيط بياقوت ، وغيره من علمائنا وأدبائنا فى تلك العصور - فانه لا يسعنا الا أن نحنى لهم الرؤوس تقديرا واحتراما ، فقد استطاعوا أن يجمعوا هذا التراث الخالد فى أيام كانت تقتضيهم أن يشدوا الرحال بين وقت وآخر ، ويتجشموا مشاق السفر من قطر الى قطر ، معرضين أنفسهم لكثير من الأخطار ، وكانت غايتهم أن يزوروا مكتبة عامرة بنفائس الكتب والمخطوطات ، أو يأخذوا عن شيخ من الشيوخ ، أو أستاذ سارت بذكره الركبان ، فحققوا بذلك ما كانت تنشده نفوسهم العالية ، وتركوا لنا أمجد تراث تعزز به البشرية جمعاء ♦

ان معجم الأدباء قاموس الأدباء والعلماء يجد فيه القارىء صورة دقيقة لحركة العلم واللغة والأدب فى الأمة الاسلامية فى مدى ستة قرون تقريبا ، ففيه تراجم اللغويين والأدباء والنحاة والشعراء وغيرهم فى كل فن وعلم ، وما ألفه المؤلفون فى كل عصر ، وفى كل علم من العلوم الأدبية والشرعية والاجتماعية والطبيعية ، ففيه تصوير دقيق للحياة الفكرية والتيارات الأدبية فى هذه الحقبة التى تناولها من التاريخ الأدبى للأمة العربية •

وكان معجم الأدباء قبل أن تتكامل لنا أجزاءه - يقع فى مجلدات متفرقة فى مكاتب (أوربة) و (الآستانة) ، حتى نشط العالم المستشرق الانجليزى (مرجليوث) للاشتغال بجمع شتات هذا السفر العظيم ، والوقوف على طبعه ، وقد اهتم لجنة تذكارات (جيب) بنشر ما يمكن العثور عليه من أجزائه ، وقد اعتمد (مرجليوث) فى نشر هذا المعجم على النسخة التى عثر عليها فى (بومباى) بالهند ، ثم نقلت الى مكتبة (بوريل) بجامعة (أكسفورد) بانجلترا ، كذلك اعتمد الناشر فى تصحيحها على المؤلفات التى نقل عنها ياقوت ، أو التى نقلت عنه •

ومن الكتب التى نقلت عن ياقوت (معجم الصفدى) المسمى الوافى بالوفيات ، وفى مكتبة (بوريل) أحد عشر مجلدا منه ، وهو ينقل عن ياقوت بتوسع كبير ، ثم كتاب (روضة الجنات) المطبوع بالهند سنة ١٣٣٤ هجرية ، وفيه مقتبسات من معجم ياقوت

ومعجم السيوطي ، ومنه عدة نسخ مخطوطة ، وفوات الوفيات لابن
شاكر الكتبي ، ومعجم القفطي .

واستعان على تصحيحه بعلماء ثقات ، ومن هؤلاء (العلامة
اللغوي الكبير ابراهيم اليازجي) ، فقد راجع ما يقرب من نصف
الكتاب ، وراجع النصف الباقي (العالم الناقد قسطنطين (بك) الحمصي)
صاحب كتاب تاريخ النقد في الأدب العربي ، وقد اشترك في ابداء
بعض الملاحظات على طبعة (مرجليوث) المرحوم (الشيخ
عبد العزيز جاویش) و (الشيخ محمد حسنين الغمراوي (بك)) ،
ثم أعاد الناشر طبع الكتاب مرة ثانية ، وعندئذ أدخلت عليه
تحسينات وتنقيحات ، استمدتها من تلك الملاحظات القيمة ، التي
أبداها كبير اللغويين (الأب أنستاس ماري الكرملی) ، واعتمادا
على بعض المراجع الكبرى كطبقات (الزبيدي) وتاريخ دمشق
لابن عساكر ، وهو يتناول فقرات كثيرة ، أوردها ياقوت في معجمه ،
و «نشوار المحاضرة» للتتوخي وغيرها ، ثم قامت دار المأمون بطبع هذا
المعجم طبعة ثالثة بمطبعة الحلبي ، وذلك بالشكل الكامل ، وبحروف
كبيرة ، فكبر حجم المعجم حتى صار عشرين جزءا ، وقد أشرفت
(وزارة المعارف) وقتئذ (التربية والتعليم) الآن - على هذه الطبعة ،
وكلفت أساتذتها الأعلام - القيام بتصحيح الطبع ، فأحسنوا الشرح
والتعليق ، وألحق بكل جزء فهرس لأعلامه ، كما ألحق بالجزء
الأخير فهرس عام للأعلام ، على حسب ترتيب حروف المعجم ،

وفهرس آخر للطبقات ، فطبقة الأدباء والشعراء لها فهرس ، وطبقة الأدباء فقط لها فهرس ، ثم طبقة الأدباء النحويين ، وطبقة الأدباء اللغويين ، وطبقة النحويين اللغويين ، وطبقة الشعراء النحويين اللغويين ، ولا شك فيما لهذه الفهارس من قيمة فنية وعلمية في تيسير البحث في المعجم ، والانتفاع بمادته الغزيرة ، وتلك طريقة حديثة ، ابتدعها أفاضل المستشرقين ، الذين أخلصوا في البحث للبحث نفسه والتنقيب والضبط ، وتحقيق الأصول ، وتميز طبعة دار المأمون فضلا عن هذا بحسن الإخراج وبالشرح اللغوي ، والتعريف بكثير من الرجال ، الذين أشار إليهم ياقوت أثناء تراجعه ، كما تشتمل على زيادات وطرف أدبية ولغوية •

ياقوت في معجميه

يرز ياقوت في معجميه (معجم البلدان) و (معجم الأدباء) عملاقا كبيرا من عمالقة التأليف في الموسوعات الأدبية والعلمية والتاريخية ، وقد أشرنا من قبل الى هذين المعجمين اللذين ألفهما ، وهو الذي بدأ حياته الأولى كاتباً وحاسبا صغيراً عند سيده عسكر ابن أبي نصر الحموي •

وانا لندعش حقاً لهذه الطاقة العلمية والأدبية الكبرى لياقوت ، التي أنتجت هذين الكتابين أو الموسوعتين ، وكان من الانصاف لهذا

العالم الكبير أن نطيل الوقوف أمام هذين الأثرين الجليلين ؛ لأنهما
فاقا كل آثاره •

فقد دل أولهما وهو معجم البلدان على أن (ياقوتاً) كان
علماً جغرافياً أضاف إلى حقل الجغرافية ثروة علمية نفيسة ، وقد
وصف العالم الإيطالي (ألدوميلي) Alclomieli (في كتابه
العلم العربى وأثره فى تطور العلم العالمى) : معجم البلدان « بأنه
الكتاب الزاخر ، والقاموس الجغرافى العظيم ، كما أشار فى الوقت
نفسه إلى أن التأليف الجغرافى قد هبط مستواه فى القرنين العاشر
والحادى عشر الميلاديين ، اللذين عاش ياقوت فى أواخر الأول
منهما وأوائل الثانى - إلا أن كتابه كان وما يزال فى مقدمة المراجع
الجغرافية العربية الاسلامية ، وقد نوهنا عن منزلة هذا المعجم وقيمته
العلمية والأدبية والتاريخية والجغرافية فى حديثنا عنه من قبل •

وأما معجم الأدباء فهو دليل آخر على سعة اطلاع ياقوت فى
النواحى الأدبية ، وفى فن التراجم بالذات ، والذين درسوا
المعجمين معا يدركون إلى حد كبير أن ياقوتاً ، وهو المؤلف العربى
الاسلامى الكبير - كان خبيراً حقاً بتأليف الموسوعات العلمية
والأدبية ، وأن ثقافته التى اشتهر بها - وإن كانت جغرافية - إلا
أنه أحسن مزجها بالأدب ؛ إذ كان يؤمن بأن التعبير الفنى وسيلة
قوية لإبراز الفكرة العلمية فى صورة واضحة ، لأن الأدب فيما
يعتقده نتاج الفكر ، مثله فى ذلك مثل العلم وإن كانت العاطفة هى

الظاهرة العقلية البارزة في الأدب ، فاذا استخدم التعبير الأدبي في الصياغة العلمية - التقى الأداء الأدبي بالتفكير العلمي ، وعندئذ تزدد الفكرة العلمية وضوحا ، وتشتد قربا من أذهان عامة المثقفين •

ولا يسعني وأنا أختم حديثي عن ياقوت ، الا أن أهيب بشبابنا من عرب ومسلمين - أن يتتبعوا بآثار علماء المسلمين ، في كل مجال من مجالات العلم والأدب ، كما أهمس في آذان الباحثين الذين يهتمون بالدراسات العربية الاسلامية - بأن يتوافروا على استخراج البحوث ، التي أشرت اليها في معجم البلدان ، والله تعالى الموفق •



مركز تحقيقات كافيير علوم اسلامی

فهرس

الصفحة

الموضوع

٣ تقديم
	الفصل الأول :
٩	العرب والجغرافية فى عصر ما قبل الاسلام
	الفصل الثانى :
٤٦	عصر ياقوت فى ميزان التاريخ
	الفصل الثالث :
١٣٧	نماذج من معجم البلدان
	الفصل الرابع :
١٩٥	ياقوت بين الجغرافيين

الطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧١/٢١٦١

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
الفصل الأول :	
العرب والجغرافية فى عصر ما قبل الاسلام	٩
الفصل الثانى :	
عصر ياقوت فى ميزان التاريخ	٤٦
الفصل الثالث :	
نماذج من معجم البلدان	١٣٧
الفصل الرابع :	
ياقوت بين الجغرافيين	١٩٥

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٢١٦١/١٩٧١